

إصدارات الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه

سلسلة الرسائل العلمية (٣١)

منهج القرآن الكريم في محاربة الشرك

إعداد

د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه في جامعة القصيم

تقديم

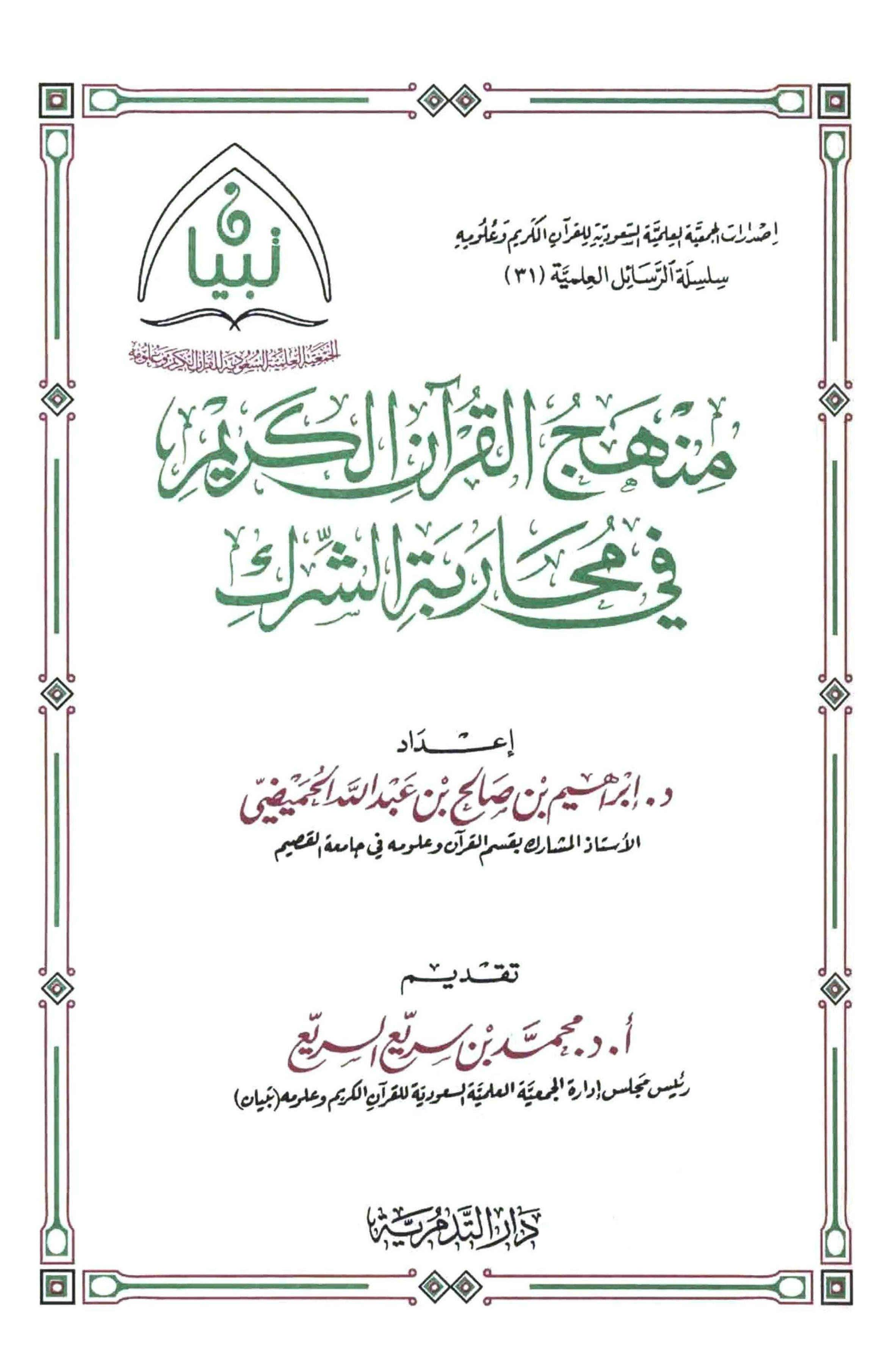
أ. د. محمد بن سريّع السريّع

رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان)



طبع على نفقة مؤسسة عبدالله بن زيد الغنيم الخيرية

دار التدمرية



إصدارات الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه
سلسلة الرسائل العلمية (٣١)

منهج القرآن الكريم في محاربة الشرك

إعداد
د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي
الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه في جامعة القصيم

تقديم
أ. د. محمد بن سريّع السريّع
رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان)

دار التدمرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فيسر **الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان)** أن تقدم للعلم وأهله وطلابه الإصدار (٣٠) من سلسلة إصدارتنا من الرسائل العلمية في الدراسات القرآنية ؛ مشاركة في دعم حركة البحث العلمي ونشر المتميز من جهود الباحثين .

والرسالة التي بين أيدينا (**منهج القرآن الكريم في محاربة الشرك**) لفضيلة الشيخ الدكتور: إبراهيم بن صالح الحميضي - الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه بجامعة القصيم .

وهي تعالج موضوعاً غاية في الأهمية ؛ إذ القرآن الكريم إنما جاء لتقرير التوحيد ، وبيان التوحيد وفضله والدعوة إليه وإيضاح عاقبة أهله ، والتحذير من ضده (الشرك) والتنفير منه وبيان عقوبة أهله وعاقبتهم في الدنيا والآخرة .

وحريٌ بالباحثين والبحوث أن توجه لهذه الموضوعات التي عظمت عناية القرآن بها ، وكثر ذكرها فيه ؛ إذ ذلك دليل أهميتها وبرهان الحاجة إلى علمها وفهمها والعمل بها وتحقيقها والدعوة إليها .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الإصدار ، وأن يجزي أخانا الدكتور / إبراهيم الحميضي خير الجزاء ، وأن يجزل الأجر لإخواننا المشايخ الأفاضل في اللجنة العلمية على جهودهم المباركة إنه سميع مجيب .

وصل الله وسلم على نبيا محمد وآله وصحبه أجمعين .

رئيس مجلس إدارة

الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه

أ.د محمد بن سريع بن عبدالله السريع



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن من أعظم النعم التي امتن الله – تعالى – بها على هذه الأمة إنزالَهُ هذا الكتابَ العظيم الذي جعله موعظةً وشفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

وقد بيّن الله – تعالى – في كتابه الكريم كلَّ ما يحتاجه البشر في أمور معاشهم ومعادهم، وأوضح لهم فيه أسباب سعادتهم في دنياهم وأخراهم.

هذا وإن المتأمل في آيات هذا الكتاب الحكيم يجد فيها الاهتمام البالغ، والعناية الكبيرة بأمر الشرك؛ حيث ساق الأدلة الكثيرة والبراهين المتنوعة لبيان بطلانه، وأورد الأساليب المختلفة في سياق محاربته، وسلك المناهج المتعددة في مخاطبة أهله ومجادلتهم، وما ذاك إلا لشناعته وبشاعته، وخطره العظيم على الأفراد والجماعات، ولا غروَ في ذلك فما أرسلت الرسل، ولا أنزلت الكتب، ولا جرِّدت سيوف الجهاد إلا لتوحيد الله – تعالى – بالعبادة واجتناب الشرك، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال – تعالى –: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومع هذه الأهمية الكبيرة للتوحيد وقع فيه الخللُ والنقص، وتهاون به الكثير من الناس، فوقعوا في كثير من مظاهر الشرك، وتساهلوا فيها، مع ادِّعائهم التوحيد وبراءتهم من الشرك، ونفورهم من الانتساب إليه، هذا معَ أنهم يقرؤون القرآن، ويزعمون أنهم يمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه، وذلك لجهلهم أو تقصيرهم في معرفة الحق.

ولذلك اخترت البحث في هذا الموضوع، وجعلت عنوانه (منهج القرآن الكريم في محاربة الشرك) لأسباب عديدة، منها:

١- أهميةُ الموضوع وحاجة الناس الماسة إليه، فقد انتشر الشرك في كثير من البلاد الإسلامية، وبصور متعددة وأشكال خفيَّة ومختلفة[1].

٢- عدمُ اطلاعي على كتاب ضم أطراف الموضوع، وعالجه من خلال القرآن الكريم، وكشف عن الهدايات والمقاصد القرآنية فيه.

٣- عِنَاية القرآن الكبيرة بهذا الموضوع، حيث لا تكاد تخلو سورة من سوره المكية والمدنية من الحديث عن الشرك والمشركين، وبأساليب مختلفة وطرق متنوعة، بل إن القرآن كلَّه تقرير للتوحيد، ونهي عن ضده، وهو الشرك، ومما يدل على ذلك أن مادة (شَرَكَ) وردت في القرآن قرابة ثمانين ومائة مرة، فضلاً عمَّا جاء بمعناها بألفاظ أخرى.

٤- عِنَاية علماء الكلام ببيان عقائد الإسلام، وسلوكهم في التدليل عليها سبيل المنطق اليوناني، ثم جمود بعض المتأخرين على هذا الأسلوب، وغفلتهم عن

(١) وفي العصر الحاضر هناك عودة في الأمة إلى التوحيد الخالص ولله والحمد، ولكن الحاجة ماسَّة إلى تضافر الجهود لنشر التوحيد والسنة، ومحاربة مظاهر الشرك والبدعة بكافة الوسائل المتاحة.

بيان القرآن، ولذلك خَفي على الناس ما هو شركٌ أو سبب إليه [1].

٥- عِنَاية كثير من المتأخرين بتوحيد الربوبية، وتقريره بأدلة متنوعة، وحديثهم عن آيات الربوبية الكونية منها والشرعية، وإهمالُهم توحيد الألوهية وما يضادَّه أو ينافي كماله، وهو الشرك، مع أن عناية القرآن به أكبر، واهتمامه به أشد.

٦- عِنَاية كثير ممن كتب في التفسير الموضوعي بالموضوعات السلوكية والأخلاقية، ولذلك أحببت أن أطرق أحدَ الموضوعات العَقَدِية من خلال هذا اللون من ألوان التفسير، وذلك لأن اهتمام القرآن الكريم بموضوعات العقيدة أكبرُ من اهتمامه بموضوعات السلوك والأخلاق.

---

(١) انظر الشرك ومظاهره، للميلي ص(٢١).

خطة البحث:

هذا الموضوع يشمل مقدمة وتمهيداً وثلاثة أبواب وخاتمة، وهي على النحو التالي:

المقدمة، و تشتمل على ما يلي:

١- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

٢- خطة البحث.

٣- منهج البحث.

والتمهيد: يشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تعريف الشرك.

المبحث الثاني: مراتب الشرك.

الباب الأول: أسباب الشرك ومظاهره في ضوء القرآن الكريم، وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب الشرك في ضوء القرآن الكريم، وفيه مباحث:

المبحث الأول: الإعجاب والتعظيم والغلو في المخلوقين.

المبحث الثاني: التقليد.

المبحث الثالث: اتباع الهوى.

المبحث الرابع: الكِبر.

المبحث الخامس: الجهل بالله - تعالى - وأسمائه وصفاته.

المبحث السادس: إهمال العقل، وعدم التفكر في آيات الله -تعالى-.

الفصل الثاني: مظاهر الشرك الواردة في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر الشرك الاعتقادية في ضوء القرآن الكريم، وفيه مطالب:

الفصل الثاني: آثار الشرك الأخروية في ضوء القرآن الكريم، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الشرك محبط لجميع الأعمال.

المبحث الثاني: تحريم الجنة على المشرك وخلوده في النار.

الباب الثالث أساليب القرآن ووسائله في محاربة الشرك، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أساليب القرآن في محاربة الشرك، وفيه مباحث:

المبحث الأول: النهي الصريح.

المبحث الثاني: مخاطبة الفطرة.

المبحث الثالث: الدعوة إلى التفكر في الآيات الكونية.

المبحث الرابع: ذكر محاسن التوحيد.

المبحث الخامس: التذكير بالنعم.

المبحث السادس: التنديد بآلهة المشركين وإظهار عجزها وحقارتها.

المبحث السابع: التشنيع بحال المشركين ورميهم بالسفه والضلال.

المبحث الثامن: التذكير بعقوبة الله للمشركين السابقين.

المبحث التاسع: بيان ما يحصل بين المشركين وشركائهم يوم القيامة.

الفصل الثاني: أساليب القرآن في محاربة المشركين، وفيه مباحث:

المبحث الأول: الاستفهام التقريري والإنكاري.

المبحث الثاني: القصص القرآني.

المبحث الثالث: ضرب الأمثال.

المبحث الرابع: السبر والتقسيم.

المبحث الخامس: التسليم.

المبحث السادس: الاستدلال بأن ما يدَّعونه مستحيلٌ عقلاً.

المبحث السابع: مجاراة الخصم لتبيين خطئه.

المبحث الثامن: المباهلة.

الفصل الثالث: وسائل القضاء على الشرك ومقاومته في ضوء القرآن الكريم،

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الدعوة إلى التوحيد.

المبحث الثاني: نقض شبهات المشركين.

المبحث الثالث: إزالة مظاهر الشرك.

المبحث الرابع: الهجرة.

المبحث الخامس: الجهاد.

الخاتمة: و ذكرت فيها أهم النتائج مع التوصيات.

الفهارس.

وهنا أُنبه إلى أن الباب الأول والثاني داخلان في حدود البحث؛ فإن من منهج القرآن الكريم في محاربته للشرك والتحذير منه وبيان بطلانه، وذكرَ أسبابه الموصلة إليه لتُجْتَنب، وبيان حقيقته ومظاهره لتُعْرَف، وإيضاح آثاره الخطيرة في الدنيا والآخرة؛ لِكي يخافه الإنسان، ويخشى عواقِبَه.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث منهج التفسير الموضوعي، واتَّخذت الإجراءات التالية:

١- الاعتماد على القرآن الكريم، ثم كتب التفسير أساساً للبحث في هذه البحث.

٢- تفسير الآيات تفسيراً إجمالياً عدا ما تدعوا الحاجة إلى الوقوف عنده وتفصيله.

٣- إذا وردت عدةُ آيات في المعنى الواحد اخترت نماذج منها واستغنيت بها عن الباقي.

٤- حاولت ربط قضايا البحث بالواقع المشاهد، وتتريل هذا الواقع عليها.

٥- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها.

٦- خرَّجت الأحاديث والآثار من مصادرها المعتمدة، ونقلت أحكام الأئمة على ما ليس في الصحيحين من الأحاديث.

٧- شرحت الغريب، وعلَّقت على الغامض، وضبطت المُشْكِل.

٨- وثَّقْت النصوص، وعزوتها إلى مصادرها الأصلية.

٩- ترجمت بإيجاز للأعلام غير المشهورين عند أول ذكرهم.

١٠- وضعت فهارس للآيات، والأحاديث والآثار، وتراجم الأعلام، والمصادر والمراجع، والموضوعات.

وقد اجتهدت في بحث هذا الموضوع، وتحريره، وإبراز مقاصده وأهدافه، وإن كانت سعته وتشعب مباحثه حالت دون إطالة الوقوف عند آياته، واستخراج المزيد من حكمه وهداياته، فأرجو معذرتي عما حصل فيه من خطأ

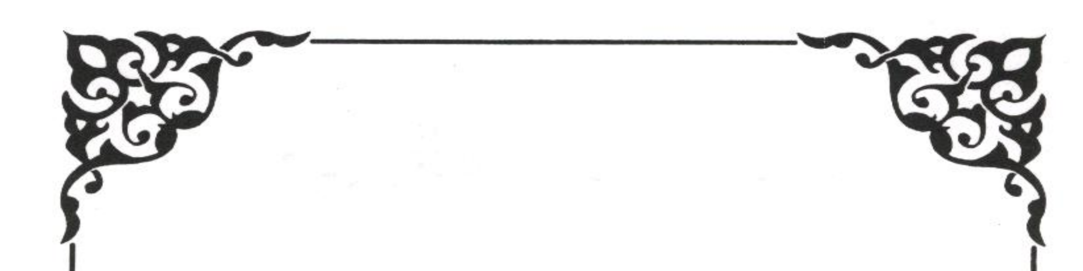
أو تقصير.

وفي الختام أشكر الله - تعالى — على إعانته وتيسيره إتمام هذا البحث، فله الحمد كثيراً طيباً مباركاً فيه، ثم أشكر كلَّ من أعانني على إنجازه وإخراجه من الأهل، والزملاء، والأساتذة الكرام الذين تفضلوا بقراءته وتقويمه، وأسأل الله -تعالى- أن يجزيهم عني خير الجزاء.

كما أسأله - سبحانه - الهداية والسداد، والإخلاص في القول والعمل، وأن ينفعنا بكتابه العزيز ويجعلنا من أهله، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي
الأستاذ المشارك في جامعة القصيم
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم القرآن وعلومه
ناسوخ ٠٦٣٢٦٠١٩٦
Ib1430@gmail.com



التمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الشرك.

المبحث الثاني: مراتب الشرك.





المبحث الأول: تعريف الشرك

تعريف الشِّرْكُ في اللغة:

الشِّرْكُ في اللغة: هو الاشتراك مطلقاً، وعدم الانفراد.

قال ابن فارس[١]: "الشين والراء الكاف أصلان، أحدهما يدل على اقتران وعدم انفراد...، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلاناً في الشيء، إذا صرت شريكه، وأشركت فلاناً إذا جعلته شريكاً لك...

والآخر يدل على امتداد واستقامة، ومنه شَرَكُ الصائد، سمي بذلك لامتداده..."[٢].

والشريك المشارك، والشِّرْك كالشريك، والجمع: أشراك وشركاء، كما يقال: شريف وأشراف وشرفاء [٣].

والشِّرْك: الحصَّة والنصيب، كما في الحديث: ((من أعتق شركاً له في عبد...)) [٤]، أي نصيباً كما في بعض الروايات [٥].

(١) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبوالحسين، من أئمة اللغة والأدب، من تصانيفه: معجم مقاييس اللغة، وجامع التأويل في تفسير القرآن، وغيرهما، توفي عام ٣٩٥هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٠٣/١٧، والأعلام ١٩٣/١.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٦٥/٣.

(٣) انظر لسان العرب ٢٢٤٨/٤، وتهذيب اللغة ١٦/١٠.

(٤) متفق عليه، انظر صحيح البخاري مع الفتح ١٥١/٥ ح(٢٥٢٢)، وكل ما أحيل عليه في صحيح البخاري فهو مع الفتح، وأخرجه مسلم في صحيحه ١١٣٩/٢ ح(١٥٠١).

(٥) انظر صحيح البخاري ١٥١/٥ ح(٢٥٢٤).

وقال الراغب الأصفهاني[(١)]: "الشِّرْكَةُ والمشاركة: خلط المِلكين، وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعداً عيناً كان ذلك الشيء أو معنىً..."[(٢)].

ومما سبق يتبين أن الشرك في اللغة يطلق على الاشتراك مطلقاً، وعدم الانفراد.

تعريف الشرك في الشرع:

الشرك ضد التوحيد، وهو - أي الشرك -: أن يجعل الإنسان لله نداً في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته [(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأصل الشرك أن تَعْدِل بالله - تعالى - مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحدٌ بالله شيئاً من مخلوقاته في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به"[(٤)].

ويقول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ[(٥)]: "الشرك قد عرَّفه النبي ﷺ بتعريف جامع كما في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه-

(١) هو الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، المعروف بالراغب، من أئمة اللغة والأدب، من تصانيفه: المفردات في غريب القرآن، ومحاضرات الأدباء وغيرهما، توفي عام ٥٠٢هـ، انظر الأعلام ٢/٢٥٥، ومعجم المؤلفين ٤/٥٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص(٤٥١).

(٣) انظر معارج القبول ١/٢٦٨، وفتاوى اللجنة الدائمة ١/٥١٦.

(٤) الاستقامة لابن تيمية ١/٣٤٤.

(٥) هو العلامة الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولد في الدرعية، ودرس في الأزهر مختلف العلوم، له رسائل ومؤلفات وشعر، توفي في الرياض سنة ١٢٩٣هـ، انظر علماء نجد خلال ستة قرون ١/٦٣، ومعجم المؤلفين ٦/١٠.

أنه قال: ((يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك...))[١]، والند: المثل والشبيه، فمن صرف شيئاً من العبادات لغيرالله فقد أشرك به شركاً يبطل التوحيد وينافيه"[٢].

ويقول الشيخ عبدالرحمن السعدي[٣]: "وحقيقة الشرك بالله: أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله، أو يعظَّم كما يعظَّم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية أو الألوهية"[٤].

والشرك إذا أطلق في الكتاب والسنة وكلام السلف فإنه ينصرف إلى الشرك في الألوهية، وهو مقصودي في هذا البحث، حيث إنه هو أول ما نهت عنه الرسل، وهو أكثر شرك الأمم، وهو الذي عمَّت به البلوى في كل زمان،، مع العلم أن الشرك في الألوهية مستلزم للشرك في الربوبية والأسماء والصفات، فإن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر [٥].

تنبيه:

يرى كثير من المتكلمين وأهل التصوف قديماً وحديثاً أن التوحيد مختص

---

(١) أخرجه البخاري ١٦٣/٨ ح(٤٤٧٧)، ومسلم ٩٠/١ ح(١٤١).

(٢) الدرر السنية ٣١٩/٢.

(٣) هو العلامة الزاهد المحقق الفقيه المفسر عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله آل سعدي، له تصانيف كثيرة منها تفسيره المشهور، والمختارات الجلية في المسائل الفقهية وغيرها، توفي عام ١٣٧٦هـ في عنيزة، انظر علماء نجد خلال ستة قرون ٤٢٢/٢، ومقدمة تفسيره ٥/١.

(٤) تفسير السعدي ٤٩٩/٢.

(٥) انظر معارج القبول ١٧٩/١، وحاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(١٢).

بالاعتقاد فقط، وعلى هذا فهم ينفون وقوع الشرك في العبادات إذا لم يتضمن الشرك في الاعتقاد، فاتخاذ الوسائط بالسؤال والطلب ليس شركاً عندهم إذا لم يتضمن اعتقاد استقلالية المطلوب وقدرته على الاختراع الذي هو حقيقة الألوهية عندهم، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ليس شركاً عندهم إلا إذا تضمن اعتقاد استحقاق العبادة لمن صرفت له [(١)].

"وهذا مما يعلم بطلانه بصريح الكتاب والسنة وواقع ما كان عليه المشركون، فقد كانوا معتقدين أن الله هو الخالق والرازق ونحو ذلك من خصائص الربوبية، ولكن شركهم كان من جهة الإرادة، إما من جهة الشرك في الغايات أو في الوسائط والأسباب.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

فالمشركون لم يكونوا يعدلون غيره معه بمجرد الاعتقاد، وإنما كانوا يعدلون به غيره في المحبة والإجلال والتعظيم"[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد أخبر - سبحانه - عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بيّنه في كتابه فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ

(١) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/٤٤٠، و ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة للشيخ عبدالله القرني ص(٩٩-١١٨)، ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب للدكتور عبدالعزيز العبداللطيف ص(٣٢٨-٣٤٦).

(٢) ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة ص(١٠٠).

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩١]، وقال: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وبهذا وغيره يعرف ما وقع من الغلط في مسمى التوحيد، فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر: غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع:

فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له.

وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث، وهو "توحيد الأفعال"، وهو أن

خالق العالم واحد، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع[(١)] وغيرها، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا: لا إله الا الله، حتى جعلوا معنى الإلهية: القدرة على الاختراع.

ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولاً لم يكونوا يخالفون في هذا، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء، حتى إنهم كانوا يقرون بالقدر أيضاً، وهم مع هذا مشركون"[(٢)].

الفرق بين الكفر والشرك:

الكفر أعم وأشمل من الشرك، فكل شرك كفر وليس كل كفر شركاً، حيث إن الشرك يتضمن وجود مشارك لله - تعالى - في أحد حقوقه، بخلاف الكفر فإنه عدم الإيمان مطلقاً سواء كان بالشرك، أو بجحد النبوة، أو بتكذيب الله - تعالى - أو رسوله ﷺ، أو غير ذلك من نواقض الإيمان، فالشرك نوع من أنواع الكفر كما قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ١]، وقال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥] [(٣)].

---

(١) وسيأتي بيان المراد بهذه الدلالة في الباب الثالث ـــ إن شاء الله تعالى ـــ انظر ص (٣٦٣).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٧/٣، وانظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٢٥/١-٢٢٨.

(٣) انظر الشرك الأصغر حقيقته وأحكامه للشيخ عبدالله السليم ص(١٧).

قال الشيخ عبدالرحمن بن قاسم [١]: "والشرك والكفر يطلقان بمعنى واحد، وهو الكفر بالله، واسم لمن لا إيمان له، وقد يفرق بينهما، فيخص الشرك بقصد الأوثان[٢] وغيرها من المخلوقات مع الاعتراف بالله، فيكون الكفر أعم"[٣].

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي: "الكفر أعم من الشرك، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أي دين يكون، سواء كان صاحبه معانداً أو جاهلاً أو ضالاً..."[٤].

---

(١) هو الشيخ العلامة المحقق عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني، برع في علوم كثيرة، له مؤلفات وتحقيقات نفيسة منها حاشيته على الروض المربع، وأصول الأحكام وغيرهما، توفي عام ١٣٩٢هـ، انظر علماء نجد ٤١٥/٢، ومقدمة حاشيته على الروض ٣/١.

(٢) الأوثان جمع وَثَن، وهو الصنم، وقيل: الصنم الصغير، قال ابن الأثير: "الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له جثَّة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة، كجُثَّة الآدمي تُعمل وتُنصب فتُعبد، والصنم: الصورة بلا جثة، ومنهم من لم يفرق بينهما، وأطلقهما على المعنيين، وقد يطلق الوثن على غير الصورة"النهاية ١٥١/٥، وانظر لسان العرب ٤٦٥/٨، وقيل: الصنم هو ما كان له جسم وصورة، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن، وقيل: الصنم هو كل ما عبد من دون الله، انظر لسان العرب ٢٥١١/٤.

(٣) حاشية ثلاثة الأصول ص(٣٥).

(٤) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي ص(٤٩٣).

المبحث الثاني: مراتب الشرك

الشرك في الألوهية ليس مرتبة واحدة، بل هو مراتب بعضها أغلظ من بعض، وقد اختلف العلماء في تقسيمه، فبعضهم جعله ثلاث مراتب: أكبر وأصغر، وخفي، وبعضهم جعله مرتبتين: أكبر، وأصغر [١]، والأرجح - والله تعالى أعلم - أن الشرك الخفي داخل تحت الشرك الأصغر [٢]، ثم إن الشرك الأصغر عموماً قد يرتقي إلى درجة الشرك الأكبر بنيه صاحبه ومقصده.

قال ابن القيم في معرض حديثه عن الشرك الأصغر: "وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده"[٣].

تعريف الشرك الأكبر:

اختلفت تعريفات العلماء للشرك الأكبر وإن اتفقت في مدلولاتها ومعانيها، ومن أجمع هذه التعريفات ما يلي:

١- عرفه ابن القيم بقوله: "هو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين"[٤].

٢- وعرفه الشيخ عبدالرحمن بن قاسم بقوله: "فالأكبر أن يسوِّي غيرَ الله

---

(١) انظر شرح نواقض الإسلام للشيخ حسن العواجي ص(٢٣).

(٢) ويأتي الحديث عنه- الخفي- في مبحث الرياء ــ إن شاء الله تعالى ــ في الفصل الثاني، انظر ص(١٠٥).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٣٧٣/١.

(٤) مدارج السالكين ٣٦٨/١.

بالله فيما هو من خصائص الله"[١].

٣- وعرفه الشيخ عبدالرحمن السعدي بقوله: "فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: أن يصرف العبد نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله، فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر"[٢].

وقد جعله بعضهم أربعة أنواع، وجعله بعضهم ستة، والراجح - والله تعالى أعلم - أنه ليس محصوراً في أنواع معينة، وما يذكره العلماء إنما هي صور ونماذج منه، قال ابن القيم: "والشرك أنواع كثيرة لا يحصيها إلا الله"[٣].

تعريف الشرك الأصغر:

اختلفت تعريفات العلماء للشرك الأصغر، فبعضهم يعرفه بالحدِّ[٤]، وبعضهم يعرفه بضرب الأمثلة[٥]،[٦] ومن أجمع هذه التعريفات ما يلي:

١- تعريف الشيخ عبدالرحمن السعدي حيث يقول: "حدُّ الشرك الأصغر: هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة"[٧].

---

(١) حاشية كتاب التوحيد ص(٥٠).

(٢) القول السديد في مقاصد التوحيد ص(٤٨).

(٣) مدارج السالكين ١/٣٧٦.

(٤) الحَدُّ: هو قول دال على ماهية الشيء، والمراد به التعريف، انظر التعريفات للجرجاني ص(٨٣).

(٥) كقولهم: الشرك الأصغر كيسير الرياء.

(٦) انظر تعريفاته ومناقشتها في رسالة الشرك الأصغر حقيقته وأحكامه وأنواعه ص(٣٢).

(٧) القول السديد ص(٤٨).

٢- وعرفه الشيخ عبدالرحمن بن قاسم بقوله: "والأصغر: ما أتى في النصوص أنه شرك و لم يصل إلى حد الشرك الأكبر"(١).

٣- وعرفته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بقولها: "الشرك الأصغر: كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه، وجاء في النصوص تسميته شركاً"(٢).

الفرق بين الشرك الأصغر والأكبر:

سبق بيان الفرق بينهما من حيث الحد، وهنا أذكر الفروق بينهما من حيث الأحكام المترتبة عليهما في الدنيا والآخرة، وهي كما يلي:

١- الشرك الأكبر مخرج عن ملة الإسلام، بخلاف الأصغر فإنه لا يخرج صاحبه عن الملة، وعلى هذا فإن المشرك شركاً أكبر تجرى عليه أحكام الكفار في الدنيا.

٢- الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال، بخلاف الأصغر فإنه لا يبطل إلا العمل الذي قارنه.

٣- الشرك الأكبر موجب للخلود في النار، ومانع من دخول الجنة، بخلاف الأصغر فإنه لا يوجب الخلود في النار.

٤- الشرك الأكبر لا يغفر إلا بالتوبة منه بخلاف الأصغر فإنه واقع تحت

---

(١) حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٥٠).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة، جمع وترتيب أحمد الدويش ١/٥١٧.

المشيئة الإلهية، إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة[١]، وهذه المسألة محل خلاف بين العلماء:

فبعض العلماء يرى أن الشرك الأصغر لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة منه كالشرك الأكبر، لعموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، لكنْ يدخل تحت الموازنة، فإن حصل معه حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة وإلا دخل النار [٢].

وذهب بعض العلماء إلى أن الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة كسائر الذنوب، وأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ خاص بالشرك الأكبر.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: "من لَحَظَ إلى عموم الآية [٣]، وأنه لم يخص شركاً دون شرك، أدخل فيها الشرك الأصغر، وقال: إنه لا يغفر بل لابد من أن يعذب صاحبه، لأن من لم يغفر له لابد أن يعاقب، ولكن القائلين بهذا لا يحكمون بكفره ولا بخلوده في النار، وأنه يعذب عذاباً أبدياً، لأن هذا مذهب الخوارج[٤] المنحرفين، وإنما يقولون: يعذب عذاباً بقدر شركه، ثم بعد ذلك مآله

---

(١) انظر الإخلاص والشرك الأصغر ص(٣٥)، الشرك الأصغر حقيقته وأحكامه ص(٣٨)، القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ ابن عثيمين ١/١١١.

(٢) انظر حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٥١).

(٣) يعني قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨].

(٤) الخوارج: فرقة من فرق المبتدعة، خرجوا على علي ـــ رضي الله عنه ـــ، وهم أول الفرق ظهوراً في هذه الأمة، من عقائدهم: تكفير أصحاب الكبائر، والبراءة من بعض الصحابة، وجواز الخروج على الأئمة، وهم طوائف متعددة، انظر الملل والنحل للشهرستاني ص(٥٠).

إلى الجنة.

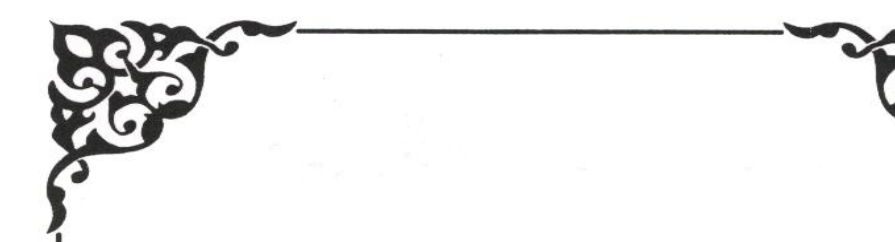
وأما من قال: إن الشرك الأصغر لا يدخل في الشرك المذكور في هذه الآية، وإنما هو تحت المشيئة، فإنهم يحتجون بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، فيقولون كما إنه بإجماع الأئمة أن الشرك الأصغر لا يدخل تحت هذه الآية التي حكم الله بها للمشرك بتحريم الجنة والخلود في النار، فلا يدخل في تلك الآية، وكذلك لا يدخل في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، لأن العمل هنا مفرد مضاف ويشمل الأعمال كلها، ولا يحبط الأعمال الصالحة كلها إلا الشرك الأكبر.

قالوا: وإذا فارق الشركَ الأكبرَ في تلك الأحكام السابقة، بأنه لا يحكم عليه بالكفر والخروج من الإسلام، ولا بالخلود في النار، فارقه في كونه مثل الذنوب التي دون الشرك، وأنه تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، ولأن مشاركته للكبائر في أحكامها الدنيوية والأخروية أكثر من مشاركته للشرك الأكبر.

ويؤيد قولهم أن الموازنة واقعة بين الحسنات وبين السيئات التي هي دون الشرك الأكبر، لأن الشرك الأكبر لا موازنة بينه وبين غيره، فإنه لا يبقى معه عمل ينفع..."[1].

---

(١) انظر: الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة للشيخ عبدالرزاق العباد ص(١٩٤-١٩٥)، نقلاً عن فتوى بعثها الشيخ عبدالرحمن السعدي إلى الشيخ عبدالرحمن الحصين.



الباب الأول

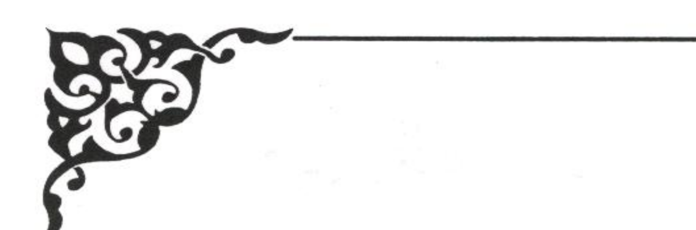
أسباب الشرك ومظاهره في ضوء القرآن الكريم

وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب الشرك ضوء القرآن الكريم.

الفصل الثاني: مظاهر الشرك الواردة في القرآن الكريم.



الفصل الأول

أسباب الشرك في ضوء القرآن الكريم

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: الإعجاب والتعظيم والغلو في المخلوقين.

المبحث الثاني: التقليد.

المبحث الثالث: اتباع الهوى.

المبحث الرابع: الكبر.

المبحث الخامس: الجهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته.

المبحث السادس: إهمال العقل وعدم التفكـــــر في آيات الله تعالى.





مدخل

الأصل في بني آدم التوحيد، وقد ظلوا على عقيدة التوحيد قروناً عديدة، ثم اختلفوا، ووقع فيهم الشرك، فبعث الله - تعالى - إليهم الأنبياء داعين إلى التوحيد، ناهين عن الشرك، مبشرين من أطاع الله - تعالى - ووحَّده بالسعادة في الدنيا، والجنة في الآخرة، منذرين من عصاه وخالف أمره بالشقاوة في الدنيا، والنار يوم القيامة، وأنزل الله - تعالى - معهم الكتب الإلهية المشتملة على البراهين الواضحة، والشرائع المحكمة والآداب الفاضلة ليحكموا بها بين الناس فيما يختلفون فيه ويتنازعون، كما قال الله - تعالى -: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد أخرج ابن جرير[1] عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي قراءة عبد الله[2]: ﴿ وَمَا كَانَ

---

(١) هو الإمام أبوجعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، شيخ المفسرين، له مصنفات كثيرة، منها: تفسيره"جامع البيان"، وتاريخه"تاريخ الأمم والملوك"وغيرهما، توفي عام ٣١٠هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ٢/١٠٦، والأعلام ٦/٦٩.

(٢) أي عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وهي قراءة شاذة، انظر البحر المحيط لأبي حيان ٢/١٤٤ (ط: دار الكتب العلمية).

ﭐلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ [يونس: ١٩][١].

وأخرج ابن جرير عن قتادة[٢] في قوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ قال: "كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول من بعث نوح"[٣].

ومما يدل أيضاً على أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد والإيمان قولُ الله – تعالى –: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ [يونس: ١٩]، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي عند هذه الآية: "أي: وما كان الناس إلا أمة واحدة متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، فبعث الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه"[٤].

وقد دلت السنة على ذلك، ففي الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، كما تَنْتُج البهيمة بُهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء[٥]، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٢/٣٤٧.

(٢) هو قتادة بن دعامة بن عزيز السَّدوسي، البصري، روى عن أنس وأبي الطفيل وغيرهما، حافظ مفسر، مات بواسط سنة ١١٧هـ، انظر تهذيب التهذيب ٨/٣٥١، وتقريب التهذيب ص(٤٥٣).

(٣) تفسير ابن جرير ٢/٣٤٧.

(٤) تفسير السعدي ١/٣٣٨.

(٥) أي كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء، أي مجتمعة الأعضاء سليمة من كل نقص، لا يوجد منها جدعاء ==

ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] [(١)].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حِمار - رضي الله عنه- [(٢)]، أن النبي ﷺ قال: ((إن الله - تعالى - قال: وإني خلقت عبادي حنفاء[(٣)] كلَّهم، فجاءهم الشياطين فاجتالتهم[(٤)] عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...)) [(٥)].

ورُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ قال: "كانوا كفاراً"[(٦)]، وهذا القول لا يثبت عن ابن عباس[(٧)]، وهو مخالف لدلالة الكتاب والسنة كما تقدم.

قال ابن القيم: "وهذا القول ضعيف جداً، وهو منقطع عن ابن عباس،

==

وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء، وإنما يحصل النقص بعد ولادها، انظر فتح الباري ٢٥٠/٣.

(١) أخرجه البخاري ٢٤٦/٣ ح(١٣٨٥)، ومسلم ٢٠٤٧/٤ ح(٢٦٥٨).

(٢) هو عياض بن حمار بن أبي حمار المجاشعي التميمي، سكن البصرة، وعاش إلى حدود الخمسين — رضي الله عنه —، انظر تهذيب التهذيب ٢٠٠/٨، والإصابة ٤٨/٥.

(٣) حنفاء: أي مسلمون، والحنيف: المائل إلى الإسلام الثابت عليه، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤٥١/١.

(٤) اجتالتهم: أي استخفوهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل، انظر شرح مسلم للنووي ١٩٧/١٧.

(٥) أخرجه مسلم ٢١٩٧/٤ ح(٢٨٦٥).

(٦) تفسير ابن كثير ٢٥٧/١.

(٧) الأثر مسلسل بالعوفيين وهم ضعفاء، انظر تفسير ابن كثير بتحقيق مقبل الوادعي ٤٦١/١.

والصحيح عنه خلافُه"[١].

وقال ابن كثير [٢]: "والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً – عليه السلام –، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض"[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "... وذلك أن الناس كانوا بعد آدم – عليه السلام – وقبل نوح – عليه السلام – على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوهم آدم أبوالبشر – عليه السلام –، حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان بدعة من تلقاء أنفسهم لم يترل الله بها كتاباً ولا أرسل بها رسولاً..."[٤].

وإذا تقرر أن الأصل في البشرية التوحيد، وأن الشرك طارئ عليهم، فإن لحدوث الشرك في الأمم أسباباً أدت إلى ظهوره وانتشاره، وفي المباحث الآتية بيان لأهم أسباب الشرك الواردة في القرآن الكريم.

---

(١) إغاثة اللهفان ٥٧٣/٢.

(٢) هو الإمام الحافظ أبوالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، محدث، مفسر، مؤرخ، له تصانيف كثيرة منها: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية في التاريخ وغيرهما، توفي عام ٧٧٤هـ، انظر طبقات المفسرين ١١٠/١، والأعلام ٣٢٠/١.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٥٧/١.

(٤) مجموع الفتاوى ٦٠٣/٢٨.

المبحث الأول: الإعجاب والتعظيم والغلو في المخلوقين

إن من أعظم أسباب الشرك الغلو[١] في المخلوق[٢]، وتعظيمه، ورفعه فوق مترلته التي أنزله الله إياها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر المعظَّمين"[٣].

وقال ابن القيم: "وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم.

فطائفة دعاهم إلى عبادها من جهة تعظيم الموتى، الذين صوَّروا الأصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح - عليه السلام..."[٤].

وبوَّب الشيخ محمد بن عبدالوهاب[٥] في كتاب التوحيد بقوله: "باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين"[٦].

---

(١) الغلو في اللغة: مجاوزة الحد، انظر لسان العرب ٣٢٩/٦، وقال شيخ الإسلام: "الغلو مجاوزة الحد بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك"، اقتضاء الصراط المستقيم ١٠٦/١.

(٢) أياً كان هذا المخلوق، إنساً أو جناً، جماداً أو حيواناً، أو غير ذلك، ولكن البلوى عمت بين المسلمين بالغلو بالبشر من الأنبياء والصالحين وغيرهم.

(٣) مجموع الفتاوى ٣٦٣/١٤.

(٤) إغاثة اللهفان ٥٨٣/٢.

(٥) هو الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي، صاحب الدعوة الإصلاحية السلفية في نجد، رحل في طلب العلم إلى عدة بلدان، دعا الناس إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك، له مصنفات ورسائل كثيرة منها: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات وغيرهما، توفي عام ١٢٠٦هـ، انظر علماء نجد ٢٥/١، والأعلام ٢٥٧/٦.

(٦) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص(١٧١)، وقال في باب آخر: "باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله"ص (١٩٢).

أساليب القرآن الكريم في النهي عن الغلو في المخلوقين:

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تنهى عن الغلو وتحذر منه، وتبين أنه من أسباب الشرك والضلال، وذلك بأساليب متنوعة منها:

١- الإخبار بأن أول شرك حدث في الأرض كان سببه الغلو، كما أخبر الله - تعالى - عن قوم نوح - عليه السلام - أنهم حينما دعاهم إلى التوحيد ونبذ الشرك كذبوه وردوا دعوته: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، أي قال لهم سادتهم ورؤساؤهم: لا تتركوا عبادة هذه الأوثان: "ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر"، وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، غلا فيهم أتباعهم، فلما ماتوا صوروا لهم تماثيل وسموها بأسمائهم لكي يتذكروهم فينشطوا في العبادة، فآل بهم الأمر إلى الشرك، فعبدوهم من دون الله.

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وَدٌّ فكانت لكلب بدُوْمَة الجَنْدَل[١]، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمُراد، ثم لبني غُطيف بالجُرْف[٢] عند سبأ، وأما يَعُوق فكانت لهمْدان، وأما نسْر فكانت لحمْيَرَ لآل ذي الكَلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى

(١) دُومَة الجندل: بضم الدال وفتحها، بلدة معروفة شمال المملكة العربية السعودية، انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/٤٨٧.

(٢) الجُرْف ــ بضم الجيم، وسكون الراء أو ضمها ــ موضع في اليمن، انظر معجم البلدان ٢/١٢٨.

الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموهـا بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عبدت"[١].

وأخرج ابن جرير عن محمد بن قيس[٢]:﴿وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا ﴾ يقال: كـانوا قوماً صالحين من بني آدم [٣]، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما مـاتوا قـال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبـادة إذا ذكرناهم، فصورهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقـال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَون المطر فعبدوهم"[٤].

٢- النهي الصريح، فقد نهى الله - تعالى - في القرآن الكريم عـن الغلـو بلفظه الصريح، وذلك في آيتين:

الأولى: قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ [النساء: ١٧١].

ففي هذه الآية ينهى الله - تعالى - أهلَ الكتاب[٥] عن الغلو في دينهم،

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٦٦٧ ح(٤٩٢٠).

(٢) هو محمد بن قيس المدني القاص، ثقة، وحديثه عن الصحابة مرسل، توفي أيام الوليد بن يزيد بـن عبد الملك، ١٢٥-١٢٦هـ. انظر تهذيب التهذيب ٩/٤١٤، وتقريب التهذيب ص(٥٠٣).

(٣) هذا الأثر وكذا أكثر الآثار تدل على أن هؤلاء الرجال كانوا قبل مبعث نوح ـ عليه السلام ـ وهو ظاهر القرآن، وفي حديث ابن عباس المتقدم ما يدل على أنهم من قوم نوح ومن أتباعه، انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/٤٢٧.

(٤) تفسير ابن جرير ١٢/٢٥٤.

(٥) جمهور المفسرين على أن المراد بأهل الكتاب في هذه الآية وفي آية المائدة الآتي ذكرها: النصارى

==

فإنهم غلوا في عيسى - عليه السلام - حتى رفعوه إلى مقام الألوهية فعبدوه من دون الله، بل غلوا في أتباعه فَقَدَّسوهم وادَّعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل شيء، حتى في تحليل الحرام وتحريم الحلال، ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١] (١).

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن(٢): "والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فإنه عام يتناول جميع الأمة، تحذيراً لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى في عيسى واليهود في العزير...."(٣).

وأما الآية الثانية فهي قول الله - تعالى - في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

ففي هذه الآية يأمر الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ أن ينهى أهل الكتاب عن

==

خاصة، وقال بعضهم المراد: اليهود والنصارى، فيكون غلو اليهود في عيسى على هذا القول هو الإفراط في ذمه ووصفه بما لا يليق به، انظر زاد المسير ٢/٢٢٤.

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٦٠٨.

(٢) هو العلامة الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، تولى القضاء في الدرعية، وانتقل إلى مصر ودرس على علمائها، ثم عاد فبذل نفسه للتعليم، له مصنفات كثيرة في الأصول والفروع، توفي عام ١٢٨٢هـ في الرياض، انظر علماء نجد ١/٥٦، مشاهير علماء نجد ١/٧٨.

(٣) فتح المجيد ص(١٧١).

الغلو الباطل في أمر المسيح – عليه السلام –، حيث تجاوزوا فيه منزلة العبودية لله – تعالى –، وجعلوه في منزلة الألوهية، كما يأمره – تعالى – أن ينهاهم عن اتباع أهواء من سبقهم من اليهود، ومشايخ الضلال الذين ضلوا في أنفسهم وأضلوا كثيراً من الخلق، وحادوا عن الطريق المستقيم إلى طريق الغواية والضلال[(١)].

٣- وصف الغلوَّ بأنه اعتداء، كما قال – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧]، فإن الله – تعالى – لما مدح الرهبان في الآيات التي تقدمتها[(٢)]، وكان ذلك داعياً إلى الترهُّب، عقَّب ذلك بالنهي عنه في هذا الدين، فإنه – تعالى – بناه على التوسط رحمة لأهله ولطفاً بهم، وتشريفاً لنبيهم ﷺ[(٣)].

وقد تتابعت نصوص السنة أيضاً في النهي عن الغلو، والتحذير منه في الاعتقادات والأعمال والألفاظ وبأساليب متنوعة، حيث حذر النبي ﷺ أمته من الغلو بقوله: ((إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين))[(٤)]، قال شيخ الإسلام: "وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم"[(٥)]، وقال

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٦٥٥/٤، وتفسير ابن كثير ٨٥/٢.

(٢) وهي قوله – تعالى –: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾... الآيات، [المائدة: ٨٢-٨٦].

(٣) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢٧٤/٦، وانظر تفسير ابن جرير ٩/٥.

(٤) أخرجه أحمد ٢١٥/١، والنسائي ٢٦٨/٥ ح(٣٠٥٧)، وابن ماجه ١٠٠٨/٢ ح(٣٠٢٩).

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ١٠٦/١.

- رحمه الله -: "وهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال..."[١].

وتوعَّد ﷺ الغلاة بالهلاك، فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((هلك المُتَنَطِّعون، قالها ثلاثاً))، أخرجه مسلم [٢].

قال النووي[٣]: "هلك المتنطعون"أي المُتَعَمِّقون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"[٤].

والأحاديث في هذه المعنى كثيرة معلومة [٥].

وإلى جانب ذلك جاءت الأحاديث الكثيرة آمرةً بسد الذرائع المؤدية إلى الغلو، فقد نهى النبي ﷺ عن البناء على القبور وإسراجها واتخاذها مساجد، كما نهى عن المبالغة في مدحه وإطرائه ﷺ، واتخاذ قبره عيداً ومسجداً، كذلك نهى عن التصوير، وتوعد المصورين بالعذاب الشديد يوم القيامة، كل ذلك حمايةً لجناب[٦] التوحيد وسداً لأبواب الشرك، حتى وإن كان قصد الإنسان حسناً[٧].

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) صحيح مسلم ٤/٢٠٥٥ ح(٢٦٧٠).

(٣) هو الإمام العلامة يحيى بن شرف بن مري الحزامي النووي، الشافعي، محدث، فقيه، من مصنفاته: شرح مسلم، وروضة الطالبين وغيرهما، توفي عام ٦٧٦هـ، انظر الأعلام ٨/١٤٩، ومعجم المؤلفين ١٣/٢٠٢.

(٤) شرح مسلم للنووي ١٦/٢٢٠.

(٥) انظر رياض الصالحين للإمام النووي ص(٩٤).

(٦) الجناب: ناحية الشيء وما قرب منه، انظر مختار الصحاح ص(٤٨)، والمعجم والوسيط ١/١٣٨.

(٧) للاستزادة في هذا الموضوع يرجع إلى كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وشروحه، وكتاب ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث للأستاذ محمد عبدالحكيم حامد ص(٦٠-٦٥).

ومع هذه النصوص الكثيرة الناهية عن الغلو، المحذرة منه، المبيِّنة لأضراره، وقع كثير من المسلمين في الغلو، وتلبسو بكثير من مظاهره، لاسيما في الأزمان المتأخرة، فقد رفعوا النبي ﷺ إلى مقام الألوهية، ودعوه من دون الله، وأقاموا الموالد المبتدعة، وعظّموا كثيراً من الأولياء والصالحين، وتبركوا بآثارهم، وبنوا على قبورهم المساجد والقباب، وطافوا بها كما يطوفون بالكعبة، واستغاثوا بهم، ودعوهم من دون الله، بل لم يقتصر الأمر على الغلو في الأولياء والصالحين، حيث غلا بعض الناس بالمجاهيل، والمنافقين، والفسقة [١]، فإلى الله المشتكى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) انظر صراع بين الحق والباطل، للأستاذ سعد صادق محمد.

المبحث الثاني: التقليد

التقليد[١] سبب كبير من أسباب الشرك، وعقبة كَؤُد[٢] وقفت في طريق التوحيد، وشبهة اتفقت عليها جميع الأمم لترد بها دعوات الرسل - عليهم الصلاة والسلام -.

وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن التقليد، ولكن بلفظ"الاتباع"، وبيّن أنه ليس مذموماً على الإطلاق، بل منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، فما كان تقليداً لرسل الله - عليهم الصلاة والسلام - أو المؤمنين الصالحين فهو تقليد محمود مثاب صاحبه [٣].

وما كان تقليداً للكفار والفساق والمشركين فهو تقليد مذموم [٤].

أنواع التقليد في القرآن الكريم:

التقليد نوعان:

النوع الأول: التقليد المحمود وينقسم إلى قسمين:

(١) التقليد في اللغة: مصدر قلَّدَ، قال في المعجم الوسيط: قلده القلادة: جعلها في عنقه، وقلّد فلاناً: اتبعه فيما يقول من غير حجة ولا دليل، وقلد فلاناً: حاكاه. انظر المعجم الوسيط ٧٥٤/٢، والتقليد بهذا المعنى هو مقصودي في هذا البحث.

(٢) أي: شاقّة المصعد. مختار الصحاح ص ٢٣٤.

(٣) انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار سعيد ص(١٦١).

(٤) وقال المراغي في تفسيره: "ليس هذا بتقليد بل اتباع لما أنزل الله، كما قال - تعالى -: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] تفسير المراغي ٤٥/٢.

القسم الأول: تقليد الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، فإن اتباعهم والاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم أمر مطلوب، بل هو واجب، إذْ هم المبلغون عن الله، المبعوثون لهداية البشر، اختارهم الله - تعالى - على علم على العالمين.

ولذلك أمر الله - تعالى - بتقليدهم واتباعهم، وأثنى على المقتدين بهم.

قال الله - تعالى - حاثاً على الاقتداء برسوله ﷺ مؤكداً وجوب اتباعه والتزام هديه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والأسوة: القدوة [١].

القسم الثاني: تقليد المؤمنين الصادقين، فإن تقليدهم محمود ممدوح صاحبه، ولكن بشرط أن يكون ما قُلِّدوا فيه أمراً مشروعاً موافقاً للكتاب والسنة.

قال - تعالى - بعد أن ذكر بعض كرامات المتقين وما أعده لهم من أنواع النعيم في الجنة: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور: ٢١].

والتعبير بالموصول إظهار في مقام الإضمار[٢] لتكون الصلة إيماءً إلى أن

---

(١) قال الراغب: "الأُسوة والإسوة كالقِدوة والقُدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسناً وإن قبيحاً"، المفردات ص(٧٦).

(٢) لأنه تقدم ذكرهم في أول السياق، في قوله تعالى: (إن المتقين في جنات ونعيم).

وجه بناء الخبر الوارد بعدها، أي أن سبب إلحاق ذرياتهم بهم في نعيم الجنة هو إيمانهم، وكون الذُرِّيَّات آمنوا بسبب إيمان آبائهم، لأن الآباء المؤمنين يُلقِّنون أبناءهم الإيمان"[١].

ولذلك خلا التقليد من هذا الشرط إذا كان الأب نبياً، كما قال تعالى على لسان يوسف – عليه السلام –: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] [٢].

النوع الثاني: التقليد المذموم والذي هو من أكبر أسباب الشرك، وينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تقليد الآباء الضالين، وهو الذي تمسَّكت به جميع الأمم الشركية، وآثرته على اتباع الرسل – عليهم الصلاة والسلام –، وإنما احتجت به وتمسكت لأنه ليس لديها دليل صحيح على صحة ما هي عليه من الشرك والضلال، ولذلك أنكر الله – تعالى – على المشركين هذا التقليد الباطل، وكشف زيفه وسخر من أهله.

فحينما ذكر الله – تعالى – عن مشركي العرب مقولتهم الكاذبة في أن الملائكة – عليهم السلام – بنات الله – تعالى الله عن ذلك –، وأنهم اتخذوا الأصنام على صورهم وعبدوها من دون الله، بيّن أنه ليس لهم دليل صحيح على ما ادَّعوه، وإنما هو محض التقليد الأعمى لآبائهم وأجدادهم الضالين، ثم قال

(١) تفسير التحرير والتنوير، للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور ٤٨/٢٧.

(٢) انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار فتح الله ص(٧٧).

مسلّياً لرسوله ﷺ مخبراً أن جميع الأمم قد شابهت أمته في هذه المقولة الكاذبة، وسبقتها إلى هذه الشبهة الباطلة: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] (١)، ثم ذكر - تعالى - جواب كل رسول لقومه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾، أي: أفرأيتم إن جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم هل أنتم متبعي، وهنا أعلنوا كفرهم وعنادهم وإصرارهم على الشرك، حتى وإن علموا صدق رسلهم، وفساد ما كان عليه آباؤهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]، ولما كان هذا جوابهم ذكر الله جزاءهم العادل: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢) [الزخرف: ٢٥].

وقد حكى الله - تعالى - هذه المقولة الباطلة عن بعض الأمم، وذلك في ثنايا قصصهم مع أنبيائهم - عليهم الصلاة والسلام -.

فقد قال قوم نوح - عليه السلام -: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال قوم هود - عليه السلام -: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ

---

(١) قوله ﴿أُمَّةٍ﴾ أي طريقة ومذهب، وقوله: ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ : أي أغنياؤها ورؤساؤها، فتح القدير للشوكاني ٤/٧٧٢-٧٧٣.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١١/١٧٧، وتفسير ابن كثير ٤/١٣٦، وتفسير السعدي ٦/٦٤٠.

وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقال قوم صالح – عليه السلام –: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [هود: ٦٢].

وقال قوم إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٤].

وقال قوم شعيب – عليه السلام –: ﴿ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود: ٨٧].

وقال قوم فرعون لموسى – عليه السلام –: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ [يونس: ٧٨].

وحكى الله – تعالى – عن مشركي العرب أهم إذا دعوا إلى اتباع ما أنزل الله من البينات والهدى، واتباع الرسول – عليه الصلاة والسلام – أبوا وأعرضوا عن ذلك مكتفين بما ورثوه عن أبائهم من الشرك والضلال المبين كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ قال الله – تعالى – منكراً عليهم هذا التقليد الأعمى، مبيّناً بطلان هذه المقالة الفاسدة: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فإذا كانوا بهذه الحالة فكيف يصح تقليدهم واتباعهم؟"فتباً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله

الذي، يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدىً واتباعاً"[١].

"ثم يرسم لهم صورة زريَّة[٢] تليق بهذا التقليد وهذا الجمود، صورة البهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفقه ماذا يعني ! بل هم أضل من هذه البهيمة فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح، وهم صم بكم عمي: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] [٣].

القسم الثاني: تقليد السادة والرؤساء الضالين، وهذا سبب كبير من أسباب الشرك كما تقدم، فإن الناس يحرصون على تقليد كبرائهم وسادهم، ومشابهتَهم، وذلك لما يرجونه منهم من المطامع الدنيوية، كما أن أولئك السادة والكبراء يبذلون كل ما يستطيعون لكي يصرفوا الناس عن توحيد الله – تعالى – والإيمان برسله، حتى يُبْقوهم بين أيديهم كالقطعان السائبة يصرفوها كما يشاؤن.

قال – تعالى – عن قوم نوح – عليه السلام –: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح: ٢١].

وقال – تعالى – عن قوم هود – عليه السلام –: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ

---

(١) تفسير السعدي ٢/٣٥٣.

(٢) زريّة: أي حقيرة معيبة، انظر مختار الصحاح ص(١١٤).

(٣) في ظلال القرآن ١/١٤٩.

بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾ [هود: ٥٩].

وقال – تعالى – عن قوم فرعون: ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴾ [هود: ٩٧].

ولذلك يندم المقلدون للسادة الطواغيت، المؤثرون اتباعَهم على اتباع الرسل، وذلك حينما يعاينون العذاب يوم القيامة، ويكتوون بنار جهنم، ولات ساعة مندم، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

ومما يؤسف له أن هذا التقليد الأعمى لم يزل موجوداً في هذه الأمة الإسلامية خصوصاً في أبواب الاعتقاد، فإن كثيراً من المسلمين حينما يُنكَر عليه ما عنده من الشرك والبدع، ويُبيَّن له مخالفة ذلك للكتاب والسنة، يأبى ذلك الإنكار ويصرُّ على البقاء على ما هو عليه من الشرك والبدع والضلال، محتجاً بأنه ورث هذا العمل كابراً عن كابر، أو بأن الزعيم الفلاني أو الشيخ الفلاني يعمل هذا العمل ويأمر به، وهذا هو التقليد الأعمى الذي نهى الله – تعالى – عنه، وهذا هو عين الإعراض عن كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله ﷺ.

المبحث الثالث: اتباع الهوى

الهوى[١] مرض خطير، وداء جسيم، متى ما غلب على الإنسان انطمس قلبه، وعميت بصيرته، وتحكمت فيه شهوته،"فهو عن الخير صاد، وللعقل مضاد، لأنه يُنتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المرؤة مهتوكاً ومدخل الشر مسلوكاً"[٢].

ولما كان الهوى بهذه الصفة كان اتباعه وتقديمه على حكم الله وشرعه من أسباب الشرك وعوائق التوحيد، بل إن الهوى نفسه إله يعبد من دون الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

يقول ابن القيم: "إن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله - سبحانه - كسر الأصنام المجسَّدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً"[٣].

---

(١) الهوى ــ بالقصر ــ في اللغة: هوى النَّفْس أي إرادتها، والجمع: أهواء، انظر لسان العرب ٤٧٢٨/٨، واصطلاحاً: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع، التعريفات للجرجاني ص(٢٥٧).

وقال ابن القيم: الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً ولا مدحه مطلقاً، وإنما يذم المُفْرِط، ولما كان الغالب على مطيع هواه وشهوته أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به أطلق ذم الهوى والشهوة لعموم الضرر، فلذلك لم يذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه... روضة المحبين ص(٤٠١) بتصرف.

(٢) أدب الدين والدنيا ص(١٧).

(٣) روضة المحبين ص(٤١٠)، وانظر كتاب تجريد التوحيد المفيد للمقريزي ص(٤٦).

أساليب القرآن الكريم في ذم اتباع الهوى:

نهى الله – تعالى – في القرآن الكريم عن اتباع الهوى، وحذر منه بأساليب متنوعة منها:

١) النهي الصريح، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥].

٢) أن الله – سبحانه وتعالى – جعل متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن [١]، قال – تعالى –: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال – تعالى –: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٣) أن الله – تعالى – شبّه أتْباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى؛ حيث شبَّههم بالكلب [٢]، كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

---

(١) انظر روضة المحبين ص(٤٠٦).

(٢) انظر المرجع السابق ص(٤٠٥).

بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

ففي هذه الآيات يذكر الله - تعالى - قصة ذلك الرجل[١] الذي آتاه الله الكتاب وعلمه العلم، فأعرض عن آيات الله وتركها وآثر عليها هواه وشهوته الفانية، فكفر بعد الإيمان، وضل بعد الهدى ولذلك أدركه الشيطان فأغواه وأضله، فوكله الله - تعالى - إلى نفسه وذلك بسبب ركونه إلى الدنيا وتقديم هواه على مرضاة الله، وتركه العمل بالعلم الذي آتاه الله إياه، ولما كانت هذه حاله شبهه الله - تعالى - بأخس الحيوانات، وأقبحها، وهو الكلب [٢].

قال ابن قتيبة [٣]: "كل شيء يلهث فإنما يلهث[٤] من إعياء أو عطش أو علة، خلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الصحة والمرض، وحال الرَّي والعطش"[٥].

٤) الإخبار بالثواب الجزيل لمن لمن نهى نفسه عن هواها، قال -تعالى-: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

---

(١) واختلف في اسمه، والآيات التي أوتيها، وخبر انسلاخه، ولا يثبت في ذلك خبر صحيح، وليس في معرفة ذلك كبير فائدة، انظر تفسير ابن جرير ١٢٢/٦.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١١٨/٦، وتفسير ابن كثير ٢٧٥/٢، وتفسير السعدي ١١٦/٣.

(٣) هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَوَرِي، من أئمة اللغة والأدب، ولد ببغداد وسكن الكوفة وولي قضاء دَيْنَوَر، له مصنفات كثيرة منها: تأويل مشكل القرآن، وتأويل مشكل الحديث، والمعارف وغيرها، توفي عام ٢٧٦هـ، سير أعلام النبلاء ٢٩٦/١٣، والأعلام ١٣٧/٤.

(٤) اللَّهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش، انظر مختار الصحاح ص(٢٥٣).

(٥) تأويل مشكل القرآن ص(٣٦٩).

٥) النهي عن طاعة أهل الأهواء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٦) الإخبار بأن اتباع الهوى ظلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٧) الإخبار بأن متبع الهوى أضلُّ الناس، كما قال – تعالى –: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

٨) أن الله – تعالى – جعل الهوى مضاداً لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله، كما قال – تعالى –: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] [١].

يقول الإمام الشاطبي[٢] متحدثاً عن الابتداع: "إنه اتباع الهوى، لأن العقل إذا لم يكن متبعاً للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة، وأنت تعلم ما في اتباع الهوى، وأنه ضلال مبين، ألا ترى قول الله – تعالى –: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ

---

(١) انظر روضة المحبين ص(٤٠٥).

(٢) هو الإمام إبراهيم بن موسى اللخمي، الأندلسي، الغرناطي، المالكي، عالم بالفقه وأصوله، من تصانيفه: الموافقات في أصول الفقه والاعتصام وغيرهما، توفي عام ٧٩٠، انظر الأعلام ١/٧٥، معجم المؤلفين ١/١١٨.

ﵟٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِﵞ [ص: ٢٦]، فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده: وهو الحق والهوى...."[1].

ولما أنكر الله - تعالى - على المشركين عبادة الأصنام، واتخاذهم لها لبيوت مضاهاة للكعبة، بيّن أنه ليس لهم دليل أو حجة على ما ادعوا فيها من الإلهية، بل هي أسماء مجردة، حملهم على عبادتها وتأليهها ظنونهم الكاذبة، وأهواؤهم الباطلة، معرضين بذلك عمّا أنزل الله - تعالى - من البينات والهدى [2]، كما قال - تعالى-: ﵟأَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓﵞ [النجم: ١٩-٢٣].

وفي سورة الفرقان يخبر الله - تعالى - عن استهزاء المشركين برسول الله ﷺ واحتقارهم له إذا رأوه، واستمرارهم على عبادة الأصنام الباطلة مع ما تلاه عليهم من الأدلة الكثيرة التي كادت تثنيهم عن عبادتها لولا تكبرهم وعنادهم، قال تعالى: ﵟوَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًاﵞ [الفرقان: ٤١- ٤٢]، ولذلك

---

(١) الاعتصام ١/٥٠.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٧١، وتفسير السعدي ٧/٢٠٨.

توعدهم – سبحانه وتعالى – بالعذاب الشديد يوم القيامة ذلك اليـــوم الـــذي يعترفون فيه بسوء فعلهم، ويندمون على قبح صنيعهم.

ثم قال – تعالى – مسلياً رســوله ﷺ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] (١).

"وهذا تنبيه على عدم الفائدة من دعوة من سيطرت عليه الأهواء إلى الدين الحق، فانظر فيمن جعل هواه إلهه، بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه، واستولى عليه التقليد، وصمّ أُذُنَهُ عن سماع الدليل المقنع والبرهان الساطع، فكل ما زيـــن لـــه الهوى شيئاً انقاد له، وحينئذٍ لن تستطيع منعه من الشرك والمعاصي..."(٢).

ثم أكد بُعْدَهم عن الهداية نظراً لغلبة الهوى على عقولهم مُثبتاً أن غالب هؤلاء المشركين لا يسمعون سماعاً يؤثر في قلوبهم ويستفيدون منه، ولا يعقلون عقلاً يرشدهم إلى ما ينفعهم ويحجزهم عما يضر بهم، فإنهم قد عطلوا عقولهم وأهملوها، شأنهم بذلك شأن الأنعام العجماء، بل هم أسوأ حالاً منها، لأن الأنعام قد قامت بوظيفتها التي خلقها الله من أجلها، أما هؤلاء المشركون فإنهم لم يفعلوا ما خلقوا له وهو عبادة الله وحده وترك ما سواه، قال – تعالى –: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥].

وكما نهى الله – تعالى – في كتابه عن اتباع الهوى وحذر منه كذلك كان

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٩٢/٩، وتفسير ابن كثير ٣٣٢/٣، وتفسير السعدي ٤٨١/٥.

(٢) التفسير المنير ٧٣/١٩.

النبي ﷺ، فقد نهى أمته عن اتباع الهوى وبيّن لها ما ينتُج عن ذلك من المفاسد العظيمة، ومما ورد في ذلك حديث أبي برزة الأسلمي - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: "إن مما أخشى عليكم شهواتِ الغيِّ في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى"[(١)].

وهكذا كان الصحابة والتابعون، ومن سار على نهجهم يحذرون الناس من الأهواء ويتصدون لأهلها، إقامةً للحجة، وإبراءً للذمة، ونصحاً للأمة [(٢)].

هذا، وإن الناظر في حال الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً يجد أن اتباع الهوى سببٌ كبير للشرك، وذلك من وجهين:

الأول: أن بعض المسلمين ابتدعوا بدعاً استحسنوها بآرائهم، ونظَّروها بأهوائهم، فآل بهم الأمر إلى الشرك، وهذا كثير في المسلمين.

الثاني: أن كثيراً من المسلمين حينما ينكر عليه وينهى عمّا يقع فيه من الشرك يأبى ويصرّ على ما هو عليه، وذلك لغلبة الهوى على قلبه، حيث لا تنفع معه المواعظ، ولا تؤثر فيه الآيات والحجج.

---

(١)أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/٤٢٠، وانظر ط: مؤسسة الرسالة١٨/٣٣ح(١٩٧٧٢) وصححه الألباني، انظر تحقيقه (السنة) لابن أبي عاصم ١/١٢.

(٢) انظر مقدمات في الأهواء وافتراق والبدع للدكتور ناصر العقل ص(٤٦)، وما بعدها.

المبحث الرابع: الكِبْر

الكبر[١] علّة خفية، وبليَّة زريَّة، متى ما تلبَّس بها الإنسان تجبّر وتغطرس[٢]، واختال وتصلّف، وتمادى في الضلال والغواية وتتابع في الجهل والعماية،"وآفته عظيمة، وغائلته[٣] هائلة، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))[٤]، وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها"[٥]، ولذلك كان سبباً كبيراً من أسباب الشرك وعائقاً منيعاً في طريق التوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكل مستكبر فهو مشرك، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله، وكان مشركاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ

---

(١) الكبر في اللغة: يقال كَبُرَ ـــ بالضم ـــ يكبُر أي: عظم فهو كبير، والكبرياء: العظمة والملك، ولا يوصف بها إلا الله – تعالى –، انظر لسان العرب ٣٨٠٧/٦.

وقال الراغب: "الكبر والتكبر والاستكبار تتفاوت، فالكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبر: التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة"المفردات ص(٦٩٧).

(٢) تغطرس: تطاول وتكبر وأعجب بنفسه، المعجم الوسيط٦٥٥/٢.

(٣) الغائلة: الشر، مختار الصحاح ص(٢٠٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٩٣/١ ح (٩١) من حديث عبدالله بن مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ.

(٥) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ص(٣٦٤).

وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤] إلى قوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [غافر: ٣٥]"[(١)].

وقد أخبر الله – تعالى – في القرآن الكريم عن كثير من الأمم أنهم رفضوا التوحيد الذي جاءت به الرسل وبقوا على شركهم عناداً واستكباراً من بعد ما تبين لهم الحق:

فقال عن قوم نوح على لسان نوح – عليه السلام –: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾ [نوح: ٧].

وقال – سبحانه – عن قوم صالح – عليه السلام –: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

وقال– سبحانه – عن قوم شعيب – عليه السلام –: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٩٧.

﴿مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال – جلَّ وعلا – عن فرعون وقومه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

وقال – عز وجل – عن اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال– سبحانه – عن مشركي العرب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

"والاستكبار: شدة الكبر، فالسين والتاء للمبالغة، أي يتعاظمون عن أن يقبلوا ذلك من رجل مثلهم"(١).

وقال – تعالى–: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٢-٢٣].

أساليب القرآن الكريم في ذم الكبر والتحذير منه:

وردت النصوص القرآنية الكثيرة محذرةً من الكبر، موضحةً خطورته، مبيّنةً جزاء من اتصف به، وذلك بأساليب مختلفة منها:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٣/١٠٧.

١) الإخبار بأن سبب كفر إبليس ولعنته وإخراجه من الجنة إنما هو الكبر، فهو أول ذنب عُصي الله - تعالى - به، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١-١٣]،"وقد كرر الله ذكر هذه القصة في كتابه، وأخبر فيها أن امتناع إبليس من السجود كان كبراً منه وكفراً ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة(١) تعنتاً(٢)، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر(٣)".

٢) النهي عن أخلاق المتكبرين، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

قال القرطبي(٤): "معنى الآية: ولا تمل خدك للناس كبراً عليهم، وإعجاباً

---

(١) وهي قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

(٢) يقال: تعنَّت الرجلَ: أي سأله عن شيء يريد بن اللبس عليه والمشقة، انظر المعجم الوسيط ٦٣٠/٢.

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم ٣٢٠/٤ بتصرف يسير، وقد فنّد ابن القيم ــ رحمه الله ــ هذه الشبهة من خمسة عشر وجهاً.

(٤) هو أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي، القرطبي، من كبار المفسرين، من مصنفاته: تفسير الجامع لأحكام القرآن، وشرح أسماء الله الحسنى، توفي سنة ٦٧١هـ، انظر معجم المفسرين ٦٥/٢، والأعلام ٣٢٢/٥.

واحتقاراً لهم، وهذا تأويل ابن عباس - رضي الله عنهما - وجماعة"[(١)].

٣) الإخبار بأن النار دار المتكبرين، وأن الجنة محرمة عليهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي صاغرين ذليلين، لأن الجزاء من جنس العمل، فإنهم لما تكبروا عن عبادة الله - تعالى - في الدنيا ألبسهم ثوب الذل والصغار في الآخرة [(٢)]، وقال - تعالى - بعد أن ذكر حال المشركين في الآخرة وما يتعرضون له من صنوف العذاب الذي يعترفون معه بضلالهم، وبطلان عبادة أصنامهم: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٥-٧٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما، إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء،

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/٤٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٩٣.

وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكليكما ملؤها)) متفق عليه [(١)].

٤) الإخبار بأن الله - تعالى - لا يحب المستكبرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣].

٥) الإخبار بأن من صفات الملائكة التي يُحمدون عليها أهم لا يستكبرون عن عبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

٦) الإخبار بأن الله - تعالى - يصرف قلوب المتكبرين عن فهم آياته، ويطبع عليها فلا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً، وذلك جزاء تكبرهم عن عبادة الله، وتجبرهم على خلقه بغير حق، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [غافر: ٣٥].

٧) تذكير الإنسان بمبدأ خلقه ومنتهاه، كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

وقد حُكي أن مُطَرِّف بن عبدالله بن الشخِّير[(٢)] نظر إلى المهلَّب بن أبي

---

(١) صحيح البخاري ٥٩٥/٨ ح(٤٨٥٠)، ومسلم ٢١٨٧/٤ ح(٢٨٤٦).

(٢) هو الإمام القدوة الحجة الزاهد أبومحمد مُطَرِّف بن عبدالله بن الشخِّير الحَرَشي العامري البصري، ==

صُفْرَة[(١)] وعليه حلّةٌ يسحبها ويمشي الخيلاء [(٢)]، فقال: يا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك، أوَّلك نطفة مَذِرَة [(٣)]، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة"[(٤)].

وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تحذر من الكبر وتبيّن عاقبته.

فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة – رضي الله عنهما – قالا: قال رسول الله ﷺ: ((العز إزاره [(٥)]، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته))، [(٦)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلى من العظمة، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار"[(٧)].

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يدخل

==

ثقة من كبار التابعين، توفي سنة ٨٦هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٨٧/٤، وتقريب التهذيب ص(٥٣٤).

(١) هو الأمير أبو سعيد المهلَّب بن أبي صُفْرَة الأزدي البصري، من أمراء الأمويين، توفي سنة ٨٢ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٣٨٣/٤، والأعلام ٣١٥/٧.

(٢) الخيلاء: الكبر، مختار الصحاح ص(٨٢).

(٣) مَذِرَة أي فاسدة، يقال: مذرت البيضة أي: فسدت، انظر لسان العرب ٤١٦٣/٧.

(٤) أدب الدنيا والدين ص(٢٠٢).

(٥) الضمير هنا يعود إلى الله – تعالى – كما في بعض الروايات في غير صحيح مسلم، انظر سنن أبي داود ٣٥٠/٤ ح(٤٠٩٠).

(٦)أخرجه مسلم ٢٠٢٣/٤ ح(٢٦٢٠).

(٧) مجموع الفتاوى ١٩٦/١٠.

الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر)) [١].

والمتأمل في حال المسلمين يجد أن هذا الخلق الذميم - عافانا الله تعالى منه - لا يكاد يسلم منه أحد، فمستقل منه ومستكثر، ويتجلي ذلك في مظاهر كثيرة، أهمها وأخطرها التكبر عن قبول الحق والرجوع عن الباطل، والاعتراف بالخطأ، فإن بعض الناس يأْنَف [٢] من قبول الحق والانقياد له، خاصةً إذا صدر من شخص أصغر منه سناً، أو أقل منه علماً، ظناً منه أن الرجوع إلى الحق ينقص وزنه، أو يحطُّ من قدره، وهذا سرُّ بقاء كثير من الشركيات، والعقائد المنحرفة بين المسلمين.

---

(١) تقدم تخريجه في ص(٤٥).

(٢) أي يستنكف، مختار الصحاح ص(١٢).

المبحث الخامس: الجهل بالله - تعالى- وأسمائه وصفاته

إن الجهل بالله – تعالى – سبب كبير من أسباب الشرك، فمن عـرف الله – تعالى – حق المعرفة لا يمكن أن يشرك به أحداً مـن خلقـه، وإنمـا وقـع المشركون في الشرك لأنهم لم يعرفوا الله حق المعرفة، ولم يقدِّروه حق قدره ؛ إذْ لو عرفوه وقدَّروه وعظموه كما ينبغي ما وقعوا فيما وقعوا فيه من الإثم العظيم.

و"أول فرض فرضه الله على خلقه: معرفتُه، فإذا عرفه الناس عبدوه، قـال الله – تعالى –: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها، فيعظموا الله حق عظمته، ولو أراد رجل أن يعامـل رجلاً طلب أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه وجده، وسأل عن صغير أمـره وكبيره، فالله الذي خلقنا ورزقنا، ونحن نرجو رحمته ونخاف من سخطه أولى أن نعرف أسماءه ونعرف تفسيرها"(١).

ويقول ابن القيم وهو يتحدث عن مترلة التعظيم: "وهذه المترلـة تابعـة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب – تعالى – في القلب، وأعـرف الناس به: أشدهم تعظيماً وإجلالاً له، وقد ذم الله – تعالى – من لم يعظِّمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق وصفه، فقال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣].

---

(١) الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم الأصبهاني ١/١٢٢.

قال ابن عباس ومجاهد[١]: "لا ترجون لله عظمة"، وقال سعيد بن جبير[٢]: "ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته"[٣].

ومعرفة الله – تعالى – لا تتحقق إلا بمعرفة أسمائه وصفاته.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: "إن معرفة الله – تعالى – تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على مال م يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه"[٤].

اقتران النهي عن الشرك في القرآن الكريم بذكر بعض أسماء الله تعالى وصفاته.

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن الله – تعالى – حينما يذكر شرك المشركين يتقدم ذلك أو يَعْقُبُه بذكر بعض أسمائه وصفاته الدالة على عظمته وانفراده بالخلق والملك والتدبير.

قال شارح الطحاوية: "ويستدل بأسماء الله – تعالى – وصفاته على

---

(١) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي مولاهم، المكي، تابعي ثقة، من أئمة التفسير، توفي سنة ١٠٤هـ، انظر تقريب التهذيب ص(٥٢٠)، وحلية الأولياء ٢٧٩/٣.

(٢) هو سعيد بن جبير الأسدي مولاهم، الكوفي، ثقة، من علماء التابعين، قتله الحجاج عام ٩٥هـ، انظر تقريب التهذيب ص(٢٣٤)، وحلية الأولياء ٢٧٢/٤.

(٣) مدارج السالكين ٥١٦/٢، وانظر تفسير ابن جرير ٢٤٩/١٢.

(٤) تفسير السعدي ٢٤/١.

وحدانيته وعلى بطلان الشرك"[١].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٢-٦٧].

ففي هذه الآيات يخبر الله - تعالى - أنه خالق جميع المخلوقات والمتصرف فيها، وأن خزائن السموات والأرض بيده - تعالى -، فهو مالكها وحافظها، ثم يبيّن - تعالى - خسارة الذين كفروا بآياته الدالة على عظمته ووحدانيته، فلم ينتفعوا بها ويتعظوا بما فيها، ثم يأمر رسوله ﷺ أن ينكر على المشركين الجهلة دعوهم إياه إلى عبادة أصنامهم، مبيناً عاقبة الشرك وأثره، وأنه محبط لجميع الأعمال، ثم يأمر رسوله ﷺ أن يعبده وحده لا شريك له، ويشكره على نعمه العظيمة، وبعد تقريره - تعالى - للتوحيد وهيه عن الشرك، يبيّن سبب شرك المشركين وهو أهم لم يعظموه حق عظمته، وذلك لجهلهم به - تعالى -.

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ٥٢/١.

قال ابن كثير: "يقول - تبارك وتعالى -: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ أي: ما قدر المشركون الله حق قدْره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته"[١].

ثم يذكر - تعالى - مظهراً من مظاهر عظمته، وهو أنه يجعل الأرض في قبضته يوم القيامة، ويطوي السموات بيمينه [٢]،"فصاحب هذه القدرة العظيمة كيف يعبد معه آلهة أخرى هي أصنام وتماثيل وأوثان"[٣].

وفي ختام الآية يتره - سبحانه وتعالى - نفسه عن شرك المشركين، وافتراء الآثمين ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٤].

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند هذه الآية: "ما ذكر الله - تبارك

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٦٧.

(٢) روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: ((جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، صحيح البخاري ٨/٥٥١ ح(٤٨١١)، ومسلم ٤/٢١٤٧ ح(٢٧٨٦).

(٣) أيسر التفاسير ٤/٦١.

(٤) انظر تفسير ابن جرير ١١/٢٢١، وتفسير ابن كثير ٤/٦٧، وتفسير السعدي ٦/٤٨٩.

وتعالى - من عظمته وجلاله أنه يوم القيامة يفعل هذا، وهذا قدْر ما تحتمله العقول، وإلا فعظمة الله وجلاله أجل من أن يحيط بها عقل...، فمَن هذا بعض عظمته وجلاله كيف يجعل في رتبته مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً"[١].

وفي سورة الأنعام نجد أن الله - تعالى - يذكر بعض صفاته الدالة على عظمته وقدرته ورحمته بخلقه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾... إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩]، ثم يعقِّب ذلك برده على المشركين الذين عبدوا معه غيره من الجن[٢] والأصنام وغيرها، واختلقوا له البنين والبنات بغير علم، ثم ينزه نفسه عما وصفوه به مبيناً أنه هو الخالق لهم جميعاً، وأنه - تعالى - مبدع السموات والأرض، وخالقهما على غير مثال سابق، فمَن كان هذا خلقه، وهذه قدرته كيف يكون له ولد؟! والحال أنه - سبحانه - ليس له صاحبة، ولو كان له ذلك لعلمه لأنه - سبحانه - بكل شيء عليم، ولكنه افتراء واختلاق.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

---

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ٣٤٦/٤.

(٢) قال بعض المفسرين: إن المقصود بعبادهم الجن طاعتهم، لأنهم الذين أمروهم بعبادة الأصنام، انظر تفسير ابن كثير ٦١/٢.

قال الزمخشري[١] عند هذه الآية: "وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه"، فذكر الأول[٢]، ثم قال: "والثاني أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد، وهو متعالٍ عن مجانس، فلم يصح أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة، والثالث: أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج"[٣].

"وعلى هذا النحو كان الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وبقوله - تعالى -: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤].

ذلك أن الله خالق كل شيء باعتراف المشركين، لأنهم لا يزعمون أن الأصنام خالقة لشيء، فلما كان الله خالقَ كل شيء وربَّه، فلا حق لغيره في أن يعبده الخلائق، وبهذا يتبين أن عبادة غير الله ظلم عظيم، لأنها اعتداء على حق الله في أن يعبد وحده، وكفر بنعمة الربوبية"[٤].

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري المعتزلي، من أئمة اللغة والتفسير، من مؤلفاته الكشاف، وأساس البلاغة وغيرها، توفي عام ٥٣٨هـ، انظر معجم المفسرين ٣١٤/٢، والأعلام ١٧٨/٧.

(٢) وقد أعرضت عن ذكره لأنه مبني على عقيدته المنحرفة.

(٣) تفسير الزمخشري ٣٢/٢.

(٤) تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام، للدكتور إبراهيم الكيلاني ص(٣٤)، وانظر تفسير التحرير والتنوير ٢٥٦/٨.

نعود إلى سياق الآيتين السابقتين [١]، ففي الآية التالية لهما يؤكد الله - سبحانه وتعالى - انفراده بالوحدانية، ويأمر بعبادته وحده، ثم يختم الآية مخبراً أنه حافظ لكل شيء ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

"والآية الأخيرة في السياق الكريم يقرر - تعالى [فيها] حقيقة كبرى وهي أن الله - تعالى - مباين لخلقه في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، فكيف يُشرَك به، وكيف يكون له ولد ! وهو لا تدركه الأبصار وهو يدركها، وهو اللطيف الذي ينفذ علمه وقدرته في كل ذرات الكون علويه وسفليه، الخبير بكل خلقه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وهو العزيز الحكيم، ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣][٢].

وقد ختم الله - تعالى - سورة الحشر بذكر طائفة من أسمائه الحسنى وصفاته العلى، مبتدئاً بكلمة التوحيد مكرراً لها في الآية الثانية، خاتماً لها بتنزيه نفسه عن الشركاء والأنداد.

يقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ

---

(١) وهما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾ .... الآيتين.

(٢) أيسر التفاسير ٦٤١/١، وانظر تفسير ابن كثير ١٦٥/٢، وتفسير السعدي ٤٤٥/٢.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: "هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن وبديعة البرهان.

فأخبر أنه الله المألوه المعبود الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام.

وكل إله غيره فإنه باطل، لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً.

ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي.

ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله الجميع مماليك لله، فقراء مدَبَّرون، ﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ أي: المقدَّس السالم من كل عيب ونقص، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل على التتريه من كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدِّق لرسله وأنبيائه بما جاؤا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير ويغني الفقير.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾الذي له الكبرياء والعظمة، المتره عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تتريه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ لجميع المخلوقات، ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ للمبروءات، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ للمصوَّرات.

وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو، ومع ذلك فكلها حسنى، أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه.

ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها [(١)].

ومن كماله وأن له الأسماء الحسنى، والصفات العليا أن جميع من في السموات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده ويسألونه

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

حوائجهم فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيئاً[١] إلا لحكمة ومصلحة"[٢].

تنبيهات:

في ختام هذا المبحث أحب أن أذكر بعض التنبيهات المهمة على وجه الإيجاز، وهي كما يلي:

الأول: منهج السلف الصالح - أهل السنة والجماعة - إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تحريف[٣] ولا تعطيل[٤]، ومن غير تكييف[٥] ولا تمثيل[٦]. [٧].

الثاني: أسماء الله إن دلت على وصف متعدٍّ تضمَّنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله عزوجل.

---

(١) قوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ خبر كان واسمها محذوف.

(٢) تفسير السعدي ٧/٣٤٥.

(٣) التحريف: تغيير ألفاظ الأسماء والصفات كقول الجهمية في"استوى"استولى، أو تغيير معانيها كقول بعض المبتدعة إن معنى الغضب في حق الله: إرادة الانتقام.

(٤) التعطيل: نفي صفات الله - تعالى -.

(٥) التكييف: بيان الهيئة التي تكون عليها الصفات، فلا يقال: كيف استوى مثلاً.

(٦) التمثيل: هو تشبيه صفات الله بصفات المخلوقين، لأنه تعالى ليس كمثله شيء.
لبيان هذه المصطلحات الأربعة: التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل انظر تعليق الشيخ عبد العزيز ابن باز على التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة والواسطية من المباحث المنيفة للشيخ عبدالرحمن السعدي ص(١٥-١٦).

(٧) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية بشرح الشيخ صالح الفوازان ص(١٣).

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها ذلك الاسم لله - عزوجل -.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها.

مثال ذلك: "السميع"يتضمن إثبات"السميع"اسماً لله تعالى، وإثبات"السمع"صفة له، وإثبات حكمه مقتضاه وهو أنه يسمع السر والنجوى.

وإن دلت على وصف غير متعدٍّ تضمَّنت أمرين:

أحدهما: ثبوت ذلك الاسم لله - تعالى -.

والثاني: ثبوت الصفة التي تضمَّنها لله - تعالى -.

مثال ذلك"الحي"يتضمن إثبات"الحي"اسماً لله - تعالى - وإثبات الحياة صفة له [١].

الثالث: أسماء الله - تعالى - وصفاته توقيفية، فلا يثبت له من الأسماء والصفات إلا ما دل عليه الكتاب والسنة [٢].

الرابع: أسماء الله - تعالى - غير محصورة في عدد معين لحديث ابن مسعود - رضي الله عنه -: ((أسألك بكل اسم هو لك سمَّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك))[٣].

والشاهد من الحديث قوله: ((أو استأثرت به في علم الغيب عندك))، فهذا لا يعلمه إلا الله، فلا يدخل تحت حصر أحد من الخلق.

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ ابن عثيمين ص(١٣).

(٢) القواعد المثلى ص(١٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٥٢، وصححه الحاكم في المستدرك ١/٥٠٩، وابن حبان، انظر موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي ٢/١٠٦٨ ح(٢٣٧٢)، وصححه أيضاً ابن القيم في شفاء العليل ص(٤٥٣).

وأما قوله ﷺ في حديث أبي هريرة المتفق عليه: ((إن لله تسعةً وتسعين اسماً – مائة إلا واحداً – من أحصاها دخل الجنة)) [١]، فمعناه: الإخبار بأن من أحصى هذه الأسماء دخل الجنة، وليس المراد الحصر، بل المراد بإحصائها حفظها واعتقاد ما دلت عليه من المعاني، والعمل بمقتضاها [٢].

الخامس: "ومما يستحق تقريره – هاهنا – أن تلازماً وثيقاً بين إثبات الأسماء والصفات لله – تعالى – وتوحيد الله – تعالى – بأفعال العباد، فكلما حقق العبد أسماء الله وصفاته علماً وعملاً، كلما كان أعظم وأكمل توحيداً، وفي المقابل فإن هناك تلازماً وطيداً بين إنكار الأسماء والصفات وبين الشرك" [٣].

يقول ابن القيم – في تقرير هذا التلازم –: "كل شرك في العالم فأصله التعطيل، فإنه لولا تعطيل كماله – أو بعضه – وظن السوء به لما أُشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهلِ التوحيد لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]، أي: فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟" [٤].

---

(١) صحيح البخاري ٣٧٧/١٣ ح(٧٣٩٢)، ومسلم ٢٠٦٣/٤ ح(٢٦٧٧).

(٢) انظر فتح الباري ٢٢٠/١١، وقد أطال الحافظ ابن حجر الكلام على هذا الحديث، وذكر من تتبعها من العلماء، وانظر القواعد المثلى ص(١٧).

(٣) مقال للدكتور عبدالعزيز العبداللطيف في مجلة البيان، العدد التاسع والتسعين ص(٨٩).

(٤) مدارج السالكين ٣٦٤/٣، وانظر تفسير ابن جرير ٥٠٠/١٠.

المبحث السادس: إهمال العقل، وعدم التفكر في آيات الله - تعالى-

إن من أجلِّ نعم الله – تعالى – على الإنسان نعمة العقل التي فضل بها على سائر المخلوقات، فبالعقل يميز الإنسان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والطيب من الخبيث.

وقد جاءت الشرائع السماوية موافقةً للعقول السليمة، والفطر المستقيمة، ولذلك دلت العقول السليمة على وجوب إفراد الله – تعالى – بالعبادة وبطلان الشرك.

"وبهذا كان العقل حجة مستقلة في بطلان الشرك، ولو لم يأت بحرمته شرع"(١).

قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]: "أجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه، وليس منها شيء منسوخ، وكذلك هي في جميع الكتب، ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل، وإن لم يترل به الكتاب"(٢).

وقال ابن القيم: "قال تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ولم يقل: إلهكم، والرب: هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله – تعالى – هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة مَن

---

(١) آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد لمدحت حسن الفراج ص(٨٩).

(٢) تفسير القرطبي ٥/١١٨.

هذا شأنه وحده لا شريك له"[١].

وقال ابن تيمية: "وهذا يقتضي [أي فَطْرُ الذرية على التوحيد] أن نفس العقل الذي به يعرفون التوحيد حجة في بطلان الشرك، لا يحتاج ذلك إلى رسول، فإنه جعل ما تقدم حجة عليهم بدون هذا"[٢].

ولهذا ينكر الله – تعالى – في القرآن الكريم على المشركين إهمال عقولهم وعدم الاستدلال بها على وحدانيته – تعالى –، فهناك آيات كثيرة في سياق مجادلة المشركين، وإبطال شركهم يختمها الله – تعالى – بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

ومن أعظم وظائف العقل التي خلق من أجلها التفكر[٣] في آيات الله – تعالى – الدالة على ربوبيته، وإلهيته، وقدرته، وعظمته، وحكمته، ورحمته.

قال ابن القيم: "وإذا تأملت ما دعى الله – سبحانه – في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به – سبحانه وتعالى – وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه، وبره

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٣١٥/٤.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٤٩١/٨، لكن الله تعالى لا يؤاخذ الناس إلا بعد إرسال الرسل إليهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

(٣) قال ابن منظور: الفكر: إعمال الخاطر في الشيء،.. وقد فكّر في الشيء وأفكر فيه وتفكر بمعنى، وقال الجوهري: التفكر: التأمل"، لسان العرب ٣٤٥١/٦.

ولطفه وعدله ورضاه وغضبه، وثوابه وعقابه، فبهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته"[١].

وقد حثَّ الله - تعالى - في القرآن الكريم على التفكر في آياته، وأثنى على المتفكرين المستبصرين، كما قال - تعالى -: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

كما ذم الله - تعالى - من لا يتفكر في مخلوقاته الدالة على وحدانيته وعظمته، قال - تعالى -: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

قال ابن جرير: "يقول - جل وعز -: وكم من آية في السموات والأرض لله، وعبرة وحجة، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ يقول: يعاينوها فيمرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها ولا يتفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهية لا تنبغي إلا

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/١٩٣.

للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء، فدبَّرها"(١).

ثم يبين - تعالى - أن إقرارهم بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الخالق المالك المدبِّر لا ينفعهم ماداموا مشركين به في ألهيته، فيقول: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وآيات الله – تعالى – التي أمر بالتفكر فيها نوعان:

النوع الأول: الآيات المتلوة المسموعة، وهي آيات القرآن الكريم، فإن القرآن إنما نزل ليَتَدَبَّر(٢) الناس آياته ويتفكروا فيها"فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها"(٣)، كما قال - تعالى -: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، ولهذا أنكر الله - تعالى - على المشركين إعراضهم عن تدبر القرآن، والتفكر في آياته، فقال - تعالى -: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

النوع الثاني: الآيات الكونية المرئية، وهي ما نشاهده في هذا الكون الفسيح من الدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة، والمشاهد الباهرة، في الأنفس والآفاق، والتي تشهد بأن لهذا الكون رباً عظيماً قديراً لا تنبغي العبادة إلا له

(١) تفسير ابن جرير ٣١١/٧.

(٢) قال الجرجاني: التَدَبُّر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا إن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبُّر تصرفه في النظر في العواقب، التعريفات: ص(٥٤).

(٣) تفسير السعدي ٤١٨/٦.

- سبحانه -، قال - تعالى -: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وسيأتي زيادة بيان وتفصيل لهذا الأمر في الباب الثالث - إن شاء الله تعالى - [١]، و المقصود بيانه هنا هو أن الإعراض عن تدبّر آيات الله - تعالى - المسموعة والمرئية، وعدم التفكر فيها سبب كبير من أسباب الشرك، فقد أسلم كثير من الناس قديماً وحديثاً حينما قَرَعَتْ أسماعهم آيات القرآن الكريم، فأنصتوا لها متدبِّرين، وتأملوها متجردين، وأسلم آخرون حينما انكشفت لهم بعض مظاهر عظمة الخالق المتمثلة في بديع صنعه وعجيب خلقه، فلم يسعهم إلا أن يستسلموا لله مذعنين، ويوحدوه موقنين.

"فسبحان الذي أوضح دلالته للمتفكرين، وأبدى شواهده للناظرين، وبين آياته للغافلين، وقطع عذر المعاندين، وأدحض حجج الجاحدين، وأعمى أبصار الغافلين، وتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله مالك يوم الدين، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله رب العالمين"[٢].

---

(١) انظر ص (٢٧٠).

(٢) كتاب العظمة لأبي الشيخ الأصفهاني ١/٢٨٦.



الفصل الثاني

مظاهر الشرك الواردة في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر الشرك الاعتقادية في ضوء القرآن الكريم.

المبحث الثاني: مظاهر الشرك العملية في ضوء القرآن الكريم.

المبحث الثالث: مظاهر الشرك القولية في ضوء القرآن الكريم.




المبحث الأول: مظاهر الشرك الاعتقادية في ضوء القرآن الكريم

المطلب الأول: شرك المحبة:

إن الباعث على كل عمل هو المحبة [(١)]، فالإنسان لا يعمل عملاً من الأعمال إلا وهو محب له، أو لما يترتب عليه من جلب منفعة أو دفع مضرة، وعبادة الله - تعالى - مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة [(٢)]، كما أن أصل الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبة [(٣)]،"ولهذا لما أحب المشركون ألهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله"[(٤)].

أقسام المحبة:

تنقسم المحبة إلى قسمين:

القسم الأول: المحبة الخاصة، وهي محبة العبودية التي تستلزم الذل والتعظيم والطاعة للمحبوب، وهذه خاصة بالله - تعالى -، وصرفها لغيره شرك أكبر.

القسم الثاني: المحبة المشتركة، وهي خمسة أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفي الله، وهي محبة ما يحبه الله - تعالى - من

---

(١) قال ابن القيم: "لا تُحَدُّ المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة"، مدارج السالكين ١٠/٣.

(٢) شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين ١٤١/٢.

(٣) قاعدة في المحبة ضمن جامع الرسائل لابن تيمية ٢٥٥/٢.

(٤) شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين ١٤١/٢.

الأشخاص كالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، أو الأعمال كالصلاة والزكاة والحج والجهاد وغيرها، وهذا النوع من المحبة واجب على المكلف.

النوع الثاني: محبة إجلال وإعظام كمحبة الولد لوالده.

النوع الثالث: محبة إشفاق ورحمة، كمحبة الوالد لولده.

النوع الرابع: محبة أُنْس وإلفة، كمحبة الشريك لشريكه، والصديق لصديقه، والأخ لأخيه.

النوع الخامس: المحبة الطبيعية، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، والمجهود للنوم [(١)].

وهذه الأنواع الأربعة الأخيرة جائزة، لا يؤاخذ الإنسان بحبها، ولا تعد شركاً، بل قد تكون مندوبة، وذلك إذا اقترنت بالنية الصالحة، كأن يحب الولد والده امتثالاً لأمر الله وقياماً بواجب البر، ويحب الإنسان الطعام لكي يعينه على طاعة الله وهكذا، لكن يشترط أن لا تزاحم هذه المحبة محبة الله، بحيث يترتب عليها الإخلال بشيء من أمر الله وشرعه، فإنها حينئذٍ تكون مذمومة، بل قد تكون شركاً، قال – تعالى –: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟

---

(١) انظر القول السديد (١١٢)، وحاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٢٣٦)، وشرح كتاب التوحيد لابن عثيمين ٢/١٤١.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤] ففي هذه الآية يأمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يتوعد من قدم محبة هذه الأمور الثمانية على محبة الله ورسوله ومحبة ما يحبه الله من الأعمال الصالحة، وأما من أحبها و لم يُؤْثِرْها على محبة الله أو يساويها بها فهو غير مذموم.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد، والمقت الأكيد على من كان شيء من المذكورات أحبَّ إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وعلامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يفوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله أو يُنْقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله دل على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه"(١).

علامات محبة الله تعالى في القرآن الكريم:

ذكر الله - تعالى - في القرآن الكريم لمحبتة علاماتٍ تعرف بها وتدل عليها، فمنها:

١) تقديم ما يحبه الله - تعالى - ويرضاه على ما تحبه نفسه وتهواه، كما في الآية السابقة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ أَبَدًا ..﴾ [التوبة:٢٤].

٢) اتباع الرسول ﷺ، وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، كما

---

(١) تفسير السعدي ٣/٢١٤.

قال – تعالى –: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال بعض السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية [١].

٣) الذلة على المؤمني، أي اللين والرفق والرحمة بهم.

٤) العزة على الكافرين، وذلك بالشدة عليهم والغلظة والرفعة.

٥) الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

٦) الثبات على الحق، ونصرته، والدعوة إليه، وعدم الالتفات إلى لوم الناس وتنقصهم وازدرائهم.

ويدل على هذه العلامات الأربع الأخيرة قوله – تعالى – في سورة المائدة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

الشرك في المحبة:

أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده [٢]، وأصل الشرك به الشرك في المحبة [٣]، فمن أحب أحداً من الخلق كما يحب الله – تعالى – فهو مشرك

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٦٦.

(٢) القول السديد ص(١١٠).

(٣) الشرك الأكبر حقيقته وحكمه وأنواعه لأسماء السلمان ١/١٣٦.

شركاً أكبر، كما قال - تعالى - عن المشركين: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فإن الله - تعالى - لما بيّن في الآيتين اللتين تقدمتا هذه الآية[1] انفراده بالوحدانية بالأدلة القاطعة والبراهين الواضحة ذكر في هذه الآية أن من الناس - مع هذا البيان التام - من اتخذ من دون الله أمثالاً ونظراء يساووهم بالله في العبادة، والمحبة، والتعظيم [2]، وليس المراد أهم يساووهم بالله في الخلق والملك والتدبير، فإهم يقرون بانفراد الله بهذه المعاني [3]، ثم مدح - تعالى - المؤمنين مبيناً أهم أشد حباً لله من أهل الأوثان لأوثاهم [4]؛ لأن محبتهم له خالصة بخلاف محبة المشركين فإها ممزوجة بمحبة أندادهم، وفي ختام الآية يتوعد - سبحانه وتعالى - هؤلاء المشركين الظالمين لأنفسهم باتخاذهم الأنداد ومحبتهم لها مخبراً عن حالهم حينما يعاينون العذاب يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يعلمون فيه علم اليقين أن القوة والقدرة والأمر والحكم لله وحده لا شريك له، وأن الله

---

(١) وهما قوله - تعالى -: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾... الآية، [البقرة: ١٦٣-١٦٤].

(٢) انظر تفسير السعدي ١٩٥/١، وقيل المراد: يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، تفسير ابن جرير ٧١/٢.

(٣) انظر مدارج السالكين ٢٠/٣.

(٤) هذا قول أكثر المفسرين انظر تفسير ابن جرير ٧١/٢، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن المراد: أشد حباً لله من محبة أهل الأوثان لله، الفتاوى ٣٥٨/٨.

شديد العذاب لمن أشرك به وعصاه [(١)].

ونظير هذه الآية قوله - تعالى - حكايةً عن أهل النار من المشركين أنهم يقولون لآلهتهم وأصنامهم التي كانوا يحبونها ويعظمونها ويعبدونها من دون الله: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

قال ابن القيم: "وهذا هو العدل المذكور في قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]، أي يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم"[(٢)].

مظاهر الشرك في المحبة:

وقد انتشر هذا النوع من الشرك بين كثير من المسلمين - مع الأسف الشديد - ويتجلى ذلك في مظاهر كثيرة من أخطرها وأكثرها انتشاراً الغلو في محبة النبي ﷺ والأولياء والصالحين والأئمة والمصلحين، وتعظيمهم تعظيماً يضاهي تعظيم الله، وقد تقدم الكلام على هذا الأمر في مبحث الغلو في الفصل الأول[(٣)].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/، وتفسير السعدي ١٩٥٢٠٨/١.

(٢) مدارج السالكين ٢٢/٣، وانظر تفسير ابن جرير ٤٥٥/٩، وكتاب تجريد التوحيد المفيد ص(٥٣).

(٣) انظر ص (٤٠).

المطلب الثاني: شرك الخوف

الخوف(١) من الله من أعظم العبادات وأجلِّ المقامات، ولذلك يجب إخلاصه لله - تعالى -.

وحدُّ الخوف من الله: ما حجزك عن محارم الله، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (٢)، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط (٣).

أقسام الخوف من غير الله:

تقدم الكلام على الخوف من الله - تعالى - ويأتي مزيد بيان لذلك، وأما الخوف من غيره فينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم، وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بمكروه بقدرته ومشيئته، ويسمى خوف السِّر، وهذا شرك أكبر.

القسم الثاني: أن يخاف الإنسان من غير الله خوفاً يترتب عليه ترك واجب أو فعل محرم، وهذا شرك أصغر ينافي كمال التوحيد، ويدل على ذلك قوله

---

(١) الخوف لغة: الفزع، وعرفه بعضهم بقوله: "توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، لسان العرب ١٢٩٠/٣، المفردات ص(٣٠٣).

والخشية والرهبة والوجل بمعنى الخوف، وليست مرادفة له بل هي مقاربة، والفرق بين الخوف والخشية: أن الخشية: خوف مبني على العلم بعظمة من يخشاه وكمال سلطانه وقدرته، كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، بخلاف الخوف فقد يكون من ضعف الخائف، انظر مدارج السالكين ٥٤٩/١، والقول المفيد لابن عثيمين ١٧٠/٢.

(٢) مدارج السالكين ٥٥١/١.

(٣) المرجع السابق، وهذا من كلام ابن القيم.

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

وذلك أن المشركين لما انصرفوا راجعين إلى مكة يوم أحد، ندب النبي ﷺ الصحابة إلى الخروج في إثرهم ترهيباً لهم، فخرجوا معه - رضي الله عنهم - حتى بلغوا حمراء الأسد [(١)]، فقدم عليهم ركب وأخبروهم أن المشركين قد أجمعوا الرجعة عليهم ليستأصلوهم، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالاً عليه، حيث قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فبلغ المشركين أن النبي ﷺ وأصحابه قد خرجوا في إثرهم فخافوا ورجعوا إلى مكة، فأنزل الله هذه الآيات[(٢)].

قال ابن القيم عند قوله - تعالى -: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ : "ومن كيد عدو الله - تعالى - أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يجاهدونهم، ولا يأمرونهم بمعروف ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الآيمان وقد أخبر الله - تعالى سبحانه - عنه بهذا فقال:

---

(١) حمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة، معجم البلدان ٣٠١/٢.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٥٢١/٣، وتفسير البغوي ٣٧٣/١، والصحيح المسند من أسباب النزول ص(٦٦).

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ .

والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه، قال قتادة: يعظّمهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم"[1].

القسم الثالث: الخوف الطبيعي، وهو الخوف من شيء يضر ويؤذي في العادة [2]، كالخوف من عدو أو سبع ونحو ذلك، وهذا النوع جائز ولا يذم صاحبه، ومنه قوله - تعالى - عن موسى - عليه السلام -: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾ [القصص: ٣٣]، وقوله عن يعقوب - عليه السلام - ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٣]، وقوله - تعالى - لرسوله ﷺ: ﴿ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾ [الكهف: ١٨] [3].

(١) إغاثة اللهفان ١/١١٩، وانظر الدر المنثور ٢/١٨٢.

(٢) فإن لم تجر العادة بأنه سبب للخوف فهو مذموم لأنه جبن وضعف في النفس، انظر القول السديد ص(١١٧).

(٣) انظر لما سبق: تيسير العزيز الحميد ص(٣٦١)، وفتح المجيد ص(٢٨١)، والقول السديد ص(١١٥)، وحاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٢٤٤)، وشرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين ص(٥٦).

أساليب القرآن الكريم في الحث على خوف الله – تعالى – وحده:

لقد حث الله – تعالى – في القرآن الكريم على خوفه وندب عباده إلى ذلك بأساليب متنوعة منها:

١) الأمر الصريح، كما قال – تعالى –: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

٢) جعلُ الخوف منه – سبحانه وتعالى – شرطاً في تحقيق الإيمان، كما في – تعالى –: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

٣) الإخبار بأن الخوف من الله – تعالى– من صفات الملائكة التي يحمدون عليها، كما قال – تعالى – ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥]، وقال – تعالى – ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٤) الإخبار بأنه من صفات الرسل – عليهم الصلاة والسلام –، كما قال – تعالى –: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

٥) المدح؛ حيث مدح الله – تعالى – أولياءه الصالحين الذين يخافونه وحده وأثنى عليهم، كما قال – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ ... الآيات إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا

سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وقال – تعالى –: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]، قال ابن عطية [(١)]: "يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، وهي مرتبة العدل بين الناس، ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره ويخشى المحاذير الدينوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه"[(٢)].

٦) بشارة الخائفين بالجنة، كما قال – تعالى –: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال – تعالى –: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤١-٤٢].

٧) التأكيد على أن الخائفين هم المنتفعون بالآيات، كما قال – تعالى –: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾ [هود: ١٠٣].

٨) الإخبار أن الله – سبحانه وتعالى – يستخلف الخائفين منه ويمكنهم في

---

(١) هو عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية الأندلسي المالكي، القاضي، فقيه، لغوي، مفسر، من مؤلفاته: تفسيره: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي عام ٥٤٢هـ، انظر الأعلام ٢٨٢/٣، ومعجم المؤلفين ٩٣/٥.

(٢) تفسير ابن عطية ١٤٨/٨.

الأرض كما قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

الشرك في الخوف:

الخوف المستلزم للعبادة والتعظيم لا ينبغي أن يكون إلا لله فصرفه لغيره شرك أكبر كما تقدم، وهو من أسباب عبادة المشركين للأصنام، ولذلك كانوا يخوفون بها الأنبياء، كما قال - تعالى - عن قوم هود - عليه السلام - أنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[هود: ٥٤-٥٥].

فإن هوداً - عليه السلام - لما دعاهم إلى توحيد الله، وبيّن لهم بطلان الشرك، كذبوه، وردوا دعوته، بل ادعوا أن آلهتهم أصابته بخبل وجنون، لأنه سبها فانتقمت منه، وقالوا لا نحمل أمرك إلا على هذا.

فرد عليهم هود - عليه السلام - مبيّناً أنه واثق غاية الوثوق بأنه لن يصيبه منهم ولا من آلهتهم أي أذىً، وأعلن براءته من شركهم، وتحداهم أن يصيبوه بمكروه مهما عملوا من الحيل، ودبَّروا من الخطط، طالباً منهم ألا ينظروه ساعةً واحدة إن هم قدروا على ذلك، ولكن أنى لهم ذلك والله - تعالى - هو حسبه ونعم الوكيل [(١)].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٨/٧، وتفسير ابن كثير ٤٦٥/٢، وتفسير السعدي ٤٣١/٣.

وقال – تعالى – عن إبراهيم – عليه السلام – حينما خوفه قومه بآلهتهم الفاسدة لما عابها وأنكر عليهم عبادتها: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

فقد بيّن لهم – عليه السلام – أنه لا يخاف من آلهتهم الباطلة لأنها أصنام جامدة لا تضر ولا تنفع، ثم قال لهم منكراً عليهم متعجباً من حالهم: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا ﴾، واعجباً لكم تخوفونني بآلهتكم الباطلة العاجزة الجامدة، وأنتم لا تخافون الله الواحد القهار، حيث تشركون به غيره بغير دليل ولا برهان، ﴿ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِ ﴾؟!، قال الله – تعالى – حاكماً وفاصلاً بين الفريقين: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾، نعم المؤمنون الذين أخلصوا إيمانهم لله فلم يخلطوه بشرك لهم الأمن التام من جميع المخاوف في الدنيا والآخرة، وهم المهتدون الموفقون لكل خير [1].

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/١٥٧، وتفسير السعدي ٢/٤٢٥.

ولما دعا النبي ﷺ قومه إلى توحيد الله ونبذ الشرك، خوفوه بآلهتهم، كما قال - تعـالى -: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٣٦].

قال ابن كثير: "يعني المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً"[(١)].

مظاهر الشرك في الخوف:

وقد وقع هذا النوع من الشرك عند كثير من المسلمين، لاسيما في العصر الحاضر، حيث إنهم يخافون من يزعمون أنهم أولياء وصالحون من الأحياء والأموات، بل ويخافون الجن والشياطين كما يخافون الله - تعالى - أو أشد، ويقدمون لهم القربات والنذور مخافة أن يمسوهم بسوء، وبعضهم لا يتورع أن يحلف بالله كاذباً بينما يمتنع أشد الامتناع أن يحلف بغيره من الطواغيت إلا أن يكون صادقاً[(٢)]، وهذا من جهلهم وسفههم وتلاعب الشيطان بعقولهم، قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٥٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص(٣٦٢).

المطلب الثالث: شرك التوكل

التوكل[١] على الله - تعالى - وحده في جلب المنافع ودفع المضار والاعتماد عليه في جميع الأمور كبارها والصغار، من أعظم أنواع العبادة، وأبرز علامات الإيمان والطاعة، ولذلك يجب إخلاصه لله - تعالى - وحده.

"وحقيقة التوكل هو: صدق اعتماد القلب على الله - عزوجل - في استجلاب المصالح ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكِلَةُ الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه"[٢].

أقسام التوكل على غير الله:

التوكل على غير الله - تعالى - له أقسام ثلاثة، هي:

القسم الأول: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمغفرة الذنوب، وشفاء المريض، وتفريج الكروب، ونحو ذلك، وهذا شرك أكبر.

القسم الثاني: التوكل على غير الله في الأمور التي أقدره الله عليها، كمن يتوكل على شخص في الحصول على رزقه، أو دفع أذى الناس عنه، وهذا شرك أصغر ينافي كمال التوحيد، نظراً لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه [٣].

القسم الثالث: التوكل[٤] الذي هو بمعنى الإنابة، وذلك أن ينيب الإنسان

---

(١) التوكل لغة: الاعتماد، انظر المفردات ص(٨٨٢)، و لسان العرب ٨/٤٩١٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ص(٥٢٨).

(٣) انظر شرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين ص(٥٥).

(٤) قال ابن قاسم: لكن لا تقول توكلت عليه، بل وكّلته، فإنه ولو وكته فلابد أن يتوكل في ذلك على الله، حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٢٥١).

غيره فيما يقدر عليه كبيع وشراء ونحو ذلك، وهذا جائز ولا ينافي التوكل على الله - تعالى - [(١)].

أساليب القرآن في الحث على التوكل على الله - تعالى - وحده:

لقد حث الله - تعالى - في القرآن الكريم على التوكل عليه وحده، وأمر بذلك في آيات كثيرة وبأساليب متنوعة منها:

١) الأمر الصريح، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وتقديم المعمول – لفظ الجلالة - يفيد الحصر، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل [(٢)]، وقال - تعالى -: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

"وهذه الآية فيها الأمر بالتوكل على الله، وأردف هذا الأمر بما هو الموجب للتوكل والمصحح له، وذلك ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾، فإن العبد إذا اتبع الحق وسار عليه كان مقتضى ذلك تحقيق مقام التوكل على الله - عز وجل - والاكتفاء به والإيواء إليه دون سواه، فإنه - تعالى - هو الحق وهو ولي الحق وناصره وكافي من قام به..."[(٣)].

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٣٧٣)، وفتح المجيد ص(٢٩٠)، وشرح ثلاثة الأصول لابن عثمين ص(٥٤).

(٢) قرة عيون الموحدين للشيخ عبدالرحمن بن حسن ص(١٧١).

(٣) مباحث العقيدة في سورة الزمر ص(٢٧٦).

٢) جعلُ التوكل عليه – سبحانه -شرطاً في الإيمان والإسلام كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

قال ابن القيم عند هاتين الآيتين: "فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى جعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل"(١).

٣) جعلُ التوكل على الله – تعالى - من أخص صفات المؤمنين الصادقين، قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قال ابن عباس عند هذه الآية: "المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين..."(٢).

وقال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: "في الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان، وحصول أعماله الباطنة

---

(١) طريق الهجرتين ص(٤٦٠) بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن جرير ١٧٨/٦.

والظاهرة"[(١)].

٤) الإخبار بمحبة الله - تعالى - لمن توكل عليه، قال - تعالى -: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأي فضل أعظم من محبة الله - تعالى - للعبد؟.

٥) الإخبار بكفاية الله - تعالى - لمن توكل عليه، قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن كان الله - تعالى - كافِيَه وحافظه وراعيه فإنه لا مطمع فيه لعدو غشوم ولا منفذ إليه لجبار ظلوم، ولهذا لما بلغ النبي ﷺ وأصحابه بعد أُحد أن المشركين قد عزموا على الرجوع إليهم ليستأصلوهم فوضوا أمرهم إلى الله ولجأوا إليه وحده، حيث قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فكانت النتيجة أن رد الله كيد المشركين في نحورهم وألقى في قلوبهم الرعب ففروا هاربين إلى مكة، وأما المسلمون ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤][(٢)].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل"قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[(٣)].

---

(١) فتح المجيد ٢٩١.

(٢) وتقدم ذكر القصة في ص(٨٩).

(٣) أخرجه البخاري ٢٢٩/٨ ح(٤٥٦٣).

٦) الجمع بين التوكل عليه وبين العبادة، وبينه، وبين الإيمان، وبينه وبين التقوى، وبينه وبين الإسلام، وبينه وبين الهداية، وماذاك إلا لبيان منزلته من هذا الدين، وعلو مرتبته، وتأكيد أهميته.

فأما الجمع بينه وبين العبادة فكما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

وفي الجمع بين العبادة والتوكل دليل على أنه لا يمكن تحقيق العبودية الواجبة لله - تعالى - إلا بالاستعانة به والتوكل عليه.

وأما الجمع بين التوكل والإيمان فكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وأما الجمع بين التوكل والتقوى فكما في قوله - تعالى -: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام فكما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بينه وبين الهداية فكما في قوله - تعالى - على لسان رسله - عليهم الصلاة والسلام -: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

مظاهر الشرك في التوكل:

التوكل عبادة من أجلّ العبادات وأعظمها، وهو من أعمال القلوب، فلا يجوز صرفه لغير الله – تعالى –، ولهذا أمر الله – تعالى – بالتوكل عليه وحده دون ما سواه، بل أمر – سبحانه – رسوله ﷺ الذي هو أشرف الخلق وأكملهم إيماناً بالتوكل عليه وحده في تسعة مواضع من القرآن الكريم.

وقد وقع هذا النوع من الشرك عند كثير من المسلمين، حيث يتَّكلون على غير الله من الطواغيت والشياطين وأصحاب القبور في جلب أرزاقهم وشفاء مرضاهم وتفريج كرباتهم، وهذا شرك أكبر مخرج من الملة كما تقدم، كما أن بعض المسلمين يعتمد في تحصيل رزقه على ما يأتيه من رَزْق [1]، أو غَلَّة[2]، أو كسب ضَيْعَة [3]، ويظن أنه متى ما انقطع عنه ذلك فإنه سيجوع ويفتقر، ومن هذا الباب ما يزعمه بعض المنتسبين إلى الإسلام من أن خيرات الأرض وثمارها لن تفي بحاجات الناس بعد سنوات معدودة، ولذلك ينبغي تحديد النسل أو قطعه، فهذا شرك أصغر ينافي كمال التوحيد، وقد يصل إلى الشرك الأكبر بحسب نية صاحبه وقصده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه شرك، ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ

(١) الرَّزْق: العطاء الجاري، المعجم الوسيط ١/٣٤٢.

(٢) الغلَّة: الدَّخل من كراء أرض أو رَيْع أرض، المعجم الوسيط ٢/٦٦٠.

(٣) الضَّيْعَة: الحرفة والصناعة، المصباح المنير ص(٨٩).

ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١] [١].

تعقيب:

التوكل على الله - تعالى - لا ينافي فعل الأسباب، فإن التوكل نفسه من أقوى الأسباب في تحصيل المنافع ودرء المضار، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والفطرة والعقل، وليس هذا مقام تفصيل ذلك وبيانه، وقد أمر الله - تعالى - في كتابه باتخاذ الأسباب، فقال تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد نزلت هذه الآية في أهل اليمن، فإنهم كانوا يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية، أخرجه البخاري [٢][٣].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٥٧/١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٨٣/٣ ح(١٥٢٣).

(٣) انظر رسالة الشرك الأصغر ص(١٣٩) وما بعدها.

المطلب الرابع: الــرياء

الرياء[١] داء خطير، ومزلق كبير، ومدخل من مداخل الشيطان دقيق.

"و هو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها، وإنما يبتلي به العلماء، والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة؛ فإنهم مهمـــا قهـــروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات، وحملوهـــا بالقهر على أصناف العبادات، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير، وإظهـــار العمـــل والعلم، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظـــرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصـــلت إلى اطـــلاع الخلق و لم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس، و لم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات، وتوقيه الشـــبهات، وتحملـــه مشـــاق العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والإطراء، ونظـــروا إليه بعين التوقير والاحترام... فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللـــذات وشهوة هي أغلب الشهوات... فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دَرَكِها العقول النافذة القوية، ويرى أنه

---

(١) الرياء لغة: قال فيه الفيروز آبادي: "رائيته مراءاة ورياء أريته خلاف ما أنا عليه"بصائر ذوي التمييز ١١٦/٣.

وشرعاً: إظهار العبادة للناس لكي يروها فيحمدوا صاحبها، والفرق بين الرياء والسُّمعة، أن الرياء العمل من أجل رؤية الناس، والسمعة العمل من أجل سماعهم. انظر فتح الباري لابـــن حجـــر ٣٣٦/١١.

مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المترلة والوقار، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين.

وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة..."[1].

أساليب القرآن الكريم في النهي عن الرياء:

لقد نهى الله - تعالى - في القرآن الكريم عن الرياء، وذم المرائين بأساليب متنوعة منها:

١) النهي عنه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ففي هذه الآية يأمر الله - تعالى - كل من يرجو لقاءه[2] - وذلك أعظم مرجو وخير مطلوب - أن يتزود لذلك بالعمل الصالح وهو الموافق للشرع، المطابق للسنَّة، وأن يخلص هذا العمل لله وحده، فلا يرائي به أحداً من الناس.

قال ابن جرير: "وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ يقول: ولا يجعل له شريكاً في عبادته إياه، وإنما يكون جاعلاً له شريكاً بعبادته إذا رآى بعمله الذي

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٤٢.

(٢) والمقصود به هنا لقاء الرضاء والنعيم والمتضمن رؤيته سبحانه، انظر القول المفيد ٢/٢٢٩.

ظاهره أنه لله وهو مريد به غيره"[١].

وقال الفضيل بن عياض[٢] عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾... الآية [٣].

فالإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ هما ركنا العمل المقبول وشرطا العبادة الصحيحة.

٢) الإخبار بأنه من صفات المنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

قال ابن كثير: "أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقيةً لهم، ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها

(١) تفسير ابن جرير ٢٩٩/٨.

(٢) هو أبوعلي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، ثقة، زاهد، ولد في سمرقند، وجاور في مكة وبها توفي عام ١٨٧هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤٢١/٨، والأعلام ١٥٣/٥.

(٣) انظر مدارج السالكين ٩٣/٢.

غالباً كصلاة العشاء وقت العَتَمة [(١)]، وصلاة الصبح في وقت الغلَس [(٢)]، كما ثبت في الصحيحين"[(٣)] [(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: ٣٨].

فالمنافقون إنما ينفقون أموالهم لكي يراهم الناس فيمدحوهم ويصفوهم بالجود والسخاء، لا يبتغون بذلك وجه الله، فالرياء هو ديدنهم، وبغيتهم، وأصل دينهم.

٣) وعيد المرائين بالويل والعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

ففي هذه الآيات يتوعد الله الذين يراؤون بصلاتهم بالويل، وهو واد في جهنم[(٥)]، مع أنهم يؤدون الصلاة، ولكنهم لمّا كانوا لا يؤدونها مخلصين لله، بل مراءاة للناس لم تنفعهم، فكأنهم لم يؤدوها بالكلية، ولذلك أخبر الله عنهم أنه

---

(١) العَتَمة: الثلث الأول من الليل بعد مغيب الشفق، مختار الصحاح ص(١٧٣).

(٢) الغَلَس: ظلمة آخر الليل، مختار الصحاح، ص(٢٠٠).

(٣) صحيح البخاري ١٤١/٢ ح(٦٥٧)، وصحيح مسلم ٤٥١/١ ح(٦٥١).

(٤) تفسير ابن كثير ٥٨١/١.

(٥) قاله بعض السلف، ورُوي مرفوعاً، وفيه أقوال أخرى، انظر تفسير البغوي ٨٨/١.

ساهون عن صلاتهم مضيعون لأوقاتها مخلون بأركانها [١].

وقال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

قال ابن كثير: "يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا"[٢].

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾[٣].

فهذه الآية فيها وعيد شديد للمرائين الذين يحبون أن يمدحوا على الطاعات التي لم يفعلوها.

٤) الإخبار بزوال عمل المرائي واضمحلاله وبطلانه، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥٩٣/٤، وتفسير السعدي ٦٧٧/٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٦/١.

(٣) أخرجه البخاري ٢٣٣/٨ ح(٤٥٦٧)، و مسلم ٢١٤٢/٤ ح(٢٧٧٧).

يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ففي هذه الآية الكريمة يصف الله عمل المرائي بالصدقة بالحجر الأملس الذي نزل عليه مطر شديد فأزال ما عليه من التراب، فأصبح أملسَ يابساً ليس عليه شيء، فلا ينبت ولا يصلح للزراعة، فكذلك عمل المرائي يذهب ويضمحل، وإن ظهر للناس وعلموا به، لأن العبرة بما يبقى عند الله حيث يجده صاحبه كاملاً موفَراً أحوج ما يكون إليه [(١)].

وكما حذر الله - تعالى - من الرياء وذم المرائين فقد حذر النبي ﷺ أمته من الرياء، وخافه عليهم خوفاً شديداً[(٢)] حتى جعله أخوف عليهم عنده من المسيح الدجال [(٣)]، وأخبر أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة هم المراؤن[(٤)].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٢٦/١، والتفسير المنير ٤٦/٣.

(٢) كما في حديث محمود بن لبيد ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء))، أخرجه أحمد ٤٢٨/٥، وقال المنذري: إسناده جيد، الترغيب والترهيب ٦٨/١ ح(٢٣)، وحسن إسناده ابن حجر في بلوغ المرام، انظر بلوغ المرام مع شرحه سبل السلام ٣٥٥/٤ ح(٣٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ١٧/١ ح(٢٩).

(٣) كما في حديث أبي سعيد ــ رضي الله عنه ــ مرفوعاً: ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: الشرك الخفي: أن يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل))، أخرجه أحمد ٣٠/٣، وابن ماجه ١٤٠٦/٢ ح(٤٢٠٤)، وهذا لفظه، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة ٢٩٦/٣، والألباني في صحيح الترغيب ١٧/١ ح(٢٧).

(٤) كما في حديث أبي هريرة المشهور قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار...)) الحديث، أخرجه مسلم ١٥١٣/٣ ح(١٩٠٥).

أقسام الرياء:

القسم الأول: الرياء في أصل العبادة، وهو أن يكون الحاملُ للعبد على العبادة قصدَ مراءاة الناس، فهذا العمل باطل، وهو شرك أصغر، فإن قلب نيته إلى إرادة الثواب، أو كان الحامل له على العبادة الإخلاص ثم طرأ عليه الرياء في أثنائها، صح ما أخلص فيه فيها إن لم ينبن آخرها على أولها كالصدقة، وبطلت إن كان ينبني آخرها على أولها كالصلاة [1].

القسم الثاني: أن يكون الباعث على العبادة إرادة الثواب والرياء معاً، فهذه العبادة باطلة على الراجح، لحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله – تبارك وتعالى –: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)) [2].

القسم الثالث: أن يكون بعد الفراغ من العبادة، وذلك بأن ينوي العبادة مخلصاً لله فيها ثم يخبر بها الناس مراءاةً لهم وطلباً لمدحهم وثنائهم، فهذا العمل محرم، لحديث جندب بن عبد الله البجلي – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((من سمّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به)) [3]، ولا تبطل به العبادة، لأنه أداها مخلصاً فيها لله – تعالى –.

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته وثنائهم على ذلك

---

(١) لكن يستثنى من ذلك ما إذا خطر الرياء على قلب الإنسان فدافعه وتخلص منه فإنه لا شيء عليه، انظر القول السديد ص(١٢٨).

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٨٩/٤ ح(٢٩٨٥).

(٣) أخرجه البخاري ٣٣٥/١١ ح(٦٤٩٩)، و مسلم ٢٢٨٩/٤ ح(٢٩٨٧).

استبشاراً بفضل الله، وسروراً بتوفيقه لهذه العبادة التي أداها مخلصاً لله مبتغياً فيها وجهه مبتعداً عن أسباب الرياء ودواعيه، لحديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قيل لرسول الله ﷺ: ((أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه - وفي رواية: ويحبه الناس عليه - قال: تلك عاجل بشرى المؤمن)) [(١)][(٢)].

مظاهر الرياء:

للرياء مظاهر عديدة، ومسالك دقيقة، وصور كثيرة، وقلَّ من ينجو منه، لاسيما في هذه الأزمان التي ضعف فيها خوف الله - تعالى -، وعزت فيها مراقبته، وأُشربت القلوب مدح الناس، والتزيّن لهم، وطلب ثنائهم وإعجابهم، والحرص على نيل رضاهم وإطرائهم، وقد كان السلف - رحمهم الله تعالى - يخافون خوفاً شديداً من الوقوع في الرياء، ويحرصون أشد الحرص على إخفاء أعمالهم الصالحة [(٣)].

ومن صور الرياء الخفية أن يحب العابدُ أن يبدأه الناس بالسلام، ويقدروه، ويقدموه في المجالس، ويسعوا في قضاء حوائجه، ويثنوا عليه، ويغضب ويتضايق إذا قصروا في شيء من ذلك، ومن صوره الدقيقة أيضاً أن يذم الإنسان نفسه أمام الناس ليريهم أنه متواضع فيرتفع بذلك ويُمدح به [(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٠٣٤/٤ ح(٢٦٤٢).

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣٠١/٣، وجامع العلوم والحكم ص(١٨)، والقول السديد ص(١٢٨)، والقول المفيد ٢٢٧/٢، ورسالة الشرك الأصغر ص(٨١)، ومقاصد المكلفين للدكتور عمر الأشقر ١٠١/٢.

(٣) انظر شرح حديث: ((ما ذئبان جائعان)) لابن رجب ص(٦٧).

(٤) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ٣٠٥/٣، والإخلاص والشرك الأصغر ص(١٠).

ومما ينبغي التنبيه عليه أنه لا يجوز ترك العمل خوفاً من الرياء، بل هذا هو عين الرياء، كما قال الفضيل بن عياض: "ترك العمل لأجل الناس هو الريـــاء، والعمل من أجل الناس هو الشرك"(١).

وختاماً: ينبغي أن يجاهد المرء نفسه على التخلص منه ومدافعته، وتربيتـــها على إخلاص الأعمال والأقوال لله – تعالى –، والإكثار من اللَّهج(٢) بهذا الدعاء النبوي: ((اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لمـــا لا نعلمه)) (٣).

---

(١) حلية الأولياء ٨/٩٥.

(٢) اللهج بالشيء: الولوع به، والمثابرة عليه واعتياده، انظر مختار الصـــحاح ص(٢٥٣)، والمعجـــم الوسيط ٢/٨٤١.

(٣) لحديث أبي موسى الأشعري ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم: ((يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل، فقال له من شـــاء الله أن يقـــول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه))، أخرجه أحمد ٤/٤٠٣، وحسنه الألبـــاني في صـــحيح الترغيب ١/٩١ ح(٣٣).

المطلب الخامس: إرادة الإنسان بعمله الدنيا

إن العبادة بجميع أنواعها الاعتقادية والقولية والعملية يجب أن تكون خالصة لله - تعالى - كما أمر الله بذلك في قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة، و لا يجوز للإنسان أن يعمل العمل الصالح يريد به حظاً من حظوظ الدنيا الفانية، بل إن ذلك شرك ينافي كمال التوحيد، ويحبط العمل، كما تقدم في المطلب السابق.

والفرق بين الرياء وإرادة الإنسان بعمله الدنيا هو أن"بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه، كحال المنافقين، وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس وطلب المِدحة منهم والإكرام، ويفارقه[١] الرياء بكونه[٢] عمل عملاً صالحاً، أراد به عرضاً من الدنيا كمن يجاهد ليأخذ مالاً"[٣].

أساليب القرآن الكريم في النهي عن إرادة الدنيا بالعمل الصالح:

لقد ذم الله - تعالى - في القرآن الكريم الذين يريدون بأعمالهم الصالحة

---

(١) أي يفارق إرادةَ الإنسان بعمله الدنيا.

(٢) أي إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

(٣) فتح المجيد ص(٣١٠)، والظاهر أن الريا متعلق بذوات البشر، أي الحصول على مدحهم وإعجابهم، وإرادة الإنسان بعمله الدنيا متعلق بالمنفعة الدنيوية بغض النظر عن مدح الناس وذمهم.

متاعَ الدنيا القليل، وعرضها الفاني، وذلك بأساليب متعددة منها:

١- الوعيد لمن قصد بعمله الحياة الدنيا، وأعرض عن الآخرة، ولم يقدم لها شيئاً، كما في:قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ففي هذه الآيات الكريمة يتوعد الله – تعالى – الذين يريدون بأعمالهم الصالحة متاعَ الدنيا القليل الفاني فحسب، ولم يكن لهم عملٌ للآخرة بالنار، ويخبر – سبحانه- أنه ليس لهم في الآخرة من نصيب، وأنهم وإن نالوا شيئاً من حظوظ الدنيا، فإنما هو شيء قد كتبه الله لهم [(١)]، ثم مآلهم إلى جهنم وبئس المصير، وهذا الوعيد وإن كان وارداً فيمن كان كلُّ همِّه ومقصده الحياةَ الدنيا، ولم يرد الله – تعالى – بشيء من عمله الصالح – وهذا لا يصدق إلى على

(١) بدلالة آية الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ فإنها مقيدة للآيتين الأخريين كما ذكر ابن كثير في تفسيره ٤/١٢٠.

الكافر [١]، فإنه يدخل في عمومه المؤمن الذي يعمل العمل الصالح يبتغي به عرضاً من أعراض الدنيا.

٢- الإخبار عن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – أنهم لم يطلبوا من أقوامهم أجرا على دعوتهم إياهم إلى وتبليغهم رسالته، وإنما أجرهم على الله وحده، كما قال – سبحانه – عن نوح – عليه السلام -: ﴿ **فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس:٧٢].

وقال عن هود – عليه السلام -: ﴿ **يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [هود:٥١]

وقال عن صالح– عليه السلام – ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء:١٤٥]

وقال عن شعيب – عليه السلام -: ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء:١٨٠]

وقال عن لوط –عليه السلام-: ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء:١٦٤].

---

(١) وقال بعض المفسرين هو في المؤمن يريد بعمله الدنيا، انظر زاد المسير ٤/٧٠.

وذكر - سبحانه - عن صاحب القرية أنه قال لقومه: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس:٢١].

وقال عن نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف:١٠٤].

٣- أمرُ الله – تعالى – لنبيه محمد ﷺ أن يقول لقومه: لا أسألكم على دعوتي أجراً دنيوياً، كما قال – تعالى -: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠]. وقال - سبحانه-: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧﴾ [سبأ:٤٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وكما ذم الله - تعالى - مريدي الدنيا وتوعدهم، كذلك ذمهم النبي ﷺ ودعا عليهم، وسماهم عبيداً لها كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((تعس[١] عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة [٢]، تعس عبد الخميلة[٣]، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس [٤]، وإذا شيك فلا انتقش [٥]، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل

---

(١) تعس: سقط، والمراد به هنا: هلك.

(٢) الخميصة: ثوب خزّ أو صوف معلّم.

(٣) الخميلة: القطيفة، وهو كل ثوب له خَمْل، وقيل: الخميل الأسود من الثياب.

(٤) انتكس: انقلب على رأسه بعد أن سقط.

(٥) وإذا شيك فلا انتقش: أي إذا أصابته شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش.

الله، أشعثٍ رأسه، مغبرةٍ قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة[١] كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع)) [٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، وذكر ما فيه وهو دعاء وخبر، وهو قوله: ((تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش))، والنقش إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش ما يخرج به الشوكة، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلُص من المكروه، وهذه حال عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي، وإن منع سخط، كقوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برئاسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده - إلى أن قال -: وهكذا أيضا حال من طلب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقُّه"[٣].

أقسام إرادة الإنسان بعلمه الدنيا:

القسم الأول: ألا يريد بعمله الصالح إلا الدنيا، فهذا العمل باطل، محرم، وهو شرك أصغر.

---

(١) السَّاقة: جمع سائق، وهم الذين يسوقون جيش الغزاة، ويكونون من ورائه يحفظونه، انظر والنهاية ٢/٨١، ٤٢٤، وفتح الباري ١١/٢٥٤.

(٢)أخرجه البخاري ٦/٨١ ح(٢٨٨٧).

(٣) الفتاوى ١٠/١٨٠ وما بعدها.

القسم الثاني: أن يريد بعمله وجه الله - تعالى - والدنيا معاً، فهذا عمله صحيح لكنه ناقص لعدم تحقيق الإخلاص الواجب، فإن غلب قصد الدنيا فهو باطل.

القسم الثالث: أن يعمل العمل مخلصاً فيه لله - تعالى -، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، وإنما يريده في الدنيا، وذلك بأن يجازيه الله بحفظ ماله وأهله، وإدامة النعمة عليه، ونحو ذلك، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، ولا يأثم بذلك، لأنه أراد الأجر من الله وحده [١].

وليس من إرادة الدنيا التشريك في بعض العبادات، كمن يحج ويتاجر، ويجاهد في سبيل الله ليحصل على الأجر والغنيمة، لأن الله - تعالى - أباح ذلك[٢].

مظاهر إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

إرادة الدنيا بالأعمال الصالحة له مظاهر كثيرة منها الجلي ومنها الخفي، فمن ذلك أن يعمل الإنسان العمل الصالح من أجل أن يصيب به مالاً أو منصباً، أو زوجة ينكحها، ومن ذلك أن يتعلم العلم الشرعي ليصيب به عرضاً من أعراض الدنيا كالمال والجاه والمنصب، ومن ذلك أن يترك بعض المحرمات حفاظاً على صحته كأن يترك الفواحش والمسكرات ونحو ذلك خوفاً من أعراضها وأضرارها الصحية، ونحو ذلك.

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٤٠٤)، والقول السديد ص(١٢٩)، ورسالة الشرك الأصغر ص(١٠٥).

(٢) انظر الفروق للقرافي ٣/٢٢، والإخلاص والشرك الأصغر ص(٢٠).

المطلب السادس: الطِّـيَرَة

تعريف الطيرة:

قال ابن الأثير[(١)]: "الطِّيَرَة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن: هي التشاؤم بالشيء، وهو مصدر تطيَّر، يقال: تطيَّر طِيَرَة، وتخيَّر خيَرَة، ولم يجئ من المصادر هكذا غيرهما.

وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح [(٢)]، من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله، ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر..."[(٣)].

وقال في صبح الأعشى: "الزجر والطيرة وهما في معنى واحد، وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير، فإن طار يميناً كان له حكم، وإن طار شمالاً كان له حكم، وإن طار أماماً كان له حكم، وإن طار فوق رأسه كان له حكم، ومن ثمَّ سميت الطِّيرة أخذاً من اسم الطير، وأكثر ما عولوا عليه من ذلك الغراب، ثم تعدَّوا إلى غير الطير من الحيوان، ثم جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسر أو صدع أو نحو ذلك، وربما انتهى

(١) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني، الجَزَري، المحدث، اللغوي، الأصولي، من تصانيفه: النهاية في غريب الحديث، وجامع الأصول في أحاديث الرسول، توفي عام ٦٠٦هـ في الموصل، انظر الأعلام ٥/٢٧٢، معجم المؤلفين ٨/١٧٤.

(٢) السانح: ما ولاك يمينه من الطير، والبارح: ما ولاك مياسره، وكانت العرب تتيمن بالسانح، وتتطير بالبارح، انظر النهاية لابن الأثير ١/١١٤.

(٣) النهاية ٣/١٥٢.

بعض الزجر إلى حد الكهانة"[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "هي التشاؤم بالطيور، والأسماء، والألفاظ، والبقاع وغيرها"[٢].

وقد أبطلها الإسلام، وأخبر النبي ﷺ أنها شرك [٣]، لأنها تعلق بغير الله، فهي تنافي كمال التوكل على الله - وحده -، قال ابن حجر: "وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوا مع الله - تعالى -"[٤].

الطيرة في القرآن الكريم:

ذكر الله - تعالى - الطيرة في أربعة مواضع من القرآن الكريم، وكلها صادرة عن المشركين المكذبين لدعوات الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، ولذلك ذمهم الله - تعالى - وكذب دعواهم، وأبطل شبهتهم، وإليك بيان هذه المواضع:

الموضع الأول: تطير ثمود بنبيهم صالح - عليه السلام - كما ذكر الله

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندي ٣٩٩/١.

(٢) القول السديد ص(١٠١).

(٣) كما في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: ((الطيرة شرك))، أخرجه أحمد ٣٨٩/١، وأبوداود ٢٣٠/٤ ح(٣٩١٠)، والترمذي ١٣٨/٤ ح(١٦١٤)، وقال: حسن صحيح، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند ٢٥٢/٤ ح(٣٦٨٧).

(٤) فتح الباري ٢١٣/١٠.

ذلك عنهم في سورة النمل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٤٧].

ففي هذه الآيات يخبر الله – تعالى – أنه أرسل إلى قبيلة ثمود أخاهم في النسب صالحاً – عليه السلام –، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك والأوثان، فانقسموا إلى فريقين كل منهما يجادل الآخر ويخاصمه، فريق مؤمن مصدق، وفريق مشرك مكذِّب وهم الأكثرون، ولذلك قال لهم صالح – عليه السلام –: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ لم تبادرون بفعل السيئات الموجبة لعقوبة الله وتحرصون عليها، قبل فعل الحسنات الموجبة لرحمة الله وتوبته، فهلاّ تستغفرون الله وتتوبون إليه من كفركم وتكذيبكم لعله أن يرحمكم ويعفو عنكم، فلم ينفعهم هذا الوعظ والتذكير، بل تمادوا في غيهم وعنادهم حتى أعلنوا – قبحهم الله – تشاؤمهم من نبيهم صالح – عليه السلام – ومن آمن معه، وزعموا أنهم هم السبب فيما أصابهم من الجوع والقحط والبلاء، حيث ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، فرد عليهم صالح – عليه السلام – قائلاً: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما أصابكم من المكاره إنما هو من الله – تعالى –، أنزله بعلمه وحكمته، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي: تختبرون

وتمتحنون بالسراء والضراء ليعلم الله المؤمنين الصادقين فيثيبهم الثواب الجزيل، ويعلم الكافرين المكذبين فيعاقبهم العقاب الأليم (١).

الموضع الثاني: تطير قوم فرعون بموسى - عليه السلام -، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١].

فقد أرسل الله - تعالى - موسى - عليه السلام - إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك، فأعرض عن هذه الدعوة واستكبر هو وجنوده بغير الحق، وتمادى في غيه وطغيانه حتى ادعى الربوبية ودعا الناس إلى عبادة نفسه من دون الله، فلما كان هذا موقفه وقومه من دعوة موسى - عليه السلام - ابتلاهم الله بالقحط والجوع ونقص الثمرات لعلهم يتعظون فيؤمنون، ولكن لم يزدهم ذلك إلا عناداً وكفراً واستكباراً، فكانوا إذا جاءتهم الحسنة من الخصب والغنى والعافية قالوا: لنا هذه فنحن مستحقون لها، وإذا أصابتهم السيئة من الجوع والقحط والبلاء تشاءموا بموسى ومن آمن معه، وادعوا أن ما أصابهم كان بسبب موسى واتباع بني إسرائيل له، قال الله -تعالى- مبطلاً مقولتهم ذاماً لحالهم: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٣٠/٩، وتفسير ابن كثير ٣٧٩/٣، تفسير السعدي ٥٨٣/٥.

﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما أصابهم من البلاء والمكاره إنما هو من الله – وحده –، أنزله بقضائه وقدره بسبب ما كسبته أيديهم، ولا شأن لموسى وقومه به، ولكنهم قوم جهلة، وإلا فإن موسى ومن آمن معه سبب لنزول الخيرات والبركات لما معهم من الإيمان والتقوى [(١)].

قال البيضاوي [(٢)]: "هذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك[(٣)] وتزيل التماسك، سيما بعد مشاهدة الآيات، وهي لم تؤثر فيهم، بل ازدادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي"[(٤)].

الموضع الثالث: تطير أهل القرية برسل الله – عليهم السلام –، كما حكى الله – تعالى – ذلك عنهم في سورة يس~، فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٩/٦، وابن كثير ٢٤٩/٢، والسعدي ٨٠/٣.

(٢) هو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي الشيرازي القاضي، مفسر أصولي، من تصانيفه: تفسيره المسمى أنوار التنزيل، ومنهاج الوصول في علم الأصول، توفي عام ٦٨٥هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ٢٤٢/١، والأعلام ١١٠/٤.

(٣) العرائك: جمع عريكة وهي الطبيعة، وفلان لـيِّن العريكة: أي سلس، مختار الصحاح ص(١٨٠).

(٤) تفسير البيضاوي ٣٥٦/١.

لَمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٣-١٩].

ففي هذه الآيات يأمر الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ أن يضرب لقومه مثلاً في أصحاب القرية رجاء أن يعتبروا بهم فيؤمنوا، وذلك أن قرية من القرى كان أهلها على الشرك، فبعث الله إليهم رسولين[1] يدعوانهم إلى عبادة الله وحده، فكذبوهما وأنكروا رسالتهما، فقواهما الله - تعالى - بثالث، فلم ينفع ذلك أهل القرية بل استمروا في ضلالهم، متذرعين بالشبهة التي طالما رددها أهل الشرك ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل أنكروا جميع الرسالات، حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ فما كان من الرسل - عليهم السلام - إلا أن أكَّدوا صدق رسالتهم بالأيمان، وأخبروهم أن مهمتهم البلاغ، وأما الهداية فهي بيد الله - تعالى -، ولم يكتف أصحاب هذه القرية بتكذيب رسل الله ورد دعوتهم، بل تشاءموا بهم، وادعوا أنهم سبب شر ونذير هلاك، قال قتادة: "قالوا: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم"[2]، وقال مجاهد: "يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب

---

(١) وقد اختلف المفسرون في هذه القرية وفي هؤلاء الرسل، هل هم من عند الله، أو هم رسل أرسلهم المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام -؟ فذهب أكثر المفسرين إلى أن القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الرسل الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح - عليه السلام -، واختار ابن كثير أن القرية ليست أنطاكية المعروفة، وأن هؤلاء الرسل أرسلهم الله - عزوجل -، وليسوا من جهة المسيح - عليه السلام -، انظر تفسير ابن كثير ٣/٥٧٦، وتفسير ابن جرير ١٠/٤٣٠.

(٢) تفسير ابن جرير ١٠/٤٣٢.

أهلها"[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "وهذا من أعجب العجائب أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم الله بها على العباد، وأجلّ كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة، قد قدم بحالة شر زادت على الشر الذي هم عليه، واستشأموا بها، ولكن الخذلان وعدم التوفيق يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوه"[٢].

ثم توعدوا رسلهم - عليهم السلام - بقتلهم رجماً بالحجارة إن لم ينتهوا عن دعوتهم إلى التوحيد.

فرد عليهم الرسل قائلين: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ شؤمكم فيكم بسبب ما معكم من الشرك والمعاصي الموجبة لحلول المصائب والنقم، ولكنكم قوم مسرفون في الضلال والعناد، حيث نسبتم إلينا ما لا يليق بنا حينما ذكرناكم وأنذرناكم [٣].

الموضع الرابع: تطير الكفار برسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ۝٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٧٥.

(٢) تفسير السعدي ٦/٣٣٩.

(٣)انظر تفسير ابن جرير ١٠/٤٣٠، وتفسير ابن كثير ٣/٥٧٤، وتفسير السعدي ٦/٣٣٧.

﴿أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

ففي هذه الآيات يخبر الله - تعالى - عن المكذبين لرسوله ﷺ[١] بأنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة من الخصب والرخاء والعافية قالوا هذه من عند الله أنزلها برحمته وتقديره، وإذا أصابتهم السيئة من البلاء والجدْب قالوا متشائمين: هذه من قبلك بسبب دينك، وسوء تدبيرك، فأمر الله - تعالى - نبيه أن يقول لهؤلاء الجهال الضلال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فكل ما يصيب الإنسان من رخاء وشدة، ونعمة ونقمة إنما هو من عند الله أنزله بقدرته وعلمه وحكمته، ولكن هؤلاء القوم أناس جهلة لا يعلمون حقيقة الرسالة ولا يفهمون معاني الكتاب.

ثم بيّن - تعالى - لرسوله ﷺ[٢] أن كل ما يصيبه من رخاء، ونعمة، وعافية إنما هو من فضله - سبحانه - ونعمته وإحسانه ومنّته، وما أصابه من شدة وبلاء ومحنة فإنما هو بسبب ذنبه وكسبه، ويعفو عن كثير، وفي ختام الآية شهد الله - تعالى - لنبيه بالرسالة، وكفى به - سبحانه - شهيداً، فلن يضره بعد ذلك جحود الكافرين ولا شُبه المبطلين [٣].

---

(١) وقد اختلف في مرجع الضمير في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ فقيل: هم المنافقون واليهود، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هم اليهود، انظر زاد المسير ١٥٦/٢.

(٢) وأمته داخلون معه في هذه الخطاب.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ١٧٦/٤، وتفسير ابن كثير ٥٤٠/١، وتفسير السعدي ١٠٧/٢، وشفاء العليل ص(٢٦٩)، وما بعدها.

الشرك في الطيرة:

الطيرة عادة من عادات الجاهلية، ومرض من أمراض الأمم الشركية، والمتطير لا يخلو من حالين:

إحداهما: أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازماً على فعله أو يفعل ما كان عازماً على تركه، فهذا تعلق بغير الله، وإخلال بالتوحيد، ونقص في التوكل، فهو شرك أصغر.

الثانية: أن لا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثر في قلبه حزناً وهمّاً، وهذا أهون من الأول، ولكنه نقص في التوكل، وربما تدرج به إلى الأمر الأول، لكن لا يؤاخذ عليه الإنسان لحديث معاوية بن الحكم - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله: ((ومنا رجال يتطيرون، فقال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدهم))، [1].[2]

فعلى المسلم أن يَكِلَ أمره إلى الله، ويعتمد عليه، ولا يلتفت إلى ما يلقيه الشيطان في صدره من الوساوس والأوهام، فإن وقع في قلبه شيء من الطيرة فإن كفارة ذلك أن يقول: ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)) [3].

---

(١)أخرجه مسلم ٣٨٢/١ ح(٥٣٧).

(٢) انظر القول السديد ص(١٠٢)، وحاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٢٢١)، والشرك الأصغر ص(١٣٣)، ودليل الفالحين ١٧٧/٣.

(٣) لما روى أبوداود عن عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم، فقال: أحسنها الفأل، ولا يَرُدُّ مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل:...)) الحديث، أخرجه ==

وليس من الطيرة الفأل، بل هو مستحب ومحمود، وهو الكلمة الطيبة يسمعها المؤمن فيسر بها ويزداد طمعاً في تحصيل ما عزم على فعله وإقبالاً عليه، وذلك لما روى أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: ((لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: كلمة طيبة)) [١].

والفرق بينهما أن الفأل الحسن لا يدخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه المصلحة والنشاط والسرور، وتقوية النفوس على المطالب النافعة"[٢].

مظاهر الطيرة:

الطيرة لها مظاهر متعددة، وألوان مختلفة في القديم وفي الحديث، فمن مظاهرها: زجر الطير، فإن ذهب يميناً استبشروا وأقدموا على ما عزموا على فعله، وإن ذهب شمالاً تشاءموا وأحجموا عن ذلك، ومنها ما يكون برؤية بعض الطيور كالغراب والصُّرَد [٣]، والجرادة والبُومة [٤]، ومنها التطير بأول ما يقع

==

أبوداود ٢٣٥/٤ ح(٣٩١٩)، وصححه النووي في رياض الصالحين ص(٥٣٧)، ومحمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد انظر فتح المجيد ص(٢٥٠).

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤/١٠ ح(٥٧٧٦)، ومسلم ١٧٤٦/٤ ح(٢٢٢٣).

(٢) القول السديد ص(١٠١)، وانظر مفتاح دار السعادة ص(٥٦٦).

(٣) الصُّرد: طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم، نصفه أبيض ونصفه أسود، النهاية ٢١/٣.

(٤) البومة: طائر يقع على الذكر والأنثى، ويسكن الخراب، ويضرب به المثل في الشؤم، مختار الصحاح ص(٢٨).

عليه البصر، ومنها التشاؤم بأصحاب العاهات والأمراض، كالأعرج، والأعور، والأعمى، ومنها ما يكون بأزمان معينة كشهر صفر وشوال، ومنها ما يكـــون بأماكن معنية كالمكان الذي تصيب الإنسان فيه المصيبة، ومنـــها مـــا يكـــون بأشخاص معينين، كالمرأة تتزوج الرجلين والثلاثة فيموتون عنها، ومنـــها مـــا يكون بالألوان كاللون الأسود، ومما يؤسف له أن بعض وسائل الإعلام الحديثة تروج لمثل هذه الخرافات، فتزود قراءها وتخبرهم بحظوظهم ومـــا ينتظـــرهم في مستقبل حياتهم، وذلك من وقع تواريخ مواليدهم أو أشكال وجوههم [١].

(١) انظر لما سبق: الطير والطيرة في القرآن والسنة، للدكتورة سهام وادي ص(٦١) وما بعدها.

المطلب السابع: الـتبرك

التَبَرُّك: مصدر تَبَرَّكَ، وهو طلب حصـــول البركـــة [(١)]، وقـــد وردت مادة"برك"وما تصرف منها في القرآن الكريم أربعاً وثلاثين مرة، والمتأمل للآيات التي ذكرت فيها البركة يجد أن البركة في الأصل من الله – تعالى –، فهي تطلب منه وحده، وهو – سبحانه – يضعها فيمن شاء من خلقه [(٢)]، قـــال تعـــالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ومعنى تبـارك: عظم وتعالى وكثرت بركته، ولا يوصـــف بـــه إلا الله – تعالى–[(٣)]، وقال ابن القيم بعد أن ذكر أقوال السلف في معناها: "وحقيقـــة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعـــلاً منـــه – تبارك وتعالى –، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان"[(٤)]، وقال: "تبارك"دال على كمال بركته وعظمتها وسعتها".

الأمور الموصوفة بالبركة في القرآن الكريم :

ورد في القرآن الكريم وصف بعض الأمور بأنها مباركة، وعلى هذا يشرع

---

(١) البركة في اللغة: لها معنيان: الثبوت، والنماء والزيادة، والمراد بالبركة الشرعية: كثرة الخير وثبوته، انظر لسان العرب ٢٦٥/١، والقاموس المحيط ٣٩٩/٣، والمفردات ص(١١٩)، والتبرك أنواعـــه وأحكامه للدكتور ناصر الجديع ص(٣٩).

(٢) انظر كتاب هذه مفاهيمنا للشيخ صالح آل الشيخ ص(٢٠١).

(٣) انظر تفسير ابن عطية ٧٧/٧.

(٤) بدائع الفوائد ٣٣٤/٢.

التبرُّك بها، ومنها:

- **القرآن الكريم**، فقد وصفه الله - تعالى - بأنه مبارك في أربعة مواضع من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

قال الشنقيطي [(١)]: "أي كثير البركات والخيرات ؛ لأن فيه خبر الدنيا والآخرة" [(٢)].

فيشرع التبرك به قراءةً واستشفاءً وعلماً وعملاً.

- **الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم -**، فهم جميعاً أشخاص مباركون، قال تعالى في إبراهيم - عليه السلام -: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقال في نوح - عليه السلام -: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ

---

(١) هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد بشنقيط وبها نشأ ثم رحل إلى المدينة واستقر بها، برع في فنون عديدة، مع ملازمة الزهد والورع، له مصنفات كثيرة، منها تفسيره المشهور: أضواء البيان، توفي في مكة عام ١٣٩٣هـ، انظر ترجمته في مقدمة تفسيره بقلم تلميذه محمد عطية سالم.

(٢) أضواء البيان ٤/٦٣٩.

﴿ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ [هود: ٤٨]، وقال عيسى - عليه السلام -: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١]، وأفضل الرسل نبينا محمد ﷺ فيشرع التبرك به بذاته وأفعاله وآثاره وسنته.

- **المساجد،** فهي من الأمكنة المباركة، وأفضلها المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، فيشرع التبرك بها، وذلك بالصلاة فيها والعبادة والذكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

قال القرطبي: "جعله الله مباركاً لتضاعُف الخير فيه، فالبركة كثرة الخير"(١).

وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١].

"والمراد بالبركة هنا: البركة الدنيوية، أي جعلنا حوله البركة لسكانه في معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم، وقيل البركة الدينية لأنه مقر الأنبياء والصالحين ومهبط الملائكة"(٢).

- **ليلة القدر،** فهي من الأزمنة المباركة؛ فيشرع التبرك بها بكثرة العبادة والدعاء والذكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[الدخان: ٣].

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٨٩.

(٢) التبرك أنواعه وأحكامه ص(١٢٨).

قال القرطبي: "وصفها بالبركة لما يترل الله فيها على عباده من البركـــات والخيرات والثواب"(١).

أقسام التبرك:

التبرك قسمان: مشروع وممنوع.

القسم الأول: التبرك المشروع، وهو التبرك بما دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الله - تعالى - قد جعل فيه البركة، سواء كان صفة أو شخصاً أو مكاناً أو أزماناً، وقد تقدم آنفاً ذكر عدد من الأمور التي نصَّ القرآن الكريم على أنها مباركة.

القسم الثاني: التبرك الممنوع، وهو ما لم يرد دليل على مشروعيته، فمـــن ذلك التبرك بذوات الصالحين بتقبيلهم والتسمح بهم، أو بآثارهم، وأما التـــبرك بمجالسة الصالحين المتقين المتبعين للسنة، وذلك بالانتفاع بعلمهم، والاقتداء بهم، ومحبتهم، فهذا جائز بل هو محمود مندوب.

ومن أنواع التبرك الممنوع التبرك ببعض الأمكنة أو البقاع، كقبر النبي ﷺ، وقبور الأولياء والصالحين، وبعض الجبال والأشجار الأحجار(٢)، وذلك بالصلاة عندها والتمسح بها، والعكوف فيها، وتقديم القربات لها.

ومن أنواع التبرك الممنوع التبرك ببعض الأزمنة، كمولد النبي ﷺ، وليلـــة

---

(١) تفسير القرطبي ٨٤/١٦.

(٢) يستثنى من ذلك الحجر الأسود والركن اليماني، فيسن مسحهما وتقبيل الحجر الأسود اقتداءً بالنبي ﷺ كما هو معلوم.

الإسراء والمعراج، وذكرى الهجرة، وغيرها [(١)].

الشرك في التبرك:

تقدم أن التبرك نوعان: مشروع وممنوع، فالممنوع منه هو شرك بالله تعالى، وهو على قسمين:

أحدهما: أن يرجو الإنسان ممن يتبرك به نفعاً على وجه الاستقلال، أو يعبده ملتمساً منه البركة، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة، وهذا هو شرك قوم نوح الذين عكفوا عند صور صالحيهم راجين من ذلك البركة، فآل بهم الأمر إلى أن عبدوهم من دون الله كما تقدم [(٢)]، وهو أيضاً شرك العرب باللاّت والعزّى ومناة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

وهذه الثلاثة: اللات، والعزى، ومناة أصنام كانت العرب تعبدها في الجاهلية، وخصها الله - تعالى - بالذكر لأنها أعظم أصنامهم وأكبرها في ذلك الوقت، فصارت الفتنة بها أشد [(٣)].

فأما "اللاّت" [(٤)] فكانت صخرةً بيضاء منقوشة وعليها بيت، وكانت

---

(١) انظر لما سبق التبرك أنواعه وأحكامه للجديع ص(٣١٥) وما بعدها، والتبرك المشروع والممنوع للدكتور علي العلياني ص(٥١) وما بعدها.

(٢) انظر ص(٢٨).

(٣) انظر حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٩٠).

(٤) وفيها قراءتان: تخفيف التاء، وهي قراءة الجمهور، وتشديدها، وهي قراءة رُويس عن يعقوب، انظر النشر ١٧٩/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ١٦٠/٨.

بالطائف، لها أستار وسَدَنَة، وحولها فناء، معظَّم عند أهل الطائف [١].

وقال ابن عباس: "كان اللاّت رجلاً يلتُّ السويق[٢] للحاج"أخرجه البخاري[٣]، زاد ابن جرير: "فمات فعكفوا على قبره"[٤].

وأما"العُزَّى"فكانت شجرة بين مكة والطائف عليها بناء وأستار، وكانت قريش تعظمها [٥].

وأما"مَنَاة"فكانت صنماً بين مكة والمدينة يعظمها الأوس والخزرج وخزاعة ويهلون منها للحج [٦]، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر بهدم هذه الأصنام الثلاثة وسائر الأصنام.

ومعنى الآية: أخبروني عن هذه الآلهة الباطلة هل نفعت أو ضرت حتى تعبد وتُشرك بالله - تعالى -؟ [٧].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: "عُبَّاد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون البركة فيها بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها، والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك، فالتبرك بقبور الصالحين كاللاّت، وبالأشجار والأحجار: العزى ومناة من ضمن فعل أولئك المشركين

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٧١/٤.

(٢) أي يخلطه، والسويق طعام يصنع من الحنطة أو الشعير، انظر المعجم الوسيط ٤٦٥/١ و٨١٤/٢.

(٣) صحيح البخاري ٦١١/٨ ح(٤٨٥٩).

(٤) تفسير ابن جرير ٥٢٠/١١.

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢٧١/٤.

(٦) انظر تفسير ابن كثير ٢٧١/٤.

(٧) انظر القرطبي ٦٧/١٧.

مع تلك الأوثان، فمن فعل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عباد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك، فالله المستعان"[(١)].

ومما يدل على أن التبرك الممنوع شرك بالله - تعالى - حديث أبي واقد الليثي[(٢)] - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مرَّ بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط [(٣)]، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: ((سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبنّ سُنّة من كان قبلكم))، أخرجه أحمد والترمذي [(٤)]، فقد أنكر النبي ﷺ في هذا الحديث على الصحابة الذين طلبوا منه أن يجعل لهم ذات أنواط، وشبّه فعلهم بفعل قوم موسى - عليه السلام - الذين قالوا لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وهذا يدل على أن التبرك نوع من العبادة[(٥)].

---

(١) فتح المجيد ص(١٠٣).

(٢) هو الحارث بن مالك، وقيل: الحارث بن عوف، وقيل: عوف بن الحارث الليثي الكناني، صحابي جليل، شهد فتح مكة، وشهد اليرموك، مات بمكة عام ٦٨هـ، انظر الإصابة ٢١٢/٧، والتقريب (٦٨٢).

(٣) اسم لشجرة بعينها كان المشركون ينوطون بها سلاحهم أي: يعلقونه، انظر النهاية ١٢٨/٥.

(٤) أخرجه أحمد ٢١٨/٥، والترمذي ٤١٣/٤ ح(٢١٨٠)، وقال: حسن صحيح.

(٥) انظر الشرك الأصغر للسليم ص(٢٣٤).

قال ابن كثير عند قوله تعـالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، قال - رحمه الله -: "يخبر - تعالى - عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن يتره عنه من الشريك والمثيل"(١)،"وأي جهل أعظم مـن جهـل الإنسان بربه وخالقه، وأراد أن يسوي به غيره ممن لا يملك نفعاً ولا ضـراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً"؟ (٢).

والثاني(٣): أن لا يرجو المتبرِّك النفع استقلالاً من المتبرَّك به، ولا يعبـده، ولكن يرجو الخير وكثرة الأجر بمجاورته والتسمح به، والتعبد عنده، فهذا شرك أصغر، لأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر (٤).

مظاهر الشرك في التبرك:

ولقد انتشر هذا النوع من الشرك عند كثير من المسلمين، فأصبحوا لا همَّ لهم إلا التمسح بشيوخ الضلال وتقبيلهم والتقـرب منـهم، وقصـد القبـور

(١) تفسير ابن كثير ٢٥٣/٢ بتصرف يسير.

(٢) تفسير السعدي ٨٥/٣.

(٣) أي القسم الثاني من أقسام التبرك الشركي.

(٤) انظر الشرك الأصغر للسليم ص(٢٣٥).

والأحجار والآثار للصلاة عندها والدعاء والطواف، وإحياء المناسبات الإسلامية وإقامة الاحتفالات لها، وتخصيصها بالدعاء والعبادة والذكر، وغير ذلك مما لم يذكر كثير، وهذا من تسويل الشيطان وتزيينه ووسوسته لكي يصرف الناس عن عبادة الله وحده ويجرهم إلى الشرك، كما فعل مع أسلافهم من قبل.

المبحث الثاني: مظاهر الشرك العملية في ضوء القرآن الكريم

المطلب الأول: الشرك في الطاعة:

إن من مظاهر الشرك الكبيرة، وأنواعه الخفيَّة الخطيرة، وصوره المنتشرة الكثيرة، الشرك في الطاعة والحكم والاتباع، ذلك أن الله - تعالى - هو المتفرد بالخلق، فينبغي أن يكون متفرداً بالأمر والنهي والحكم، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام: ٥٧]، فلا أحد يستحق أن ينفذ حكمه على الخلق إلا الله - سبحانه وتعالى -، لأنه هو مالكهم، والمتصرف في شؤونهم، فلا حكم ولا أمر إلا له وحده، أما غيره - سبحانه - فلا تجب طاعته إلا بإيجاب الله لها[1].

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: "فإن الرب، والإله هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وهو الذي يؤله ويعبد وحده لا شريك له ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى، بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته"[2].

والطاعة نوع من أنواع العبادة، فيجب أن تكون مختصةً بالله - تعالى -،

---

(١) انظر مجلة البيان العدد ٦٩ ص(١٢)، مقال بعنوان: الشرك، لعثمان ضميرة.

(٢) القول السديد ص(١٣٣).

والمقصود بالطاعة هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن صرف شيئاً منها لأحد من الخلق غير الرسول ﷺ فهو مشرك [(١)]، كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فقد بين الله - تعالى - في هذه الآية أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم - وهم العلماء والعباد -[(٢)] أرباباً من دون الله، وحكم عليهم بالشرك، مع أنهم لم يتقربوا إليهم بصوم ولا صلاة..، وإنما أطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال، كما في حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال: ((أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه))، وفي رواية قال: ((قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم))[(٣)].

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٤٠٩).

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٣٥٣/٦-٣٥٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٩/٥ح(٣٠٩٥)، وابن جرير ٣٥٤/٦، والبيهقي في السنن الكبرى

==

وعن حذيفة - رضي الله عنه - أنه سئل عن قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا، كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه)) [١].

وعن أبي البَخْتَري[٢]:﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حراماً، وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالاً، فأطاعوهم في ذلك، فجعل الله طاعتهم عبادتهم، ولو قالوا لهم: اعبدونا لم يفعلوا)) [٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند هذه الآية: "فقد بيّن النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلوا لهم، وصاموا لهم، ودعوهم من دون الله، فهذه عبادة للرجال... وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[٤].

==

١١٦/١٠، وحسنه شيخ الإسلام في كتاب الإيمان ص(٨٤)، والألباني في صحيح سنن الترمذي ٥٦/٣ ح(٣٣٠٦)، وانظر تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد للشيخ فريح البهلال ص(٩١).

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٥٤/٦، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١١٦/١٠.

(٢) هو سعيد بن فيروز الطائي مولاهم، الكوفي، ثقة، ثبت، فيه تشيع قليل، كثير الإرسال، توفي سنة ٨٣هـ، انظر التقريب ص(٢٤٠)، وتهذيب التهذيب ٧٢/٤.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٥٥/٦.

(٤) مجموع الفتاوى ٦٧/٧.

فهذه الآية دليل على أن طاعة غير الله في التحليل والتحريم والحكم والاحتكام شرك في الربوبية، لقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا ﴾ لأن الطاعة بهذا الاعتبار من حقوق الربوبية.

يقول صاحب تفسير المنار في بيان معنى الشرك في الربوبية: "هو إسناد الخلق والتدبير إلى غير الله - تعالى - معه، أو أن تؤخذ أحكام الدين في عبادة الله - تعالى - والتحليل والتحريم من غيره، أي عن غير كتابه ووحيه الذي بلغه عنه رسله"(١).

كما أن في الآية دليلاً أن الطاعة شرك في الألوهية لقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

قال ابن كثير: "أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾، أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو ولا رب سواه"(٢).

ومن الآيات الدالة على أن طاعة غير الله في التحليل والتحريم، والحكم والتشريع شرك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ

---

(١) تفسير المنار ٥٥/٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٢/٢.

لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ففي هذه الآية يقرر الله - تعالى - أن طاعة الشياطين في تحليل ما حرمه، والاستجابة لوساوسهم المناقضة لشرعه شرك بالله - تعالى -،"فهي فتوى سماوية من الخالق - جل وعلا - صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله"(١).

ومن الآيات الواردة في هذه الباب أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

ففي هذه الآية ينكر الله - تعالى - على المشركين اتخاذهم آلهةً من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله من الشرائع الباطلة، ويحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال، ويصفهم بالشرك، ويتوعدهم بالعذاب الأليم يوم القيامة (٢).

يقول الشنقيطي عند هذه الآية: "فقد سمى - تعالى - الذين يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء، ومما يزيد ذلك إيضاحاً أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة من أنه يقول للذين كانوا يشركون به في دار الدنيا

---

(١) أضواء البيان ١٧٠/٧.

(٢) انظر تفسير البغوي ١٢٤/٤، وتفسير السعدي ٦٠٩/٦.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[إبراهيم: ٢٢]، أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه شيء زائد على أنه دعاهم إلى طاعته فاستجابوا له كما صرح بذلك في قوله - تعالى - عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾...الآية [إبراهيم: ٢٢]، وهو واضح كما ترى"[١].

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله - تعالى -: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

وفي قراءة: "ولا تُشركْ في حكمه أحداً"بتاء الخطاب وجزم الكاف على النهي[٢].

ففي هذه الآية يخبر الله - تعالى - بأن له غيب السموات والأرض فلا يخفى عليه شيء، ثم يصف نفسه بكمال السمع والبصر قد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المُبصرات، ثم يخبر عن انفراده بالولاية على جميع الخلق، فهو الذي يتولى تدبير أمورهم، وتصريف شؤونهم، وفي ختام الآية يقرر - تعالى - تفرده بالحكم والقضاء في خلقه قدراً، وشرعاً، وجزاءً[٣].

وعلى القراءة الثانية: ينهى الله - تعالى - عباده أن يجعلوا له شريكاً في الحكم والقضاء.

---

(١) أضواء البيان ١٧٣/٧.

(٢) وهي قراءة ابن عامر، انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣١٠/٢.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٢١٢/٨، وتفسير السعدي ٢٧/٥.

قال الشنقيطي في معنى هذه القراءة: "أي لا تشركْ يا نبي الله، أولا تشرك أيها المخاطب أحداً في حكم الله – جل وعلا – ؛ بل أخلص الحكم لله من شوائب شرك غيره في الحكم"[١].

ويقول – رحمه الله – عند هذه الآية: "ويفهم من هذه الآيات كقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر"[٢].

ويقول – رحمه الله تعالى – أيضاً عند هذه الآية: "فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأن له غيب السموات والأرض؟ وأن يبالغ في سمعه وبصره لإحاطة سمعه بكل المسموعات، وبصره بكل المبصرات؟ وأنه ليس لأحد دونه من ولي؟ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؟"[٣].

أساليب القرآن الكريم في التحذير من شرك الطاعة:

لقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن هذا اللون من الشرك، وأوجب إفراد الله – تعالى – بالحكم والطاعة، وذم المخالفين لأمره المتبعين لغير شرعه، والمحكِّمين والمتحاكمين إلى غير وحيه، ووصفهم بالصفات القبيحة، وتوعدهم بالذلة والشقاء في الدنيا، والعذاب الأليم يوم القيامة، ذكر ذلك بأساليب متنوعة منها:

(١) أضواء البيان ٤/٩٠.

(٢) أضواء البيان ٤/٩١.

(٣) أضواء البيان ٧/١٦٥.

١) جعل التحاكم إلى شرع الله شرطاً في الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

يقول ابن كثير عند هذه الآية: "فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فليس مؤمناً بالله واليوم الآخر"[١].

ويقول ابن القيم: "قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه وجله، جليَّه وخفيَّه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه، ولم يكن كافياً لم يأمر بالرد إليه ؛ إذ من الممتنع أن يأمر - تعالى - بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع، وقد جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزرم لانتفاء لازمه، ولاسيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر، ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة"[٢].

٢) جعل الحكم بشريعة الله هو الغاية من تنزيل الكتاب [٣]، كما قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٣١/١.

(٢) إعلام الموقعين ٤٩/١-٥٠ باختصار وتصرف يسير.

(٣) انظر نواقض الإسلام القولية والعملية ص(٢٩٤).

مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥].

وفي وصف القرآن بأنه مترل من عند الله – تعالى – إلى رسوله ﷺ الذي هو أفضل الخلق، وبالحق الواضح المبين، ترغيب في الاحتكام إليه، وحث على التمسك به (١).

٣) الإخبار بأن التحاكم إلى غير الله من صفات المنافقين، كما قال – تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾[النساء: ٦٠-٦٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية حول هذه الآية: "ذم [الله] المدَّعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض

(١) انظر الحكم والتحاكم في خطاب الوحي لعبدالعزيز مصفى كامل ٨٣/١، ١٠٢.

الطواغيت[١] المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الإسلام وينتحله[٢] في تحاكمهم إلى مقالات الصائبة الفلاسفة[٣] أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وغيرهم، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً، وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات، أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم قالوا: أردنا أن نحسن بتحقيق العلم ونوفق بين الدلائل الشرعية، والقواطع العقلية، التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات"[٤].

ويقول محمد رشيد رضا[٥]: "والآية ناطقة بأن من صد وأعرض عن حكم

---

(١) يقول ابن القيم: "أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه، والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله"، إعلام الموقعين ٥٠/١.

(٢) ينتحله:ينتسب إليه، انظر مختار الصحاح ص(٢٧١).

(٣) الصابئ لغة: الذي يترك دينه إلى دين آخر، ويطلق على عباد الكواكب والهياكل، وقيل: هم قوم لا دين لهم، وإنما هم باقون على فطرتهم، انظر الملل والنحل ص(١٢٥-١٤٥)، وتفسير ابن كثير ١٠٨/١.

والفلاسفة: هم محبو الحكمة باليونانية، وهم أصناف متعددة، انظر الملل والنحل ص(١٥١).

(٤) مجموع الفتاوى ٣٣٩/١٢.

(٥) هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين، ولد ونشأ في القلمون من أعمال طرابلس الشام، ثم رحل إلى مصر، وكان من رجال المدرسة العقلية الحديثة، ثم تحول إلى منهج السلف في آخر حياته، له مصنفات كثيرة من أشهرها تفسيره: تفسير المنار، توفي عام ١٣٥٤هـ، انظر الأعلام ١٢٦/٦، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ص(١٨٢).

الله ورسوله عمداً ولاسيما بعد دعوته إليه وتذكيره به، فإنه يكون منافقاً لا يعتد بما يزعمه من الإيمان، وما يدعيه من الإسلام"[(١)].

٤) تسمية الذين يحكمون بغير شرع الله كافرين، وظالمين، وفاسقين، وفي هذا تشنيع عليهم وترهيب لهم، وتنفير من فعلهم - ويأتي الكلام على حُكْم مَن حَكَم بغير شرع الله - وأما الآيات التي ورد تسميتهم فيها بالكفر والظلم والفسق فهي: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] [(٢)].

٥) الاستفهام الإنكاري، كما قال - تعالى -: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فالاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، والمعنى: كيف يعرضون عن حكم الله الذي أنزله على رسوله ﷺ ويطلبون حكم الجاهلية الفاسدة، مع أنه لا أحد أحسن حكماً من الله -تعالى- عند أهل اليقين والهدى [(٣)].

---

(١) تفسير المنار ٥/٢٢٧.

(٢) انظر أقوال العلماء في تفسير هذه الآيات في الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ١/٢٥٣.

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني ٢/٧١.

أقسام شرك الطاعة:

يمكن تقسيم شرك الطاعة إلى قسمين أساسين، وإن كان كل واحد منهما فرعاً عن الآخر.

القسم الأول: طاعة غير الله في التحريم والتحليل، وهذا شرك أكبر مخرج من الملة، وقد تقدمت الأدلة على ذلك، ومنها آية التوبة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد فسرها النبي ﷺ بأنها الطاعة في التحريم والتحليل كما في حديث عدي بن حاتم المتقدم[1].

لكن إن أطاع الإنسان مخلوقاً في تحريم حلال أو تحليل حرام مع اعتقاده تحريم ذلك، وأنه لا يجوز له أن يتعدى حدود الله، وأن هذا المخلوق ليس له حق في التحريم والتحليل، وإنما أطاعه لشهوة في نفسه معترفاً أنه عاص لله في هذه الطاعة، فليس هذا من الشرك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعوهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً...

---

(١) انظر ص(١١٣).

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحلال وتحريم الحرام ثابتاً [(١)]، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب"[(٢)].

القسم الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله.

الحكم بغير ما أنزل الله إما يكون كفراً أكبر مخرجاً عن ملة الإسلام، وإما أن يكون كفراً أصغر لا يخرج عن الملة ؛ فأمّا النوع الأول - وهو المخرج عن الملة - فله عدة صور:

الأولى: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله - تعالى - ورسوله ﷺ.

الثانية: أن يعتقد أن حكم غير الله - تعالى - أفضل من حكمه، وأتم، وأشمل لحاجات الناس، وسواء كان هذا التفضيل مطلقاً، أو مقيداً فيما استجد من الحوادث.

الثالثة: أن يعتقد أن حكم غير الله - تعالى - مساوٍ لحكم الله ورسوله ﷺ.

الرابعة: أن يعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، وإن اعتقد أن حكم الله ورسوله ﷺ أفضل، لكن لم ير وجوبه.

---

(١) وفي المطبوع: "أن يكون اعتقادهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتاً"، وهو تصحيف أو خطأ مطبعي قطعاً.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٧٠، وانظر القول المفيد ٢/٢٦٤.

الخامسة: إنشاء المحاكم الوضعية التي تحكم بالقوانين المستمدة من الشرائع الوضعية كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها.

السادسة: ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم، من حكايات آبائهم وأجدادهم.

السابعة: من لم يحكم بما أنزل الله – تعالى – إباءً وامتناعاً، وإن لم يجحده أو يكذّبه.

أما **النوع الثاني** من الحكم بغير ما أنزل الله، فهو كفر أصغر لا يخرج من الملة، وهو ما إذا حكم الحاكم بقضية ما بغير ما أنزل الله، مع اعتقاده وجوب الحكم بما أنزل الله، وأن حكمه في هذه القضية خطأ وضلال، لكن إن استمر على الحكم بغير ما أنزل الله، وداوم على ذلك فإنه يكون كفراً أكبر، لأن ذلك يعتبر إباءً ورفضاً للشريعة كما سبق.

هذا حكم الحاكم بغير ما أنزل الله، أما المحكوم بغير ما أنزل الله، فإن كان قابلاً لذلك راضياً به فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً عن الملة، أمّا من اضطر إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله لتخليص حقوقه، التي لا يمكن أن يحصل عليها إلا عن طريق ذلك فإنه لا يكفر بذلك، بل يكون حكمه حكم المضطر، لكن عليه أن ينكر ذلك بحسب استطاعته، ولا أقل من الإنكار بالقلب بالبغض والكراهة[1].

---

(١) باختصار وتصرف من رسالة تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم ص(١٦-٢٤)، وكتاب نواقض الإسلام القولية والعملية ص(٣١١) وما بعدها، وضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة، لعبد الله القرني ص(١٧٤).

مظاهر الشرك في الطاعة:

الشرك في الطاعة له مظاهر كثيرة وصور مختلفة، فمنها: طاعة أهل البدع والضلال فيما أحدثوه، وشرّعوه من الأمور المخالفة للكتاب والسنة، وقد اغتر كثير من المسلمين بأناس من الجهلة المضلين - ظنوا فيهم العلم - حسنوا لهم البدع والشرك فأطاعوهم في ذلك [١]، وقد تقدم الكلام على هذا الأمر في مبحث التقليد في الفصل الأول [٢].

ومن مظاهر الشرك في الطاعة التقليد الأعمى للعلماء والفقهاء، فقد ابتلي كثير من المسلمين - مع الأسف الشديد - بالتقليد الأعمى لبعض العلماء، حيث ترى الواحد منهم لا يحيد قيد أنملة عن قول إمامه ؛ حتى وإن ظهر له أنه مخالف للكتاب والسنة، وقد ثبت عن الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - رحمهم الله تعالى - أنهم دعوا إلى الأخذ بالكتاب والسنة، وطرح آرائهم المخالفة لهما [٣]، ولكن الجهل والهوى يعمي ويصمُّ.

يقول ابن عباس - رضي الله عنهما -"يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبوبكر وعمر"[٤].

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٤١٧).

(٢) انظر ص(٣٧).

(٣) انظر صفة الصلاة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ص(٢٣).

(٤) ذكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد ولم يعزه لأحد، انظر فتح المجيد ص(٣٢٠) وقد أخرجه أحمد بنحوه ٣٣٧/١، وحسنه ابن مفلح في الآداب الشرعية ٧٤/٢، وانظر تخريج كتاب أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد ص(٨٩).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب[١] تعليقاً على هذ الأثر: فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر، وهما: هما، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذي ينتسب إليه، ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة فما وافقه قبله وما خالفه رده، أو تأوله، فالله المستعان"[٢].

ويقول الشوكاني[٣] في تفسيره لقوله - تعالى -: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ... الآية، [التوبة: ٣١]: "إن طاعة المتمذهب لمن يُقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقمت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا، وهذا صنيع المقلدين من هذه الأمة"[٤].

---

(١) هو الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، من أئمة الدعوة السلفية في نجد، اشتغل بالعلم والتدريس، وبرع في علم الحديث، من مؤلفاته: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، توفي مقتولاً عام ١٢٣٣هـ، انظر علماء نجد ٢٩٣/١، والأعلام ١٢٩/٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص(٤١١).

(٣) هو الإمام العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فقيه مجتهد، من كبار علماء اليمن، من مصنفاته تفسيره: فتح القدير، ونيل الأوطار والسيل الجرار وغيرها، توفي عام ١٢٥٠هـ، انظر الأعلام ٢٩٨/٦، ومعجم المؤلفين ٥٣/١١.

(٤) فتح القدير للشوكاني ٤٩٦/٢.

ومن مظاهر الشرك في الطاعة: الحكم بغير ما أنزل الله كما تقدم، وقد انتشر في هذا المظهر الخطير عند كثير من المسلمين، لاسيما في هذا الزمان، حيث نبذوا شرع الله، وحكّموا أهواءهم الفاسدة، والقوانين الطاغوتية الوضعية، مما تسبب في ضعفهم، وتسلط الأعداء عليهم، وحلول البلايا والمحن في ديارهم.

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم[١] - وهو يتحدث عن الصور التي يكون فيها الحكم بغير ما أنزل الله مخرجاً عن الملة-: "الخامس: هو أعظمها وأشملها وأظهرها: معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية، إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً، وتفريعاً، وتشكيلاً، وتنويعاً، وحكماً وإلزاماً، ومراجع ومستندات.

فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع، هي: القانون الملفّق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.

فهذه المحاكم في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة

---

(١) هو الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مفتي الديار السعودية سابقاً، اشتغل بالتعليم والقضاء، له رسائل وفتاوى كثيرة، توفي عام ١٣٨٩هـ، انظر علماء نجد ١/٨٨.

والكتاب من أحكام القانون، وتلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة؟ [١].

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: "وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السموات والأرض، فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنه يلزم استواؤهما في الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان ونحو ذلك.

فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها، وهو أعلم بمصالحها - سبحانه وتعالى - عن أن يكون معه مشرع آخر علواً كبيراً"[٢].

ويقول الشيخ أحمد شاكر[٣] في تعليقه على قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]: "ومما يملأ النفس ألماً

---

(١) رسالة تحكيم القوانين ص(٢٠).

(٢) أضواء البيان ٩٣/٤.

(٣) هو العلامة أحمد بن محمد شاكر المصري، من كبار علماء الحديث في هذا العصر، خدم السنة خدمة كبيرة، تولى القضاء، ثم تفرغ للبحث والتأليف، توفي عام ١٣٧٧هـ، انظر الأعلام ٢٥٣/١، ومعجم المؤلفين ٣٦٨/١٣.

وحزناً: أنْ صار أكثر الأمم التي تنتسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه، ووقعوا في مثل هذا العمل الذي ذم الله اليهود من أجله، وجعل جزاء من يفعله خزياً في الحياة الدنيا وردّاً في الأخرى إلى أشد العذاب، فترى أكثر الأمم المنتسبة للإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعرفونه، ويزعمون القيام بأمره، ثم هم يخالفونه في التشريع في شؤونهم المالية والجنائية والخلقية، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعه وتشريع رسول الله في سننه لا يوافق هذا العصر،! ويجعلون من حقهم أن يشرعوا ما شاؤا، وافق الكتاب والسنة أم خالفه ! ويصطنعون قوانين أوْرُبَّة الوثنية الملحدة، ويشربونها في قلوبهم، يزعمونها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم، ولا يتعظون بما أنذرهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم"[١].

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لأحمد شاكر ١٧٥/١، وانظر عمدة التفسير أيضاً ٢١٤/٣، ١٧٢/٤.

المطلب الثاني: السحـــر

تعريف السحر:

السحر لغة: الأُخْذَة، وكل ما لَطُفَ مأخذه ودقَّ، وأصل السحر، صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، ويطلق السحر أيضاً على الخديعة، والفساد، وحسن البيان [١].

واصطلاحاً: اختلف فيه العلماء فمنهم من عرفه، ومنهم من ذهب إلى أنه لا يمكن تعريفه بتعريف معين، نظراً لكثرة أنواعه، واختلافها بحيث لا يمكن جمعها في تعريف واحد.

يقول الشنقيطي: "اعلم أن السحر في الاصطلاح لا يمكن حده بحد جامع مانع، لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعاً لها مانعاً لغيرها، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حده اختلافاً متبايناً"[٢].

وممن عرفه ابن قدامة[٣] في المغنى حيث قال: "هو عُقَد ورُقَى وكلام يتكلم به، أو يكتبه، أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه، أو عقله من غير مباشرة له"[٤].

---

(١) انظر لسان العرب ١٩٥١/٤، ومختار الصحاح ص(١٢٠).

(٢) أضواء البيان ٤٨٢/٤.

(٣) هو الإمام العلامة موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي ثم الدمشقي، من أئمة الحنابلة، من مصنفاته: المغنى والمقنع وروضة الناظر وغيرها، توفي عام ٦٢٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٦٥/٢٢، والبداية والنهاية ٩٩/١٣.

(٤) المغني لابن قدامة ٢٩٩/١٢.

حكم السحر:

والسحر من أنواع الشرك ؛ لقوله ﷺ: ((من عقد عُقدةً ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وُكل عليه))، أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -[١]، ووجه كونه شركاً: أنه لا يتأتى في الغالب إلا بالشرك [٢].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: "السحر يدخل في الشرك من جهتين:

من جهة ما فيه من استخدام الشياطين، ومن التعلق بهم، وربما تقرب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه.

ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب، ودعوى مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر"[٣].

والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وسيأتي ذكر الأدلة على تحريمه من القرآن، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)) [٤].

---

(١) أخرجه النسائي ١١٢/٧ ح(٤٠٤٩)، والطبراني في الأوسط ١٣٧/٢ ح(١٤٩٢)، وحسنه ابن مفلح في الآداب الشرعية ٨٢/٣، واحتج به ابن كثير في تفسيره ١٤٩/١، وضعفه الذهبي في ميزان الاعتدال ٣٧٨/٢، والألباني في ضعيف النسائي ص(١٦٣) ح(٢٧٦).

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد ص(١٨١).

(٣) القول السديد ص(٩٣)، وانظر حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(١٨٦).

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٣/٥ ح(٢٧٦٦)، ومسلم ٩٢/١ ح(١٤٥).

قال ابن قدامة: "إن تعلم السحر وتعليمه حرام، لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم"[١].

وقال النووي: "عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع"[٢].

وقد اختلف العلماء في تكفير الساحر، فذهب الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك وأحمد - في رواية - إلى تكفيره، إلا أن بعض أصحاب أبي حنيفة قال: إن تعلمه ليتقيه ويتجنبه فإنه لا يكفر بذلك، وقال الشافعي: إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، أو اعتقد جوازه - وإن لم يوجب الكفر - فإنه يكفر بذلك، وإلا فلا [٣].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: "وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف، فإن من لم يكفِّر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك، وليس كذلك بل لا يتأتى السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشيطان والكواكب، ولهذا سماه الله كفراً في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر، وإن سمى سحراً فعلى سبيل المجاز، كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً، ولكنه يكون حراماً لمضرته،

---

(١) المغني ٣٠٠/٢.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧٦/١٤.

(٣) انظر الإفصاح عن معاني الصحاح لابن هبيرة ٢٢٦/٢، والمغني لابن قدامة ٣٠٠/١٢، وتفسير القرطبي ٣٣/٢، وأحكام القرآن للجصاص ٦١/١، ونواقض الإسلام القولية والعملية ص(٥٠٥).

يعزر من فعله تعزيراً بليغاً"[١].

وقال الشنقيطي: "التحقيق في هذه المسألة - إن شاء الله - هو التفصيل ؛ فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع، وإن كان السحر لا يقتضي الكفر كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها فهو حرام حرمة شديدة، ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر"[٢].

وقال النووي: "قد يكون - يعني السحر - كفراً، وقد لا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام، فإن تضمن ما يقتضي الكفر كفر وإلا فلا، وإذا لم يكن ما يقتضي الكفر عزِّر"[٣].

أساليب القرآن الكريم في التحذير من السحر:

ذكر الله - تعالى - السحر في القرآن الكريم، فذمه وحذر منه، وتوعد أهله، أوضح ذلك بأساليب متنوعة، منها:

١) الإخبار بأن الساحر كافر، كما قال - تعالى -: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ

(١) تيسير العزيز الحميد ص(٢٨٣) باختصار.

(٢) أضواء البيان ٤/٤٩٤ باختصار.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٧٦.

وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣].

فقد دلت هاتان الآيتان على كفر الساحر من وجوه:

أ) قوله – تعالى –: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ ﴾ فيه تبرئة من الله –تعالى– لنبيه سليمان ﷺ من الكفر، مع أنه لم يتقدم في الآيات السابقة أن أحداً نسبه إلى الكفر، وإنما الوارد اتهامه بالسحر كما في بعض الآثار، فدل ذلك على أن السحر كفر [1].

ب) في قوله – تعالى –: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾أثبت – سبحانه – كفر الشياطين بسبب تعليمهم السحر [2].

جـ) بيَّن – تعالى – في قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ أن تعلم السحر كفر [3].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١/٤٩٣، وتفسير ابن عطية ١/٤٠٦.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢/٣١، ومعارج القبول ١/٣٣٣.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٢/٣١، ومعارج القبول ١/٣٣٣.

قال الشوكاني: "في قولهما ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أبلغ إنذار وأعظم تحـــذير، أي إن هذا ذنب يكون من فعله كافراً فلا تكفر، وفيه دليل على أن تعلم الســـحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد، وبين من تعلمـــه ليكـــون ساحراً وبين من تعلمه ليقدر على دفعه"[(١)]

د) حكم - تعالى - على من أحب السحر وآثره على وحيه واستبدله به بأنه ليس له في الآخرة من نصيب [(٢)].

يقول الشيخ حافظ الحكمي[(٣)]: "وهذا الوعيد - يعني قولـــه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ - لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه، فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة، وكفى بدخول الجنة خلاقـــاً، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة"[(٤)].

هـــ) في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ دليل على أنهم بتعلمهم السحر كفروا، لأنه - تعالى - نفى عنهم الإيمان.

---

(١) فتح القدير ١٧٨/١، وانظر معارج القبول ٣٣٣/١.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٥١٠/١، وتفسير ابن كثير ١٤٨/١.

(٣) هو الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، ولد ونشأ في منطقة جيزان جنوب المملكة العربية السعودية، وتتلمذ على الشيخ عبدالله القرعاوي النجدي، فبرع وفاق الأقران، واشتغل بالتدريس والتأليف، من مصنفاته: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، توفي بمكة بعد الحـــج عـــام ١٣٧٧هـــ، انظر الأعلام ١٥٩/٢، ومشاهير علماء نجد ص(٤٤١).

(٤) معارج القبول ٣٣٤/١.

قال ابن كثير: "وقد استدل بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر"[١].

وقال الجصاص الحنفي[٢] عند هذه الآية: "فجعل ضد الإيمان فعل السحر، لأنه جعل الإيمان في مقابلة فعل السحر، وهذا يدل على أن الساحر كافر"[٣].

٢) ومن أساليب القرآن الكريم في التحذير من السحر: نَفْيُ الفلاح عن الساحر، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩].

يقول الشنقيطي: "اعلم أن قوله - تعالى - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ ﴾ الآية، يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ ﴾، وذلك دليل على كفره، لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفياً عاماً إلا عمن لا خير فيه، وهو الكافر"[٤].

ويقول القرطبي عند هذه الآية: "أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض، وقيل: حيث احتال"[٥].

٣) الأمر بالاستعاذة من السحر، كما قال - تعالى -: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٤٨.

(٢) هو أحمد بن علي الرازي الحنفي، المعروف بالجصّاص، من فقهاء الحنفية، من تصانيفه: أحكام القرآن، توفي عام ٣٧٠هـ في بغداد، انظر الأعلام ١/١٧١، ومعجم المؤلفين ٢/٧.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ١/٦٥، وانظر معارج القبول ١/٣٣٤.

(٤) أضواء البيان ٤/٤٧٩.

(٥) تفسير القرطبي ١١/١٤٩.

ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [سورة الفلق].

والشاهد من هذه السورة قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾، فإن المراد بها الاستعاذة من شر السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يسحرن بها [(١)].

قال ابن القيم وهو يذكر الشرور المستعاذ منها في هذه السورة: "الشر الثالث: شر النفاثات في العقد، وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر، والنفث هو النفخ مع ريق، وهو دون التفل، وهو مرتبة بينهما، والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقدة نفخاً معه ريق فيخرج من نفسه الخبيثة نَفَس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي، والمراد بالنفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير، والله أعلم"[(٢)].

(١) انظر تفسير ابن جرير ٧٥٠/١٢، وتفسير ابن كثير ٦١٤/٤، وفتح القدير ٧٥٩/٥.

(٢) بدائع الفوائد ٣٦١/٢ بتصرف يسير.

٤) وصف السحر بالفساد والبطلان، كما قال - تعالى -: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، أي إن هذا الذي جئتم به أيها السحرة هو السحر بعينه، ولكن الله - تعالى - سيمحقه ويذهبه ؛ لأنه فساد في الأرض، والله - تعالى - لا يحب الفساد ولا يبقيه، بل يسحقه ويفنيه[(١)].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي عند هذه الآية: "وهكذا كل مفسد عمل عملاً، واحتال كيداً، أو أتى بمكر فإن عمله سيبطل ويضمحل وإن حصل لعمله رواج في وقت ما، فإن مآله الاضمحلال والمحق.

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله - تعالى -، وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها وينميها على الدوام"[(٢)].

أنواع السحر، وآثاره، وعلاجه:

السحر له أنواع متعددة، وصور متنوعة، قديماً وحديثاً، ولا حاجة لذكرها ههنا [(٣)]، كما أن له آثاراً كثيرة، فمنه ما يقتل، ومنه ما يَمْرُض، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، ومنه ما يأخذ بالعقول، ومنه ما يأخذ بالأبصار [(٤)].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٩٠/٦، وفتح القدير ٦٥١/٢، والتفسير المنير ٢٤١/١٢.

(٢) تفسير السعدي ٣٨٠/٣.

(٣) انظر تفسير الرازي ١٨٧/٤، وعالم السحر والشعوذة لعمر الأشقر ص(١٠٢) وما بعدها.

(٤) انظر معارج القبول ٣٢٧/١.

وأما علاجه المشروع فيكون بالطرق التالية:

١) استخراج السحر وإبطاله، وذلك بأن يدعو الإنسان المسحور الله - تعالى - أن يدله على مكان السحر، وإن كان المسحور مصروعاً فإنه يقرأ عليه حتى ينطق الجني المتلبس به ويخبر عن مكان وجود السحر.

٢) الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر، وذلك عن طريق الحجامة.

٣) الرقية الشرعية، وذلك بالقراءة على المسحور بما ورد من الآيات القرآنية، والأذكار والأدعية النبوية [(١)].

وقد انتشر السحر في كثير من بلاد المسلمين - مع الأسف الشديد - بسبب ضعف الإيمان في قلوب الناس، وبعدهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، وأخذ كثير ممن أصيبوا بالسحر يترددون على السحرة والدجاجلة والمشعوذين، ينشدون عندهم الشفاء ويسألونهم كشف ما حل بهم من البلوى، فإلى الله المشتكى، وبه - سبحانه - الملتجأ.

حد الساحر:

حد الساحر القتل، روى ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبدالله، وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم، وهو قول أبي حنيفة، ومالك، وأحمد [(٢)].

---

(١) انظر الطب النبوى لابن القيم في زاد المعاد ١٢٤/٤ وما بعدها، وكتاب فتح الحق المبين في علاج الصرع والسحر والعين للدكتور عبدالله الطيار ص(١٧٤).

(٢) المغني لابن قدامة ٣٠٢/١٢، وأحكام القرآن للجصاص ٦١/١.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أكثر العلماء على أن الساحر كافر، يجب قتله، وقد ثبت قتل الساحر عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وحفصة بنت عمر، وعبدالله بن عمر، وجندب بن عبدالله، وقد روي ذلك مرفوعاً عنه عن النبي ﷺ"(١).

وحسبي في هذا المقام أن أذكر أثراً واحداً من هذه الآثار وهو ما ورد عن عمر – رضي الله عنه –، فعن بَجَالَة بن عَبدَة(٢) قال: "أتانا كتاب عمر قبل موته بسنة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ...، فقتلنا ثلاثة(٣) سواحر"(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٨٤/٢٩.

(٢) هو بجالة بن عبْدَة التميمي البصري، كاتب جزء بن معاوية عامل عمر، ثقة، من كبار التابعين، انظر التقريب ص(١٢٠)، والتهذيب ٤١٧/١.

(٣) هكذا عند أحمد وأبي داود، وعند عبد الرزاق وغيره"ثلاث"، وهو الموافق لقواعد اللغة. انظر مصنف عبد الرزاق ١٨٠/١٠.

(٤) أخرجه أحمد ١٩٠/١، وأبو داود ٤٣١/٣ ح(٣٠٤٣)، وصححه ابن حزم في المحلى ٣٩٦/١١.

المبحث الثالث: مظاهر الشرك القولية في ضوء القرآن الكريم

المطلب الأول: شرك الدعاء :

الدعاء[١] له مترلة كبيرة، ومكانة عظيمة في دين الإسلام ؛ فهو من أعظم أنواع العبادة، بل هو العبادة كلها [٢]، وهو الدِّين كما سماه الله – تعالى – في القرآن في غير ما آية، قال – تعالى –: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، أي مخلصين له الدعاء[٣]، ولذلك اعتنى القرآن الكريم

---

(١) الدعاء لغة: السؤال والطلب، ويطلق أيضاً على العبادة، والنداء والاستعانة، والاستغاثة، والتَّسمية والاستعلام وغيرها، انظر لسان العرب ١٣٨٥/٣، وبصائر ذوي التمييز ٦٠٠/٢، والمفردات ص(٣١٥)، وقال ابن العربي: "الدعاء في اللغة والحقيقة هو الطلب"أحكام القرآن ٨١٥/٢.
وشرعاً عرفه الخطابي بقوله: "معنى الدعاء: استدعاء العبد ربه ـ عز وجل ـ العناية به، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة"، شأن الدعاء للخطابي ص(٤).
وعرفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن بقوله: "هو السؤال والطلب رغبة أو رهبة أو مجموعهما"، القول الفصل النفيس في الرد على المفترى داود بن جرجيس ص(٤٧).

(٢) كما في حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول: ((إن الدعاء هو العبادة))، ثم قرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، أخرجه أحمد ٢٦٧/٤، وأبوداود ١٦١/٢ ح(١٤٧٩)، والترمذي ٤٢٦/٥ ح(٣٣٧٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه ١٢٥٨/٢ ح(٣٨٢٨)، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي ٤٩١/١، وقال ابن حجر في الفتح: أخرجه أصحاب السنن بسند جيد ٤٩/١.

(٣) انظر: زاد المسير ١٣٩/٦.

بشأن الدعاء عناية كبيرة، وأولاه أهمية فريدة، حتى إنه افتتح بالدعاء واختتم بـه، حيث أُفتتح بسورة الفاتحة واختتم بسورة الناس المشتملتين على الدعاء (١).

ولما كان الدعاء في دين الإسلام بهذه المترلة كان صرفه لغير الله من أعظم أنواع الشرك وأخطرها وأشدها قبحاً، ولا غَرْوَ(٢) في ذلك فهو أصل شرك العالم (٣)، وهو أعظم أمر خالف فيه رسول الله ﷺ المشركين (٤)، وهو أكثر أنواع الشرك شيوعاً وانتشاراً بين الناس في كل زمان ومكان.

الآيات الدالة على أن دعاء غير الله – تعالى– شرك:

وردت آيات عديدة تدل على أن دعاء غير الله شرك، فمنها قوله -تعالى-: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠ -٤١].

ففي هاتين الآيتين يأمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يقول للمشركين المعاندين أخبروني(٥) عن حالكم حينما يترل بكم عذاب الله الذي حل بالأمم

---

(١) انظر الفتاوى ١٦/٤٧٨.

(٢) لا غرو: أي لا عجب، مختار الصحاح ص(١٩٨).

(٣) انظر مدارج السالكين ١/٣٧٥.

(٤) انظر مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبدالوهاب ضمن مجموعة التوحيد ص(٢٢٦).

(٥) قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ هذا تركيب مستعمل مشهور عند العرب، يستفتح به الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به، والهمزة فيه للاستفهام التقريري، ورأى فعل ماض مبني على السكون، والتاء تاء الخطاب في محل رفع فاعل، ولكنها تلازم حركة واحدة وهي الفتحة في جميع الأحوال
==

السابقة، أو تأتيكم القيامة بأهوالها وخزيها ونكالها في هذه الحالة هل تدعون أصنامكم الباطلة أم تدعون الله والواحد القهار؟ لا شك أنكم في مثل هذه الأحوال العصيبة ستخلصون الدعاء لله - تعالى - وتنسون ما كنتم تدعونه في وقت الرخاء من الأنداد والشركاء، فما هو الذي يحملكم على الشرك في وقت الرخاء إذا كنتم تعلمون أن من تشركون به لا يملك لكم نفعاً عندما تحتاجون إليه، هل عندكم برهان على ذلك أم هو الكفر والضلال؟ [(١)].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب أيضاً قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣ -٦٤].

وهاتان الآيتان بمعنى الآيتين السابقتين، حيث يذكر الله - تعالى - فيهما حال المشركين وأنهم في حال الشدة يخلصون الدعاء لله، وفي حال الرخاء والأمن والسلامة يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك وذلك بدعائهم غير الله.

==

سواء كان المخاطب مفرداً أو جمعاً مذكراً أو مؤنثاً، والكاف حرف خطاب والميم للجمع، والمفعول الأول لـ"رأى"محذوف تقديره"أرأيتم إياه"أي العذاب، أو"أرأيتكم عذاب الله"، والمفعول الثاني هو الجملة الاستفهامية"أغير الله تدعون"، وجملة"إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة"شرطية معترضة بين مفعولي الرؤية لا محل لها من الإعراب، ومعنى"أرأيتكم"في هذا السياق: أخبروني، انظر معاني القرآن للفراء ٣٣٣/١، والمفردات ص(٣٧٤)، والبحر المحيط ١٢٤/٤، والفتوحات الإلهية للجمل ٢٧/٢، وإعراب القرآن وبيانه ١٠٩/٣، والتحرير والتنوير ٢٢١/٧.

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٣٧/٢، والسعدي ٣٩٨/٢، والتفسير المنير ١٩٩/٧.

قال ابن كثير: "يقول - تعالى - ممتناً على عباده في إنجائه المضطر منهم من ظلمات البر والبحر أي الحائرين الواقعين في المهامة[(١)] البرَّيَّة وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذٍ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾الآية، [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل: ٦٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾أي جهراً[(٢)] وسراً ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾أي من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾أي بعدها، قال الله ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ﴾بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ أي تدعون معه في حال الرفاهية[(٣)] آلهة أخرى [(٤)].

---

(١) المهامة: المفازة البعيدة، مختار الصحاح ص(٢٦٦).

(٢) أي جهراً بالضراعة وهي الضعف والذل، انظر المفردات ص(٥٠٦).

(٣) تفسير ابن كثير ٢/١٤٤.

(٤) الرفاهية: سعة العيش، مختار الصحاح ص(١٠٦).

ومما يدل على أن صرف الدعاء لغير الله شرك قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣ -٥٤].

ففي هاتين الآيتين تقرير لما سبق بيانه في الآيات المتقدمة حيث يخبر الله - تعالى - فيهما أنه هو المتفضل بالنعم جميعها ظاهرها وباطنها، وأن أهل الشرك حينما يترل بهم الكرب ويشتد عليهم الأمر، ويحل بهم البلاء يبادرون إلى الالتجاء بالله وحده، ويفردونه بالدعاء والتضرع والرغبة لعلمهم أنه لا يقدر على كشف الضر عنهم غيره - سبحانه -، فإذا أنجاهم من الشدة وكشف ما بهم من الضر عادوا إلى الشرك فدعوا غيره، والتجؤوا إلى من سواه [(١)].

يقول الرازي[(٢)] عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ : "فبين - تعالى - أن عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون ؛ ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضُّر في أن لا يفزع إلا إلى الله - تعالى -، وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره، وهذا جهل وضلال، لأنه لما شهدت فطرته الأصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفزع إلا إلى الواحد، ولا

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٩٣/٢، والسعدي ٤١٠/٤.

(٢) هو أبوعبدالله محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري، الرازي، الشافعي، فقيه أصولي متكلم مفسر، من تصانيفه تفسيره الكبير: مفاتيح الغيب، والمحصول في علم الأصول، توفي في هراة عام ٦٠٦هـ، انظر طبقات المفسرين ٢١٣/٢، والأعلام ٣١٣/٦.

مستغاث إلا الواحد، فعند زوال البلاء والضراء وجب أن يبقى على ذلك الاعتقاد، فأما عند نزول البلاء يقر بأنه لا مستغاث إلا الله - تعالى -، وعند زوال البلاء يثبت الأضداد والشركاء، فهذا جهل عظيم وضلال كامل"[١].

ومثل هذه الآيات قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

ففي هذه الآية يخبر - تعالى - عن جوده وكرمه وإحسانه بعبده مع قلة شكر العبد له، وأن المشرك الكافر يلجأ إلى الله ويتضرع إليه وينيب ويخلص له الدعاء حينما يصاب بكُربة من مرض، أو فقر، أو وقوع في محنة، وذلك لأنه يعلم أنه لا ينجيه في هذه الحال إلا الله، ثم إذا منّ الله عليه بالعافية وتفضل عليه بالنعم نكص[٢] على عقبيه، ونسي ذلك الضر الذي دعا الله - تعالى - أن يكشفه عنه، ورجع إلى الإشراك بالله ودُعاءِ غيره من الأنداد والشركاء، فضل بنفسه وأضل غيره، وفي ختام الآية يتوعد الله - تعالى - هذا المشرك الذي بدل نعمة الله كفراً بالنار وبئس القرار، وأنه لن ينفعه ما بيده من متاع الدنيا الزائل، ولا يغني عنه من عذاب الله من شيء[٣].

---

(١) تفسير الرازي ٤٢/٢٠.

(٢) نكص: أحجم ورجع، مختار الصحاح ص(٢٨٣).

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٦١٨/١٠، وابن كثير ٥١/٤، والسعدي ٤٥٢/٦.

أقسام الدعاء في القرآن الكريم:

ينقسم الدعاء - باعتبار معناه[١] - في القرآن الكريم إلى قسمين:

الأول: دعاء المسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه [٢]، وتقدم بيان ما قاله العلماء في معناه وحقيقته في أول هذا المبحث.

الثاني: دعاء العبادة: وهو الثناء على الله - تعالى -، وامتثال أمره واجتناب نهيه، والتعبد له بأنواع العبادات، ووجه كون هذا دعاءً ؛ أن العابد إنما يريد بعبادته الفوز بمرضاة الله وجنته، والنجاة من عقوبته وناره، فهو في الحقيقة سائل وإن لم يأت بلفظ السؤال [٣].

وكلا نوعي الدعاء متلازمان ؛ يدل أحدهما على الآخر، فإذا أريد المسألة والطلب دل على العبادة بطريق التضمن [٤]، لأن الدعاء نفسه عبادة لما يشتمل عليه من الرغبة والتضرع والذل لله.

وإذا أريد به دعاء العبادة فإنه يدل على دعاء المسألة بطريق الالتزام [٥]، لأن العابد لله - تعالى - هو في الحقيقة سائل وإن لم بأن بلفظ السؤال فهو يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، لأنه إنما يعبدالله خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه لا يخلو من ذلك [٦].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٥، وبدائع الفوائد ٣/٣.

(٢) وينقسم إلى تقسيمات أخرى باعتبارات أخرى، انظر رسالة الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية لجيلان بن خضر العروسي ١٠٥/١.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٣٧/١٠، وبدائع الفوائد ٣/٣، والشرك الأكبر ٢٦٢/١.

(٤) دلالة التضمن: هي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له، إرشاد الفحول للشوكاني ص(١٧).

(٥) دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على أمر خارج عما وضع له، انظر المرجع السابق.

(٦) انظر مجموع الفتاوى ١٥/١٠-١١، بدائع الفوائد ٤/٣، الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ١١٥/١.

وقد ورد إطلاق الدعاء في القرآن على ثلاثة أوجه: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، وعلى مجموعهما [(١)].

فمن الآيات الواردة في إطلاقه على دعاء المسألة ما يلي:

١) قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

٢) قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[يونس: ١٢].

٣) قوله - تعالى -: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

٤) قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩].

فالمراد بالدعاء في هذه الآيات وأمثالها دعاء المسألة، كما هو ظاهر من حال الداعي.

ومن الآيات الواردة في إطلاقه على دعاء العبادة:

١) قوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/١٠، انظر بدائع الفوائد ٣/٣.

٢) قوله - تعالى -: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨ - ٤٩].

فالمراد بالدعاء في الآية الأولى: دعاء العبادة، ومما يؤكد ذلك، التعبير عنه بلفظ العبادة في نفس السياق.

٣) قوله - تعالى -: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥].

قال البغوي[(١)]: ﴿أَتَدْعُونَ﴾: "أتعبدون"[(٢)].

٤) قوله - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

قال ابن الجوزي[(٣)]: "والمعنى: وأن ما يعبدون"[(٤)].

---

(١) هو الإمام أبومحمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي، الملقب بمحي السنة، فقيه محدث مفسر، من تصانيفه: تفسيره معالم التفسير، وشرع السنة، توفي عام ٥١٠هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ١/١٥٧، والأعلام ٢/٢٥٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/٤١.

(٣) هو الإمام العلامة أبوالفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، الحنبلي، الحافظ المفسر الواعظ، له تصانيف كثيرة منها تفسيره: زاد المسير، والمنتظم في التاريخ، والموضوعات وغيرها، توفي عام ٥٩٧هـ في بغداد، انظر الأعلام ٣/٣١٦، وسير أعلام النبلاء ٢١/٣٦٥.

(٤) زاد المسير ٦/٣٠٥.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكل موضع ذُكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر ؛ لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم.

الثاني: أن الله – تعالى – فسر هذا الدعاء في موضع آخر، كقوله – تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢]، وقوله – تعالى –: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله – تعالى –: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم.

الثالث: أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء، فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة"[1].

ومن الآيات الواردة في إطلاقه على مجموع الأمرين:

١) قوله – تعالى –: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فقد فسرت هذه الآية بنوعي الدعاء ؛ دعاء العبادة، ودعاء المسألة [2].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/١٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢/١٦٤-١٦٧، وتفسير القرطبي ٢/٢٠١.

٢) قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

قال البغوي في معنى الآية: "أي اعبدوني دون غيري أجبكم وأثبكم وأغفر لكم، فلما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة، ثم ذكر حديث النعمان ابن بشير - وقد تقدم ذكره -[١]، ثم قال: "وقيل: الدعاء: هو الذكر والسؤال"[٢].

٣) قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

قيل: المعنى: ما يبالي الله بكم ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه، وقيل المعنى: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد [٣].

والأرجح - كما ذكر شيخ الإسلام - أن يحمل الدعاء في هذه الآيات ونحوها على المعنيين جميعاً ؛ دعاء العبادة، ودعاء المسألة، وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً [٤].

---

(١) انظر ص(١٣٦).

(٢)تفسير البغوي ٤/١٠٣.

(٣) تفسير ابن عطية ١٢/٤٦.

(٤) مجموع الفتاوى ١٥/١١.

أساليب القرآن الكريم في التحذير من الشرك في الدعاء:

لقد نهى القرآن الكريم عن دعاء غير الله وحذر منه، وذم أصحابه وتوعدهم، وذلك بأساليب متنوعة منها:

١) النهي الصريح، كما قال – تعالى –: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وفي توجيه النهي للنبي ﷺ مع أنه أكمل الخلق إيماناً وأبعدهم من الوقوع فيه، بل هو المعصوم منه، تنبيه على قبح الشرك وشناعته وعظم جرمه.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم كل أحد كائناً من كان.

٢) الأمر بإخلاص الدعاء لله وحده، ومن المعلوم أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، ومما ورد في ذلك قوله – تعالى –: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وتقدم أن الله – تعالى – سمى الدعاء في القرآن ديناً [١].

٣) بيان عجز المدعوين من دون الله عن إجابة من دعاهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

---

(١) انظر الدر المنثور ١٤٣/٣، وأكثر المفسرين على أن المراد بالدين في هاتين الآيتين العبادة، وقد تقدم أن الدعاء قسمان ؛ دعاء عبادة ودعاء مسألة، وأنهما متلازمان، وأن الدعاء الذي هو بمعنى السؤال والطلب أعظم أنواع العبادة.

كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٨٨].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦].

ففي هاتين الآيتين يبيّن الله - تعالى - حال المدعوين من دونه، وأهم لا يستطيعون نفع من دعاهم، ولا كشف الضر عنه أو دفعه، ومادام أهم بهذه الحال فماذا يرجى من دعائهم والاستغاثة بهم؟.

٤) وصف دعاء غير الله - تعالى - بأنه غاية في الضلال والبعد عن الهدى، كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥- ٦].

"و"مَن"[هنا] استفهامية، والاستفهام إنكار وتعجب، والمعنى: لا أحد أشد ضلالاً وأعجب حالاً ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له دعاءه فهو أقصى حد في الضلالة"(١).

وقال - تعالى -: ﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾ [الحج: ١٢-١٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١١/٢٦.

وفي هذه الآية وصف لمن يدعو غير الله بأنه في غاية البعد عن الهدى والفلاح، لأنه أعرض عن دعاء الله النافع الضار الغني القادر، وأقبل على دعاء من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، بل إن دعاءه هو الضرر الكبير والشر المستطير فبئس المولى وبئس العشير [١].

٥) وصف من دعا غير الله بالظلم، كما قال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، فدعاء غير الله ظلم للنفس عظيم [٢].

٦) تَوَعد من دعا غير الله بالعذاب يوم القيامة، كما قال - تعالى -: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال - تعالى -: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

ففي هاتين الآيتين وعيد شديد لمن "دعا مع الله آلهة غيره بلا بيّنة من أمره، ولا برهان على ذلك، يدل على ما ذهب إليه، وهذا فيه تلازم، فكل من دعا غير الله فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً" [٣].

---

(١) انظر تفسير السعدي ٥/٢٨٠.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦/٦١٨.

(٣) تفسير السعدي ٥/٣٨٦.

مظاهر الشرك في الدعاء:

قبل أن أذكر بعض مظاهر الشرك في الدعاء، لابد من بيان ضابط الدعاء الشركي الذي يحكم على صاحبه بالكفر والخروج عن ملة الإسلام ؛ فهو: دعاء الميت، أو الغائب، أو الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله، من مغفرة الذنوب وتفريج الكروب، وجلب النعم، ودفع النقم، ونحو ذلك من الأمور التي ليست في مقدرو البشر، فهذا كفر بإجماع المسلمين (١).

ومما يؤسف له جداً انتشار هذا النوع من الشرك بين المسلمين انتشاراً كبيراً، لاسيما في هذه الأزمنة المتأخرة، حتى إن كثيراً ممن ينتسبون إلى الإسلام فاقوا في شركهم هذا أسلافهم من مشركي الجاهلية الأولى وزادوا عليهم، حيث إن المشركين الأولين كانوا يخلصون الدعاء لله حينما يقعون في الشدائد، وتترل بهم الكروب، وينسون شركاءهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة، وأما المشركون المتأخرون الذين ينتسبون إلى الإسلام فإنهم يدعون غير الله في الرخاء والشدة والبر والبحر، بل إن بعضهم يزعم أن دعاء غير الله من الأولياء والصالحين وغيرهم أسرع إجابة

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ١/١٢٤، ١/٣٥٠، والرد على البكري لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٢٣١-٣٥١)، وتيسير العزيز الحميد ص(١٦٠) وما بعدها، وتحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود ابن جرجيس للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن ص(١٠٤)، والدعاء ومترلته من العقيدة الإسلامية ٢/٤٨٣ وما بعدها، والشرك الأكبر ص(٢٦٨).

من دعاء الله وأنفع، ولذلك استفحل فيهم هذا الشرك حتى غرقوا فيه، يظهر ذلك في صور متنوعة ومظاهر كثيرة، فمنهم من يدعو النبي ﷺ ويسأله، ومنهم من يدعو آل البيت، ومنهم من يدعو الأولياء والصالحين، ومنهم من يدعو الطواغيت، والدجالين، ومنهم من يدعو الأموات والغائبين، حتى رفعوهم إلى مقام الألوهية ونسبوا إليهم بعض خصائص الربوبية، ونظموا في ذلك الأبيات الشعرية، وألفوا في تقرير شركهم هذا وتزيينه الكتب الخرافية، وكتبوا في الاستغاثة بغير الله الأدعية والأوراد الشركية، يسألون فيها غير الله غفران الذنوب، تفريج الكروب، ورد الغائب، وشفاء المريض، وجلب النعم ودفع النقم وغير ذلك، فهل هناك أعظم من هذا الشرك والتنديد، وهل من كفر أشد من هذا الكفر بالله الغني الحميد؟ ![1].

---

(١) انظر الرد على البكري ص(٣٠٢-٣٤٩)، والدرر السنية ٢/٤١، ١١٩، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني ص(٢٨)، وتيسير العزيز الحميد ص(١٦٠) وما بعدها، وتفسير الألوسي ١١/٩٨، وتفسير المنار ٥/٤٢١، ومعارج الألباب في مناهج الحق والصواب لحسين بن مهدي النعمي ص(٢٠٢) وما بعدها، والدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٢/٥١٧ وما بعدها.

المطلب الثاني: نسبة النعم إلى غير الله

إن من رحمة الله - تعالى - بعباده تفضُّله عليهم بالنعم الكثيرة الظاهرة والباطنة، حيث أنزل عليهم الخيرات، وأخرج لهم من كل الثمرات، وجعل لهم مما خلق ما يسترهم ويؤيهم من بيوت وملبوسات، وسخر لهم جميع ما في الأرض والسموات، كما قال - تعالى - ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية: ١٣]، وقال - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة.

ولذلك يجب على الإنسان أن يضيف ما يأتيه من النعم إلى مسديها، ومُوليها، والمتفضل بها، ومعطيها، وهو الله - وحده -، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فإن ذلك من تمام شكرها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الله - سبحانه - هو المعطي على الحقيقة، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها، وساقها إلى من يشاء من عباده، فالمعطي

هو الذي أعطاه [١]، وحرك قلبه لعطاء غيره"[٢].

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: "الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً، وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره، كما هو جار على ألسنة كثير من الناس؛ فهذا يجب على العبد أن يتوب منه وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليها وأن يجاهد نفسه على ذلك ولا يتحقق الإيمان إلا بإضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً، فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان:

- اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره.
- والتحدث بها والثناء على الله بها.
- والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته، والله أعلم"[٣].

هذا وإن من أنواع الشرك الخفية[٤] التي يقع فيها كثير من الناس إضافة النعم إلى غير الله - تعالى - .

---

(١) أي المعطى المباشر من الخلق قد تفضل - تعالى - عليه بذلك العطاء وملكه إياه.

(٢) مجموع الفتاوى ٩٢/١.

(٣) القول السديد ص(١٤٠).

(٤) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٤٣٨).

أساليب القرآن الكريم في النهي عن نسبة النعم إلى غير الله تعالى:

ورد النهي عن نسبة النعم إلى غير الله تعالى في القرآن الكريم بأساليب متعددة منها:

١- ذمُّ المشركين الذين ينسبون نعم الله – تعالى – عليهم إلى غيره، كما قال -سبحانه -: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب [١]، تعرف هذا كفار قريش، ثم تنكره بأن تقول: هذا كان لآبائنا فَرَوَّحُونا[٢] إياه".

وقال عون بن عبد الله[٣]: "إنكارهم إياها أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبْتُ كذا وكذا".

وقال آخرون: يعني ذلك: أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذي رزقهم، ثم ينكرون ذلك بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا [٤].

---

(١) أي ما ذكر الله في هذه السورة من النعم، والتي من جملتها ما ذكر.

(٢) روَّحونا بمعنى: أعطونا، لسان العرب ١٧٧٠/٣، وفي رواية عند ابن جرير: فورثونا إياها، تفسير ابن جرير ٦٣٠/٧.

(٣) هو عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي، ثقة، عابد، توفي قبل سنة عشرين ومائة، التقريب (٤٣٤)، والتهذيب ١٧١/٨.

(٤) انظر هذه الأقوال في تفسير ابن جرير ٦٣٠/٧، وقيل المراد بالنعمة: إرسال محمد ﷺ إليهم، ورجحه ابن جرير، المرجع السابق.

فتبيّن مما سبق أن الله - تعالى - ذم المشركين بسبب حجدهم نعَمَه، وذلك بإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً من الآباء والشركاء وغيرهم، وعدم إضافتها إلى المنعم الحقيقي بها وبأسبابها [١].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال القرطبي عند هذه الآية: "وقيل معناها: أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم: لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا ؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب" [٢].

ومن نسبة النعم إلى غير الله نسبة الغيث ونزول المطر إلى الأنواء [٣]، كما قال تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢]، و عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: ((أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد

---

(١) انظر شفاء العليل لابن القيم ص(٦٨).

(٢) تفسير القرطبي ١٧٩/٩.

(٣) الأنواء جمع نوء، قال ابن الأثير: وهي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كلّ ليلة في منزلة منها، ومنه قوله - تعالى -: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩]، ويسقط في الغرب كلّ ثلاث عشرة ليلة منزلةً مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت في الشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر"، وينسبون إليها، فيقولون: مطرنا بنوء كذا، النهاية لابن أثير ١٢٢/٥.

صدق نوء كذا وكذا)) قال: فترلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢][١].

قال البغوي: "وهذا في الاستسقاء بالأنواء، وذلك أنهم كانوا يقولـــون إذا مطروا: مطرنا بنوء كذا، ولا يرون ذلك من فضل الله - تعالى -، فقيل لهـــم: أتجعلون رزقكم: أي شكركم بما رزقتم، يعني شكر رزقكم التكذيب، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مكانه"[٢].

وقال ابن رجب[٣]: "ولا تضاف النعم إلى الأســـباب، بـــل إلى مســـببها ومقدرها، فمن أضاف شيئاً من النعم إلى غير الله مع اعتقاده أنه ليس مـــن الله

---

(١) أخرجه مسلم ٥٤/١ ح(٧٣)، قال النووي في شرحه لهذا الحديث: قال أبو عمرو ـــ يعني ابـــن الصلاح ـــ: "ليس مراده أن جميع هذا نزل في قولهم في الأنواء، فإن الأمر في ذلك وتفسيره يأبى ذلك، وإنما النازل في ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ، والباقي نزل في غير ذلك، ولكن اجتمعا في وقت الترول فذكر الجميع من أجل ذلك"، صحيح مسلم بشرح النووي ٦٢/٢.

(٢) تفسير البغوي ٢٩٠/٤.

(٣) هو الإمام الحافظ أبوالفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغـــدادي، ثم الدمشـــقي، الحنبلي، محدث فقيه أصولي له مصنفات كثيرة منها: شرح جامع الترمـــذي، وجـــامع العلـــوم والحكم، ولطائف المعارف، توفي في دمشق عام ٧٩٥هـــ، انظر الأعـــلام ٢٩٥/٣، ومعجـــم المؤلفين ١٢٨/٥.

فهو مشرك حقيقة، ومع اعتقاده أنه من الله فهو نوع شرك خفي"[١].

وكما ذم الله – تعالى – من ينسب نعم الله عليه إلى غيره من الخلق فقد ذم من ينسبها إلى نفسه، وتوعده بالانتقام وزوال النعم عنه في الدنيا، والعذاب يوم القيامة، مبيّناً – سبحانه – أن هذا هو مصير من قال بهذه المقولة الفاسدة، وافترى هذه الفرية الباطلة، من طغاة الأمم السابقة، كما قال – تعالى –: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٤٩-٥١].

ففي هذه الآيات يخبر الله – تعالى – عن حال الإنسان في الضراء والسراء؛ فهو حين يصاب بمضرة من فقر أو مرض أو أذى، أو شدة يلجأ إلى الله – تعالى – وحده ويدعوه، وينيب إليه.

وحين ينعم الله – تعالى – عليه ويعطيه من فضله يبغى ويطغى ويجحد نعمة الله، ويدّعي أنه إنما أوتيها لعلم الله – تعالى – بأنه مستحق لها وأهل، ثم بيّن – سبحانه – أن ذلك إنما هو ابتلاء واختبار يختبر الله به عباده ليعلم الشاكر من الكافر، ولكن كثيراً من الناس يجهلون هذه الحكمة العظيمة، حيث يزعمون أن ما يصيبهم من النعم إنما هو لفضلهم ومترلتهم عند الله.

---

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب ص(٨٥) باختصار.

ثم يبين – تعالى – أن هذه المقولة الفاسدة قد نطقت بها أمم ماضية فأهلكهم الله – تعالى –، ولم تنفعهم أموالهم وجمعهم وما كسبوه في هذه الحياة الدنيا، ولم ينجهم من عذاب الله.

ثم يتوعد – سبحانه – من يسلك طريقهم، ويعمل بعملهم من هذه الأمة مبيناً أن مصيره سيكون مثل مصير تلك الأمم، فإن الله – تعالى – لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء [١].

٢– النهي عن نسبة النعم إلى غير الله – تعالى –، كما قال – تعالى –: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – عند هذه الآية: "الأنداد [٢]: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة[٣] سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوصُ البارحةَ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان [٤]، هذا كله به شرك"[٥].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦٢/٤، وتفسير السعدي ٤٨٢/٦.

(٢) الأنداد: جمع نِدّ، وهو المثيل والنظير، انظر مختار الصحاح ص(٢٧٢).

(٣) الصَّفاة: الصخرة الملساء، مختار الصحاح ص(١٥٣).

(٤) هكذا وردت بالرفع في المطبوع من تفسير ابن أبي حاتم، ولعلها مصحَّفة، أو مرفوعة بالحكاية.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٦٢/١، وقال الشيخ سليمان بن عبدالله: إسناده جيد، تيسير العزيز الحميد ص(٤٤٢).

ففي هذا الأثر عدَّ ابن عباس - رضي الله عنهما - نسبة النعم إلى غير الله شركاً؛ فإن قول الرجل: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص ونحو ذلك، من إضافة النعم إلى غير الله، لأنه - سبحانه - هو الحافظ، والمسلم من جميع الآفات، وأما قول الإنسان: لولا الله ثم فلان فهو جائز [١].

٣- القصص القرآني، ومن ذلك ما ذكره الله — عز وجل- عن قارون حينما طغى وبغى، واغتر بكنوزه وأمواله وجنوده، ولم يسمع لنصح قومه، وينتفع بموعظتهم، بل ادّعى كاذباً أن هذه الأموال والكنوز التي بيده إنما حصل عليها بعلمه وذكائه وخبرته ومعرفته بوجوه المكاسب [٢]، فكانت عاقبته ومآله أن خسف الله به وبداره الأرض، فكان في أسفل سافلين، فما منع نفسه وانتصر لها، وما كان له من دون الله من قوة ولا ناصر، كما حكى الله - تعالى - قصته في سورة القصص بقوله: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ

---

(١) انظر فتح المجيد ص(٣٤٩).

(٢) — وقيل المراد بقوله: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ على فضل علم عندي علمه الله فيَّ فرضي بذلك عني، وفضلني، انظر تفسير ابن جرير ١٠٧/١٠، وزاد المسير ١١٣/٦.

عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

قال ابن القيم: "وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة؛ بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال - تعالى -: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، أي: على علم علمه الله عندي أستحقه به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

والمؤمن يرى ذلك ملكاً لربه وفضلاً منه، منّ به على عبده من غير استحقاق منه بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فإذا لم يشهد ذلك رأى فيه أهلاً ومستحقاً فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح الفخر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩ - ١٠]، فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء"(١).

(١) الفوائد لابن القيم ص(٢٢٧)، باختصار.

أقسام نسبة النعم إلى غير الله:

نسبة النعم إلى غير الله – تعالى – لها ثلاثة أقسام:

الأول: أن يضيفها إلى السبب نفسه، مع عدم الاعتقاد بأنها من الله – تعالى–، فهذا شرك أكبر.

الثاني: أن يضيفها إلى سبب صحيح ظاهر، مع اعتقاده بأنها من الله، فهذا شرك أصغر.

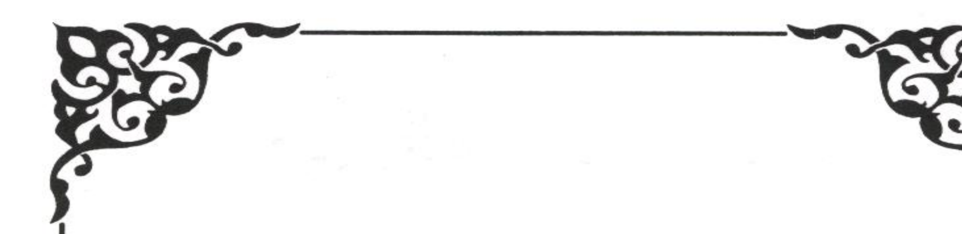
الثالث: أن يضيفها إلى سبب صحيح ثابت ظاهر على وجه الإخبار، مع اطمئنان قلبه بأن المنعم الحقيقي هو الله – تعالى –، واستحضاره لذلك، واعترافه بأن هذا السبب من فضل الله ونعمته فهذا جائز [(١)].

مظاهر نسبة النعم إلى غير الله:

نسبة النعم إلى غير الله لها صور متعددة تجري على ألسنة كثير من الناس، يتلفظون بها متساهلين بشأنها غير مدركين لخطورتها، وقد سبق ذكر بعض الأمثلة في ثنايا بعض الآثار الواردة في تفسير الآيات، ومن ذلك قول بعضهم لو لم أبادر إلى الطبيب لاشتد بي المرض، ولولا مهارة قائد الطائرة، أو السيارة، أو السفينة لهلك الركاب، ولولا اشتغالي بتلك التجارة ما اغتنيت، ونحو ذلك من الألفاظ، فيجب على الإنسان الحذر من زلات اللسان وعثراته، لاسيما فيما له تعلق بالعقيدة.

---

(١) انظر لطائف المعارف لابن رجب ص(٨٥)، ورسالة الشرك الأصغر ص(١٨٦)، والقول المفيد ٢/٣١٣.



الباب الثاني

آثار الشرك في ضوء القرآن الكريم

وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثار الـــشرك الدنيـــوية في ضوء القرآن الكريم.

الفصل الثاني: آثار الشرك الأخروية في ضوء القرآن الكريم.



الفصل الأول

آثار الشرك الدنيوية في ضوء القرآن الكريم

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الشرك أعظم الذنب وأظلم الظلم.

المبحث الثاني: الشرك يهدر الدم والمال.

المبحث الثالث: الشرك يقطع روابط الأخوة والمحبة والقربى.

المبحث الرابع: الذلة والخذلان والتخبط في الدنيا.

المبحث الأول: الشرك أعظم الذنب وأظلم الظلم

إن أعظم الذنوب عند الله - تعالى -، وأظلم الظلم (١)، وأنكر المنكرات، وأكبر الكبائر، وأشد القبائح ؛ الشرك بالله - سبحانه وتعالى - ؛ ذلك أنه هضم لحق الربوبية، واعتداء في حق الألوهية، وسوء ظن بالله - تعالى - وجحود لنعمه، وإنكار لحقوقه ؛ حيث يسوى المخلوقُ الضعيف، العاجز، الفقير، بالإله القدير، الغني الحميد، ولهذا كان الشرك"أبغضَ الأشياء إلى الله - تعالى - وأكرهها له، وأشدها مقتاً لديه، ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه"(٢).

وقد وصف الله - تعالى - الشرك في القرآن الكريم بأنه ظلم عظيم، وأخبر بأنه سوء ظن به - سبحانه -، وحينما سئل النبي ﷺ عن أعظم الذنب أخبر بأنه الشرك (٣).

ولما بين ﷺ لأصحابه أكبر الكبائر، وموبقات الأعمال ذكر الشرك في

---

(١) قال الراغب الأصفهاني: "الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، أو بعدول عن وقته أو مكانه"المفردات ص(٥٣٧).

(٢) إغاثة اللهفان ٦٦/١، وانظر شرح الطحاوية ٤١/١.

(٣) كما في حديث ابن مسعود المتفق عليه قال: ((قلت يا رسول الله أيّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك)) وأنزل الله تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٩].

صحيح البخاري ٤٣٣/١٠ ح(٦٠٠١)، وصحيح مسلم ٩١/١ ح(١٤٢).

مقدمتها [١].

فمن الآيات التي وصف الله - تعالى - فيها الشرك بأنه ظلم عظيم قوله - تعالى - حكايةً عن لقمان الحكيم[٢] في أول وصية من وصاياه الوعظية لابنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

فإن الله - تعالى - لما ذكر منته على عبده لقمان بالحكمة[٣] أخبر عن وصاياه الحكيمة لابنه، والتي ابتدأها بالنهي عن الشرك مبيناً ومعللاً هذا النهي بأن الشرك ظلم عظيم، وإنها والله لوصية عظيمة، وموعظة غير متهمة تصدر من أبٍ شفيق، ناصح، ودود لابنه وفَلَذة[٤] كبده، وأحب الناس إليه، فما أجدرها

---

(١) كما في حديث أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: ((كنا عند رسول الله ﷺ فقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً -؟: الإشراك بالله...)) الحديث.
أخرجه البخاري ٢٦١/٥ ح(٢٦٥٤)، ومسلم ٩١/١ ح(١٤٣).
وحديث أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ﷺ: ((اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله...)) الحديث، وقد تقدم تخريجه في ص(١٢٨).

(٢) وقد اختلف المفسرون في لقمان هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ والأكثرون على الثاني، انظر تفسير ابن جرير ٢٠١/١٠، وتفسير ابن كثير ٤٥٢/٣، والدر المنثور ٣١١/٥.

(٣) قال ابن عباس - رضي الله عنه -: "الحكمة: العقل والفهم والفطنة من غير نبوة"، انظر الدر المنثور ٣١١/٥، وروي عن مجاهد نحوه، انظر تفسير ابن جرير ٢٠٨/١٠، وقال السعدي في تعريفه للحكمة: "هي العلم بالحق على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام"، تفسير السعدي ١٥٤/٦.

(٤) الفَلَذة: القطعة، انظر المعجم الوسيط ٧٠٠/٢.

بالقبول والامتثال، وما أحراها بالاستماع والإقبال [١].

وافتتاحه لهذه الموعظة بحرف النداء مع أن توجيه الخطاب إليه مغنٍ عن ندائه لحضوره ؛ تنبيه على الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام، فإنه يستدعي حضور الذهن.

ومخاطبته لابنه بلفظ التصغير ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ كناية عن الشفقة به، والتحبب إليه، وهو في هذا المقام يفيد الحث على امتثال هذه الوصايا، والأخذ بها، لأنها صادرة من أبٍ شفيق ناصح محب للخير [٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "ووجه كونه ظلماً عظيماً، أنه لا أفظع ولا أبشع ممن سوّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم، ودنياهم، وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟.

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب؟ جعلها عابدة لمن لا يُسْوي شيئاً فظلم نفسه ظلماً كبيراً"[٣].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٥٣/٣، وتفسير السعدي ١٥٥/٦، وفي ظلال القرآن ٢٧٨٨/٥.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٥٣/٢١، ١٥٤.

(٣) تفسير السعدي ١٥٥/٦.

وقال الشيخ حافظ الحكمي: "الشرك أعظم الظلم ؛ لأن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ولا أعظم ظلماً من شكاية العبد ربه الذي هو أرحم الراحمين فيما أصابه من ضر أو فاته من خير إلى من لا يرحمه ولا يسمعه ولا يبصره ولا يعلمه، ولا يملك لنفسه ولا لداعيه من ضر ولا نفع ولا موت ولا حياة ولا نشور، ولا يغني عنه مثقال ذرة، وعدوله عمَّن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، ويفزع في قضاء حوائجه إلى من لا قدرة له على كل شيء ألبتة"[١].

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "الذين صَدَقوا الله وأخلصوا له العبادة، و لم يخلطوا عبادتهم إياه، وتصديقهم له بظلم يعني بشرك، و لم يشركوا في عبادته شيئاً، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصاً أحق بالأمن من عقابه"[٣].

وقال النووي: "لما شق عليهم أنزل الله – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ

(١) معارج القبول ٢٦٧/١.

(٢) أخرجه البخاري ٤٦٥/٦ ح(٣٤٢٩)، و مسلم ١١٤/١ ح(١٩٧).

(٣) تفسير ابن جرير ٢٥٠/٥.

عَظِيمٌ ﴾ وأعلم النبي ﷺ أن الظلم المطلق هناك المراد به هذا المقيد، وهو الشرك، فقال لهم النبي ﷺ بعد ذلك: ليس الظلم على إطلاقه وعمومه كما ظننتم، إنما هو الشرك كما قال لقمان لابنه، فالصحابة - رضي الله عنهم - حملوا الظلم على عمومه والمتبادر إلى الأفهام منه، وهو وضع الشي في غير موضعه، وهو مخالفة الشرع، فشق عليهم إلى أن أعلمهم النبي ﷺ بالمراد بهذا الظلم"[(١)].

والشرك بالله - تعالى - ظلم في حق الله - سبحانه - وظلم للنفس، وظلم لمن أُشرك به من الخلق.

فأما كونه ظلماً في حق الله - تعالى - فلأن أعظم حقوق الله - تعالى - على عباده هو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً كما في حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: ((بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا أخِرَةَ[(٢)] الرَّحل فقال: يا معاذ، قلت: لبَّيك رسولَ الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً...))[(٣)].

فالعبادة بجميع أنواعها حق الله - تعالى - وحده، وصرفها لغيره وضع لها

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٣/٢.

(٢) أَخِرَةُ الرَّحْل وآخرته ومؤْخِرَته هي الخشبة التي يستند إليها الراكب على البعير، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٩/١.

(٣) صحيح البخاري ٣٩٧/١٠ ح(٥٧٩٧)، وصحيح مسلم ٥٨/١ ح(٣٠).

في غير محلها اللائق بها فهو ظلم، قال – تعالى –: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وأما كونه ظلماً للنفس فلأنه إذلال لها وإخضاع لمخلوق ضعيف لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، وخروج بها عن الفطرة السليمة التي فطرها الله عليها والتي هي توحيد الله – تعالى – والاستسلام له وحده دونما سواه، ظلم للنفس أيضاً لأنه حرمان لها من منافع التوحيد وثمراته العظيمة اليانعة في الدنيا والآخرة.

وأما كونه ظلماً لمن أُشرك به من الخلق، فلأنه غلو فيهم، ورفع لهم إلى منزلة لا تليق بهم، وإيذاء لهم في الدنيا، وعذاب لمن رضي بذلك منهم في الآخرة، ولذلك أخبر الله – تعالى – أن هذه الآلهة التي اتخذها المشركون في الدنيا يتبرؤون من عابديهم يوم القيامة وينكرون صنيعهم، وينبذون شركهم، كما قال – تعالى –: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٧-١٩]، وقال – تعالى –: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧] [(١)].

ومن الآيات التي وصف الله - تعالى - بها الشرك بأنه ظلم ما حكاه - سبحانه - عن الفتية من أصحاب الكهف أنهم قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ [الكهف: ١٥].

ففي هذه الآية يخبر الله - تعالى - عن الفتية من أصحاب الكهف أنهم

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/٢٣٢، ورسالة الشرك وأنواعه لجفري أفندي وهاب ص(٣٥٥).

عابوا على قومهم اتخاذهم الآلهة التي يعبدونها من دون الله، وأنكروا فعلهم، وبيّنوا أنه ليس لهم برهان ولا حجة على ما ذهبوا إليه من الشرك، بل هو الجهل والضلال، ثم ختم الآية بالاستفهام الإنكاري ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[1].

وكما وصف الله – تعالى – الشرك بأنه ظلم فقد وصف المشركين بأنهم ظالمون، كما قال – تعالى –: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

ففي هذه الآية ينهى الله – سبحانه وتعالى – رسوله ﷺ أن يدعو[2] غيره من المخلوقات التي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً في الدنيا والآخرة، ثم يبيّن له – سبحانه – أنه إن فعل ذلك[3] فإنه يكون حينئذٍ من الظالمين لأنفسهم ولغيرهم[4].

ومن الآيات التي وصف الله – تعالى – فيها المشركين بالظلم أيضاً قوله – تعالى –: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٨٩/٨، وتفسير ابن كثير ٧٩/٣، وتفسير السعدي ١٥/٥.
(٢) والمراد بهذا الدعاء دعاء العبادة.
(٣) وحاشاه ﷺ من ذلك فهو المعصوم، ولكن المقصود تنبيه الناس على فظاعة الشرك بحيث أنه لو فعله أفضل الخلق كان من الظالمين، انظر التحرير والتنوير ٣٠٥/١١.
(٤) انظر تفسير ابن جرير ٦١٨/٦، وتفسير السعدي ٣٩٦/٣.

ففي هذه الآية ينكر الله - تعالى - على الذين اتخذوا معه - سبحانه - شركاء يطيعونهم في التحليل والتحريم، ويتبعونهم فيما ابتدعوه من الشرك والضلال، مبيناً أنه لولا الأجل المسمى الذي ضربه فاصلاً بين الناس[١] لعاجلهم بالعقوبة، وفي ختام الآية يتوعدهم الله - تعالى - بالعذاب الأليم، ويصفهم بالظلم بسبب ما اقترفوه من الإثم العظيم [٢]،"فهذا هو الذي ينتظرهم جزاء الظلم، وهل أظلم من المخالفين عن شرع الله إلى شرع من عداه؟"[٣].

وكما وصف الله - تعالى - الشرك بالظلم فقد أخبر بأنه سوء ظن به - سبحانه -، كما قال - تعالى - حكايةً عن نبيه إبراهيم - عليه السلام -: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧].

قال ابن القيم عند هذه الآية: "أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟ أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاس فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟ أم ذليل فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلَّة، ويتعزز به من الذلة؟ أم يحتاج إلى الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً"[٤].

---

(١) وهو يوم القيامة، انظر تفسير ابن كثير ٤/١٢٠.
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/١٢٠، وتفسير السعدي ٦/٦٠٩.
(٣) في ظلال القرآن ٥/٣١٥٣.
(٤) مدارج السالكين ٣/٣٦٤، وانظر تفسير ابن جرير ١٠/٥٠٠، وكتاب تجريد التوحيد المفيد ص(٧٧).

المبحث الثاني: الشرك يهدر الدم والمال

إن الإنسان الذي كرّمه الله - تعالى - وشرّفه، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، هذا الإنسان إنما تكمن[1] قيمته، وتبقى منزلته بالتوحيد والإيمان، لأنه إنما خلق لعبادة الله وحده دونما سواه، كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا لم يقم بهذه المهمة التي خلق من أجلها فإنه حينئذٍ لا قيمة له ولا وزن، ولا قدْرَ له ولا فضل، أضل من البهيمة العجماء، وأخس من الصخرة الصّماء، ولذلك أباح الله - تعالى - دماء المشركين وأموالهم [2]، وأمر بقتلهم وجهادهم، حتى يؤمنوا بالله وحده، ويَدَعوا الشرك وعبادة الأوثان [3]، قال - تعالى -: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ

---

(١) تكْمن: تختفي، مختار الصحاح ص(٢٤١).

(٢) والمقصود: المشركون المحاربون، أما من كان له عهد أو ذمّة، فهو معصوم الدم والمال مادام ملتزماً بعهده وذمته، كما قال - تعالى -: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤]، انظر تفسير ابن كثير ٢//٣٤٨، ولا يخفى أن حلّ دماء الكفار المحاربين وأموالهم له شروط وضوابط ليس هذا مقام بيانها.

(٣) وقد اختلف العلماء في المشركين هل تؤخذ منهم الجزية، أو ليس لهم إلا الإسلام أو السيف، والأرجح والله - تعالى - أعلم أنها تؤخذ منهم إذا بذلوها ويُكفُّ عن قتالهم، انظر زاد المعاد ١٥٣/٣.

وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه هي آية السيف التي أمر الله - تعالى - فيها بقتال المشركين، وأسرهم، وحصارهم، والتضييق عليهم، ومراقبتهم، وملاحقتهم في كل طريق ومنفذ، وذلك بعد انقضاء أشهر التسيير الأربعة التي حرم الله - تعالى - فيها قتال المشركين المعاهدين وقت نزول الآية، فيجب على المسلمين أن يبذلوا غاية مجهودهم في ذلك، ويستمروا في جهاد المشركين حتى يتوبوا إلى الله، ويدعوا الشرك وعبادة الأوثان، ويعبدوا الله وحده، ويلتزموا بشرائع الإسلام [(١)].

ويقول - سبحانه - آمراً عباده المؤمنين بقتال المشركين والقضاء عليهم حتى لا يبقى على وجه الأرض مشرك، ولا يعبد إلا الله وحده: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال - تعالى -: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ففي هاتين الآيتين يأمر الله - سبحانه - بقتال المشركين ثم يذكر المقصود من هذا القتال بقوله: ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي شرك [(٢)]، فالحكمة من قتال

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣١٩/٦، وتفسير ابن كثير ٣٤٩/٢، وتفسير السعدي ٢٠٠/٣.

(٢) روي ذلك عن جمع من السلف، انظر تفسير ابن جرير ٢٠٠/٢.

المشركين هي أن يُزال الشرك من الأرض، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[1]، وليس المقصود سفك دماء المشركين وأخذ أموالهم، ولذلك إذا تاب المشركون عن الشرك وانتهوا عن مقاتلة المسلمين وأخلصوا العبادة لله وحده، فإنه لا يجوز قَتْلُهم ولا قتالهم، ولا تحل دماؤهم ولا أموالهم [2].

وقال - تعالى -: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي هذه الآية يأمر الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يقاتلوا المشركين، مجتمعين على ذلك غير متفرقين، ومؤتلفين غير مختلفين [3]، كما أن المشركين يقاتلونهم مجتمعين، وفي ختام الآية يحث - سبحانه - عباده على تقواه، ويرغبهم فيها، مبيناً أنه مع المتقين بعونه ونصره وتأييده [4].

---

(١) ويلاحظ أن آية الأنفال زيد فيها اسم التأكيد ﴿كُلُّهُۥ﴾ ، قال ابن عاشور: "وذلك لأن هذه الآية أسبق نزولاً من آية البقرة، فاحتيج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بأنه لله - تعالى -، لئلا يتوهم الامتناع بإسلام غالب المشركين، فلما تقرر معنى العموم وصار نصاً من هذه الآية عُدل عن إعادته في آية البقرة تطلباً للإيجاز"، التحرير والتنوير ٣٤٧/٩.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٢٠٠/٢، وتفسير ابن كثير ٢٣٤/١، وتفسير السعدي ٢٣٣/١.

(٣) وعلى هذا تكون ﴿كُلُّهُۥ﴾ حال من الفاعل، وهو واو الجماعة في قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ ، وقيل: إنها حال من المفعول: ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيكون المعنى: قاتلوا جميع أنواع المشركين، انظر إعراب القرآن وبيانه ٩٧/٤، وفتح البيان لصديق حسن خان ١٢٧/٤، وتفسير السعدي ٢٢٩/٣.

(٤) انظر تفسير ابن جرير ٣٦٧/٦، وتفسير ابن كثير ٣٦٩/٢، تفسير السعدي ٢٢٩/٣.

وقد أمر الله – تعالى – المسلمين عند ملاقاة أعدائهم المشركين أن يعملوا السيف في رقابهم ويكثروا القتل فيهم، وذلك لكي تنكسر شوكتهم، وتَخْبُوَ[١] نارهم، ويبطل كيدهم، ويضمحل أمرهم، وحينئذٍ يجيء وقت أسرهم أو المنُّ عليهم، كما قال – تعالى –: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي عند هذه الآية: "أي ما ينبغي ولا يليق به[٢] إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ويسعون لإخماد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم، لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادهم وإبطال شرهم، فمادام لهم شر وصولة، فالأوْفق أن لا يؤسروا، فإذا أثخن في الأرض، وبطل شر المشركين واضمحل أمرهم فحينئذٍ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم"[٣].

وقال – تعالى –: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤].

قال ابن كثير عند هذه الآية: يقول – تعالى – مرشداً للمؤمنين إلى ما

---

(١) تخبو: تستتر، المعجم الوسيط ٢١٣/١.

(٢) أي بالنبي ﷺ.

(٣) تفسير السعدي ١٩٠/٣.

يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي أهلكتموهم قتلاً ﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾: الأسارى الذين تأسروهم ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم (١)، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطوهم عليه (٢).

وقد دلت السنة أيضاً على أن المشرك غير معصوم الدم والمال، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)) (٣).

قوله: ((عصموا)) أي: منعوا.

وقوله: "وحسابهم على الله"أي في أمر سرائرهم (٤).

---

(١) وقد دل الكتاب والسنة على أن الإمام مخير في أمر الأسرى بين أربعة أمور: إمّا قتلهم، أو استرقاقهم، أو فدائهم بالمال، أو بأسرى مسلمين، أو المنّ عليهم وإطلاق سراحهم، يختار من ذلك ما يرى فيه المصلحة للمسلمين، انظر زاد المعاد ١٠٩/٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١٨٦/٤، وانظر أحكام القرآن لابن العربي ١٧٠١/٤.

(٣) أخرجه البخاري ٧٥/١ ح(٢٥)، ومسلم ٥٣/١ ح(٢٢).

(٤) فتح الباري ٧٤/١.

وعن أبي مالك[١] عن أبيه - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله)) [٢].

---

(١) هو أبومالك الأشعري، وقد اختلف في اسمه فقيل عبيد، وقيل: عبدالله، وقيل: عمرو، وقيل: عامر ابن الحارث، وقيل غير ذلك، صحابي، روى عن النبي ﷺ، توفي في طاعون عَمَواس سنة ١٨هـ، انظر تقريب التهذيب ص(٦٧٠)، وتهذيب التهذيب ٢١٨/١٢، والإصابة ١٦٨/٧.

(٢)أخرجه مسلم ٥٣/١ ح(٢٣).

المبحث الثالث: الشرك يقطع روابط الأخوة والمحبة والقربى

إن من أعظم آثار الشرك بالله – تعالى – أنه يزيل روابط الإخاء والمحبة، ويقطع أواصر[١] القرابة والمودة، ويجتث[٢] جميع صور الولاء والخُلّة بين المشركين والمسلمين، فلا يُوالي المشرك، ولا يحب ولا يجالس، ولا يساكن، ولا يُنكح، ولا يرث ولا يورَث، بل ولا يُتَشَبّه به، كل ذلك تعظيماً لجرم الشرك وتنفيراً من موافقة المشركين، وتكريماً للمسلم، وتمييزاً له على الكفرة الظالمين.

ومن الآيات الواردة في النهي عن موالاة المشركين ومحبتهم قوله –تعالى–:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ففي هذه الآية الكريمة يبيّن الله – تعالى – لرسوله ﷺ أنه لا ينبغي لمن آمن بالله واليوم الآخر أن يُوادَّ ويوالي ويحب من حادَّ الله ورسوله وشاقَّه وخالف

(١) الأواصر جمع آصرة، وهي: ما عطفك على غيرك من رحم أو قرابة أو مصاهرة، المعجم الوسيط ١/١٩.

(٢) يجتث: يقتلع، انظر مختار الصحاح ص(٤٠).

أمره، وعلى رأس هؤلاء أهل الإشراك، حتى ولو كان هذا المُحادُّ أقربَ الناس إليك، فمن التزم بهذه العقيدة واتصف بها فهو المؤمن حقاً الذي غرس الله الإيمان في قلبه، وقواه بوحيه، ونوَّره بهداه، وهو الذي له الحياة الطيبة في هذه الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، وهو الذي يحلُّ الله – تعالى – عليه رضوانه، فإنه من جند الله وأوليائه المفلحين (١).

"فهذه الآية تدعو إلى المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان، والانحياز النهائي للصف المتميز، والتجرد من كل عائق وكل جاذب، والارتباط في العروة الواحدة بالحبل الواحد، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودَّين: ودّاً لله ورسوله ووداً لأعداء الله ورسوله، فإما إيمان، أولا إيمان، أما هما معاً فلا يجتمعان، فروابط الدم والقرابة تنقطع عند حد الإيمان، إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان.

إن المؤمن الحق ينبغي أن يتجرد من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة، فلا نسب ولا صهر ولا أهل ولا قرابة ولا وطن ولا جنس، ولا عصبية ولا قومية، إنما هي العقيدة والعقيدة وحدها، فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله، ومن انحاز إلى حزب الشيطان ووقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة، لا من أرض، ولا من جنس، ولا من وطن، ولا من لون، ولا من

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٦/١٢، وتفسير ابن كثير ٣٥٣/٤، وتفسير السعدي ٣٢٢/٦.

عشيرة، ولا من نسب، ولا من صهر"[(١)].

ومن الآيات الواردة في قطع المودة بين المسلمين والمشركين قوله -تعالى-: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

ففي هاتين الآيتين يخبر الله - تعالى - عن رسوله نوح - عليه السلام - أنه سأل ربه مستعلماً عن حال ابنه بعدما أغرق الله قومه الكفرة، والذي حمله - عليه السلام - على هذا السؤال - مع أن ابنه رفض الإيمان به، وأبى أن يركب معه في السفينة التي نجّى الله فيها المؤمنين - هو وَعْد الله - تعالى - له بإنجاء أهله، حيث قال - تعالى -: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾ [هود: ٤٠]، فحملته الشفقة - عليه السلام - على الظن بأن ابنه داخل في عموم وعد الله - تعالى -، مع تفويضه الأمر لحكمة الله البالغة، فبيّن الله - سبحانه وتعالى - أن ابنه هذا ليس من أهله الذين وعد بإنجائهم، لأن الله - تعالى - وعد بإنجاء من آمن من أهله فقط، فهذا الدعاء الذي دعوت به يا نوح لنجاة مشرك عملٌ غيرُ صالحٍ [(٢)]، فلا تسألن عما لا تعلم عاقبته ومآله، وما طويته عنك من أسباب أفعالي، إني أعظك أن تتصف

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٥١٤ بتصرف يسير.

(٢) وفي قراءة: (إنه عمِلَ غيرَ صالح). النشر في القراءات العشر ٢/٢٨٩.

بصفات الجاهلين [١].

فهاتان الآيتان دليل واضح وبرهان ساطع على أن الشرك يلغي جميع الروابط ويقضي على كل الوشائج [٢]، فهذا ابن أول الرسل - عليهم السلام - لما أشرك بالله غرق مع المُغرقين، وهلك مع الهالكين، ولم يغن عنه نسبه وقرابته من عذاب الله شيئاً، فقد حال بينه وبين أبيه الشرك فكان من المغرقين.

ومن الآيات الورادة في مقاطعة المشركين ولو كانوا أقرب الأقربين قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

ففي هاتين الآيتين ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكفرة المشركين أولياء يحبونهم ويصادقونهم ويساكنونهم مادام أنهم مصرون على الشرك، مؤثرون له على الإسلام، حتى ولو كان هؤلاء المشركون آباءً أو أبناءً، ثم يحكم الله - سبحانه - على من فعل ذلك فوالى المشركين وأحبهم، وأقام معهم بالظلم ؛

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٢/٧، وتفسير ابن كثير ٤٦٣/٢، وتفسير السعدي ٤٢٧/٦.

(٢) الوشائج: جمع وشيجة، وهي الرحم المشتبكة المتصلة. لسان العرب ٤٨٤١/٨.

لأنهم تجرؤ على معصية الله وتعدي حدوده.

"ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى"[1]، حيث يتوعد - سبحانه - من قدم محبة الآباء والأبناء والأخوان والأزواج والعشيرة والأموال التي تعب في تحصيلها، والتجارة التي يخشى رخصها ونقصها، والمساكن التي يألفها ويستحسنها ويبغض فراقها، على محبته، ومحبة رسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة إلى دار دينه يتوعد الله من يفعل ذلك بالعذاب الأليم الذي ينتظره، فإنه من الفاسقين الخارجين عن طاعة رب العالمين[2].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب أيضاً قوله - تعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ١-٣].

---

(١) في ظلال القرآن ١٦١٥/٣.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٣٣٩/٦، وتفسير ابن كثير ٥٣٦/٢، وتفسير السعدي ٢١٣/٣.

وكان سبب نزول هذه الآيات قصة حاطب بن أبي بَلْتَعَة[١] حينما كتب إلى أهل مكة يخبرهم بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم، وكان النبي ﷺ قد أخفى ذلك عليهم، كما في الصحيحين عن علي - رضي الله عنه - قال: ((بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ [٢]، فإن بها ظعينة[٣] معها كتاب فخذوا منها، قال فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتُلقينَّ الثياب، قال: فأخرجته من عِقاصها [٤]، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً[٥] يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب

(١) هو حاطب بن أبي بلتَعَة بن عمرو اللخمي، أسلم قديماً وشهد بدراً وغيرها، مات عام ٣٠هـ، انظر الإصابة ٣١٤/١، وتهذيب التهذيب ١٦٨/٢.

(٢) خاخ: موضع بين مكة والمدينة، النهاية لابن الأثير ٨٦/٢، وانظر معجم البلدان ٣٣٥/٣.

(٣) الظَّعينة: في الأصل وصف للمرأة في هودجها، ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت في بيتها، المصباح المنير ص(١٩٩).

(٤) عِقاصِها: ضفائرها، جمع عقيصة، وهو الشعر المضفور، النهاية ٢٧٥/٣.

(٥) اليد: النعمة والإحسان، المصباح المنير ص(٣٥٠).

عنق هذا المنافق، فقال: إنه شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (١).

ففي هذه الآيات ينهى الله – تعالى – عباده المؤمنين أن يتخذوا أعداء الله وأعداءهم من المشركين أولياء وأنصاراً وأصدقاء يسارعون في مودتهم ويبذلون لهم أسبابها، لا سيما وأنهم كفروا بالله – تعالى – وبرسوله، وأخرجوا الرسول ﷺ والمؤمنين من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أنهم آمنوا بالله رب العالمين، فإنه لا يليق بالمؤمنين أن يوالوا أعداء الله الكفرة المشركين إن كانوا خرجوا من ديارهم ابتغاء مرضاة الله – تعالى – وجهاداً في سبيله، وكيف يسرون بالمودة للمشركين ويخفونها مع علمهم بأن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، إن من يصنع هذا الصنيع قد ضل عن الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

ثم يبين – سبحانه – في الآية الثانية شدة عدواة المشركين للمؤمنين، وأنهم متى تمكنوا منهم وقدروا عليهم فإنهم لن يتوانوا عن التنكيل بهم وإيذائهم بالقول والفعل، بالسب والشتم، والقتل والضرب، مع هذا فهم حريصون على إضلال المؤمنين وإخراجهم من دينهم.

وفي الآية الأخيرة يبين – سبحانه – أن الحرص على القرابة والأرحام والأموال والمحافظة عليها لا تُسوّغ نصرة المشركين واتخاذهم أولياء، فإن الأولاد

(١) صحيح البخاري ٥١٩/٧ ح(٤٢٧٤)، وصحيح مسلم ١٩٤١/٤ ح(٢٤٩٤).

والأرحام لا تنفع عند الله يوم القيامة، ولا تنجي من عذابه، ذلك اليوم الـــذي يفصل فيه العليم البصير بين العباد، ففريق في الجنة وفريق في السعير [(١)].

وكما نهى الله - تعالى - عن موالاة المشركين ومناصرتهم ومساكنتهم ومحبتهم ؛ نهى عن مناكحتهم، فلا يحل للمسلم أن ينكح مشركة، ولا يحل للمسلمة أن تنكح المشرك، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ففي هاتين الآيتين ينهى الله - تعالى - المسلمين عن مناكحة المشركين [(٢)]، والحكمة في تحريم مناكحة المشركين بيّنها الله - تعـالى - بقولـه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أجل إن المشركين يدعون إلى النار بـأقوالهم، وأفعـالهم،

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٢/٥٥، وتفسير ابن كثير ٤/٣٧٠، وتفسير السعدي ٧/٣٤٨.

(٢) ويستثنى من عموم المشركات نساء أهل الكتاب، فإنه يجوز نكاحهن، بشروط معينة، لقولـه - تعـالى -: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

وأخلاقهم، فمخالطتهم والاتباط بهم ومعاشرتهم فيها خطر عظيم على مَن ناكحهم وعلى ذريته من بعده [(١)].

وكما نهى الله - تعالى - عن مناكحة المشركين نهى أيضاً عن أكل ذبائحهم، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يعني بقوله - جلّ ثناؤه -: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾: ولا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه أنتم، أو يذبحه مُوحّد يدين لله بشرائع شرعها له في كتاب متزل [(٢)]، فإنه محرم عليكم، ولا ما أهل به لغير الله مما ذبحه المشركون لأوثانهم، فإن ذلك"فسق"يعني: معصية كفر"[(٣)].

وذبيحة المشرك في حكم الميتة حتى وإن ذكر اسم الله عليها، لأن التسمية عبادة، والشرك مبطل للعبادة، فلا أثر للتسمية إذن [(٤)]، وقد حرم الله - تعالى -

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٧٤/١، وتفسير القرطبي ٥٤/٣، وتفسير السعدي ٢٧٤/١.

(٢) قوله: "أو يذبحه موحد يدين الله بشرائع شرعها له في كتاب متزل"يريد بهذا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإن ذبائحهم حلال لقوله - تعالى -: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

(٣) تفسير ابن جرير ٣٢٥/٥.

(٤) انظر إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله للشيخ عبدالعزيز بن باز ص(٣٢).

أكل الميتة بقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال - تعالى -: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

قال ابن قدامة: "وسائر الكفار غير أهل الكتاب، كمن عَبَدَ ما استحسن من الأصنام والأحجار والشجر والحيوان، فلا خلاف بين أهل العلم في تحريم نسائهم وذبائحهم"(١).

ولقد حرص الإسلام على قطع جميع الروابط مع المشركين، والتميز الكامل عنهم، وسد كل ذريعة يمكن أن تكون سبباً في مودهم وموالاتهم ومحبتهم حتى إنه نهى عن التشبه بهم، لأن التشبه بالمشركين في الظاهر يورث التشبه بهم في العقيدة، أو مودهم، أو مسايرهم وموافقتهم على أهوائهم وأخلاقهم (٢)، وقد وردت آيات كثيرة في النهي عن التشبه بالمشركين واتباع أهوائهم، منها قوله - تعالى -: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عند هذه الآية: "جعل الله محمداً ﷺ على

(١) المغني لابن قدامة ٥٤٨/٩.

(٢) انظر الولاء والبراء في الإسلام للدكتور محمد بن سعيد القحطاني ص(٣٢١).

شريعة من الأمر شرعها له وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته، و"أهواءهم"هي ما يهوونه وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل وتوابع ذلك، فموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه، ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين لهم في بعض الأمور ويسرون بذلك.

ولو فرض أن الفعل ليس من اتباع أهوائهم: فلا ريب أن مخالفتهم في ذلك أحسم لمادة متابعتهم في أهوائهم وأعون على حصول مرضاة الله في تركها"[1].

ومما ينبغي التنبيه عليه أنه ظهرت في هذا العصر دعوة غريبة وفكرة مريبة تناقض هذه العقيدة الأصيلة والملّة الحنيفة، وهي الدعوة إلى ما يسمى بالتعايش السلمي، والإخوة الإنسانية، وزمالة الأديان، ونبذ الفرقة والاختلاف والعداوة والبغضاء بين المسلمين وغيرهم من الكفرة والمشركين، وإقامة الروابط وبناء العلائق معهم [2].

ولا شك أن هذه دعوة باطلة، وفكرة خاطئة، فإن الشرك والإيمان لا يجتمعان أبداً كما قال - تعالى -: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

"فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم، وهو الكفر بهم والإيمان بالله،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص(١٤).

(٢) انظر الولاء والبراء في الإسلام ص(٣٤٦)، والجهاد وأهميته في نشر الدعوة الإسلامية للدكتور على العلياني ص(٤٤٩).

وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده، وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان، وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل، وفي فرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين"[١].

بل إن المشركين أنفسهم وإن أظهروا الود للمسلمين والرغبة في مد الجسور معهم، فهم حريصون كل الحرص على إخراجهم من دينهم وإدخالهم في ملتهم، كما قال - تعالى -: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾[النساء: ٨٩]، وقال - تعالى -: ﴿ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢].

أما الإحسان إلى المشركين غير المحاربين وبرُّهم وصلتهم، من غير محبة لهم ومودة قلبية فهي جائزة، لاسيما إذا رُجي من ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين، كما قال - تعالى -: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٥٤٢.

المبحث الرابع :الذلة والخذلان والتخبط في الدنيا

إن من آثار الشرك وعواقبه الوخيمة في الدنيا: الذلةَ والخذلان، والحيرة، والشقاء، والتخبط، والعمى، وذلك لأن المشرك ميت القلب، خبيث النفس، حرج الصدر، قد تولاه الشيطان، وأعرض عنه الرحمن، والآيات في هذا المعنى كثيرة، فمنها قوله - تعالى -: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

ففي هذه الآية يضرب الله - تعالى - مثلاً للمشرك في ضلاله وهلاكه حيث يشبهه بمن سقط من السماء فتلقته الطير في الهواء ومزقته قبل أن يصل إلى الأرض، أو عصفت به الريح فألقته في مكان بعيد مهلك [١].

يقول ابن القيم عند هذه الآية: "فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره.

ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهاً مركباً [٢]، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة، فصور

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٤٥/٩، وتفسير ابن كثير ٢٢٩/٣، وتفسير السعدي ٢٩٢/٥، والتفسير المنير ٢٢٩/١٧.

(٢) التشبيه المركب: هو ما كان التشبيه فيه تشبيهاً لأمر بأمرين أو بأكثر، أو تشبيهاً لأمرين بأمرين أو بأكثر، انظر كتاب الطراز ليحيى بن حمزة العلوي اليمني ٢٨٦/١.

حاله بصورة حال من خرَّ من السماء، فاختطفته الطير في الهواء، فتمزق مِزَقاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرَّق [(١)]، فيُقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض وإليها يصعد، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد، والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله – سبحانه وتعالى – وتؤزه أزاً وتزعجه وتُقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء"[(٢)].

ويقول صاحب الظلال: "ثم يرسم النص مشهداً عنيفاً يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد، فيهوي إلى دَرَك الشرك، فإذا هو ضائع ذاهب بدداً كأن لم يكن من قبل أبداً....

إنه مشهد الهَويِّ من شاهق ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ ﴾ أو تقذف به الريح بعيداً عن الأنظار في

(١) التشبيه المفرّق أو المفرد: هو ما كان التشبيه فيه مقصوراً على تشبيه صورة بصورة من غير زيادة، أو صورة بمعنى، انظر الطراز ١/٢٨٦.

(٢) إعلام الموقعين ١/١٨٠.

هُوَّة ليس لها قرارا.

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ"بالفاء"وفي المنظر بسرعة الاختفاء على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير.

وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق[١] إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب[٢] إليه ؛ فتتخطفه الأهواء تخطُّف الجوارح [٣]، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه"[٤].

والشرك مصدر للمخاوف والأوهام كما أن التوحيد مصدر للأمن والطمأنينة[٥]، فالمشرك مهما أوتي من قوة وسلطان، واتخذ من الجند والأعوان فإنه لا يزال في خوف ووجل وانزعاج، كما قال - تعالى -: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[آل عمران: ١٥١].

ففي هذه الآية يبشر الله - تعالى - عباده المؤمنين بأنه سيلقى في قلوب

---

(١) السامق: المرتفع، انظر المعجم الوسيط ٤٥٠/١.

(٢) يثوب: يرجع، مختار الصحاح ص(٣٨).

(٣) الجوارح من الطير: ذوات الصيد، مختار الصحاح ص(٤٢).

(٤) في ظلال القرآن ٢٤٢١/٤.

(٥) انظر حقيقة التوحيد للدكتور يوسف القرضاوي ص(٩٠).

أعدائهم المشركين الخوف والجزع والهلع[١] منهم، والذلّة لهم بسبب شركهم بالله، وعبادتهم للأصنام بغير حجة ولا برهان، هذا جزاؤهم في الدنيا، وأما في الآخرة فلهم العذاب الأليم في النار وبئس مقام الظالمين [٢].

"فمن ثم كان المشرك مرعوباً من المؤمنين لا يعتمد على ركن ويثق وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق"[٣].

والشرك سبب للمذمّة من الله – تعالى – ومن الناس، والخذلان ممن أُشرك به، كما قال – تعالى –: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء: ٢٢].

ففي هذه الآية ينهى الله – تعالى – نبيه ﷺ [وأمته داخلون في هذا الخطاب] عن الشرك، ثم يبين عاقبة ذلك وهي المذمّة والخذلان ؛ المذمة على صرف العبادة لمن لا تصلح له، والخذلان ممن أُشرك به فإنه لا ناصر إلا الله وحده، فإذا أعرض العبد عنه – سبحانه – وكله إلى من جعله شريكاً له وبئس المولى والنصير[٤].

"واللفظ ﴿فَتَقْعُدَ﴾ يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد"[٥].

(١) الهلع: أفحش الجزع، مختار الصحاح ص(٢٩٠).
(٢) انظر تفسير ابن جرير ٤٦٨/٣، وتفسير ابن كثير ٢٤٠/١، وتفسير السعدي ٤٣٥/١.
(٣) تفسير السعدي ٤٣٥/١.
(٤) انظر تفسير ابن جرير ٥٧/٨، وتفسير ابن كثير ٣٧/٣، وتفسير السعدي ٢٦٩/٤.
(٥) في ظلال القرآن ٢٢٢٠/٤.

يقول السعدي عند هذه الآية: فالله وملائكته ورسله قد نهوا عن الشرك وذموا من عَمِلَه أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه أشنعَ الخلق وصفاً، وأقبحهم نعتاً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره معه فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا بإذن الله"[(١)].

والمشرك دائماً ضيّق الصدر، مظلم القلب، كما قال - تعالى -: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ففي هذه الآية يبين - سبحانه - لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله ؛ فإن السعيد في الدنيا والآخر هو من شرح الله صدره للإسلام فاتسع له وانفسح واستنار بنور الإيمان، فاطمأنت نفسه وحَيِيَ قلبه.

وأما الشقي فهو من أضله الله فجعل صدره ضيقاً شديد الضيق، فلا تصل إليه المواعظ، ولا يدخله نور الإيمان بسبب كفره وشركه بالله - تعالى - ما لم يترل به سلطاناً، مثله كمثل الذي يكلِّف نفسه صعود السماء فلا يستطيع، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان وأصرَّ على الشرك والطغيان [(٢)].

---

(١) تفسير السعدي ٤/٢٦٩.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٥/٣٣٥، وتفسير ابن كثير ٢/١٨٠، وتفسير السعدي ٢/٤٧١.

يقول ابن جرير عند قوله - تعالى -: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ : "ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى لشغله بكفره، وصده عن سبيله يجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه حرجاً، والحَرَج أشد الضيق [١]، وهو الذي لا ينفذه[٢] من شدة ضيقه، وهو ههنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة، ولا يدخله نور الإيمان لِرَيْن[٣] الشرك عليه"[٤].

والشرك سبب للمعيشة الضيقة، والحياة البئيسة، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

ففي هذه الآية يخبر - سبحانه وتعالى - بأن من أعرض عن هداه الذي أودعه كتابه، وأنزله على رسوله، فتولى عنه و لم يقبله ويستجب له، ويتعظ بما فيه فإن له معيشة ضيقة شديدة وحياة شقية بئيسة في الدنيا والآخرة [٥]، فهو في الدنيا مهموم مغموم، وفي القبر مضيَّق عليه ومفتون، ويوم القيامة معذب وملعون [٦].

---

(١) انظر المعجم الوسيط ١/١٦٤.

(٢) أي لا يدخل إليه شيء، انظر مختار الصحاح ص(٢٨٠).

(٣) الرَّيْن: الطبع والتغطية، انظر مختار الصحاح ص(١١٢).

(٤) تفسير ابن جرير ٥/٣٣٧.

(٥) وقد اختلف في زمن هذه المعيشة الضيقة، فقيل: هي في الدنيا، وقيل: في القبر، وقيل: في الآخرة، وقيل: هي عامة في الأحوال الثلاث، والله أعلم. انظر تفسير ابن جرير ٨/٤٧٠، وتفسير السعدي ٥/١٩٨، والجواب الكافي ص(١٧٩).

(٦) انظر تفسير ابن جرير ٨/٤٦٩، وتفسير ابن كثير ٣/١٧٧، وتفسير السعدي ٥/١٩٨.

قال ابن القيم عند هذه الآية: "فإنه - سبحانه - رتب المعيشة الضَّنْك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم ففي قلبه من الفواحش والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة، والعذاب الحاضر ما فيه..."(١).

ولا شك أن المشرك من أشد الناس إعراضاً عن ذكر الله وأعظمهم نسياناً له.

والشرك سبب لزوال النعم وحلول البلايا والمحن، وقد ذكر الله - تعالى - في القرآن الكريم أمثله كثيرة لأمم سالفة حلت بها النقم وزالت عنها النعم، بسبب شركهم بالله -تعالى-، من ذلك صاحب الجنتين الذي آتاه الله -تعالى- جنتين فيهما أنواع الزروع والثمار، تجري من خلالها الأنهار، فاغتر بما آتاه الله من الأموال والثمار، وأشرك بالله - تعالى -، ولم يقبل موعظة صاحبه المؤمن، فعاجله الله بالعقوبة حيث أتلف - سبحانه - جميع ثماره وزروعه، ولذلك ندم على ما فعله واشتد أسفه على ذهاب أمواله وأصبح يقلب كفيه حسرةً على ما أنفق في جنتيه من الأموال، وتمنى أنه لم يشرك بالله - تعالى - أحداً، حيث لم ينفعه ما كان يفتخر به من الأموال والأعوان، ولم تمنعه من عذاب الله، كما قال - تعالى -: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٢-٤٣] (٢).

(١) الجواب الكافي ص(١٧٩).

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٨٩/٣، وتفسير السعدي ٤١/٥.

وهذه مملكة سبأ العظيمة التي كانت في رغد من العيش وسعة من الرزق، قد أدرّ الله عليهم النعم ودفع عنهم النقم، فأعرضوا عن التوحيد وعبدوا الشمس من دون الله [(١)]، فعاقبهم الله على شركهم حيث أرسل عليهم السيل العظيم الذي دمّر بلادهم وأغرق زروعهم، وأتلف ثمارهم، فأصبحوا في الأرض أشتاتاً متفرقين بعد ما كانوا جيراناً مجتمعين، كما قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

قال ابن كثير: "فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الآراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل"[(٢)].

ولما طغى فرعون وتكبر ورد دعوة موسى - عليه السلام - وأصر هو

---

(١) كما قال الهدد لسليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢- ٢٤].

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٤٠.

وقومه على الشرك والطغيان أنزل الله - تعالى - عليهم بأسه، وأحل بهم عقوبته، وسلب منهم نعمته وأخرجهم من ديارهم التي كانت مملوءة بالبساتين والأنهار والأشجار والثمار، والمساكن الأنيقة، والأماكن الحسنة الفسيحة، والعيشة الهنيّة الرغيدة، وأورثها بني إسرائيل ؛ كل ذلك في صبيحة واحدة [(١)]، كما قال - تعالى -: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

هذا والناظر في حال المشركين اليوم سواء كانوا من المشركين الأصليِّين أو ممن وقعوا في أوحال الشرك وهم ينتسبون إلى الإسلام يجد أنهم في حالة لا يحسدون عليها من الشقاء والتعاسة، وضيق الصدور، وفساد العقول، والخوف الشديد من المستقبل المجهول، قد استولى عليهم الشيطان، وتراكمت عليهم الهموم والأحزان، وفرقتهم الظنون والأوهام، ولذلك يتجه الكثير منهم إلى المصحات النفسية رجاء أن يجدوا فيها شفاءً لما هم فيه، ويعمد آخرون إلى التخلص من هذه الحياة الشقية التي يعيشونها وذلك بقتل أنفسهم، نسأل الله - تعالى - العافية.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٥٢/٤، وتفسير السعدي ١١/٧.

الفصل الثاني

آثار الشرك الأخروية في ضوء القرآن الكريم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الشرك محبط لجميع الأعمال.

المبحث الثاني: تحريم الجنة على المشرك وخلوده في النار.



المبحث الأول: الشرك محبط لجميع الأعمال [(١)]

إن من أعظم آثار الشرك، وأكبر مفاسده أنه يحبط جميع الأعمال الصالحة ويفسدها، فالمشرك مهما عمل من عمل فإنه لا قيمة لعمله ولا وزن في الدار الآخرة، وإنما يعجل له أجره في الحياة الدنيا، حتى إذا صار إلى الآخرة لم يكن له عمل يجزى به.

وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على بطلان أعمال المشركين وذهابها، فمن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ففي هذه الآية يخبر - سبحانه وتعالى - أن الهدى الذي اهتدى به من ذكر من الأنبياء في الآيات التي تقدمتها[(٢)] إنما حصل لهم بتوفيقه ولطفه، فهو الذي يوفق من شاء من عباده للتوحيد والإخلاص وترك الشرك والأوثان، ثم يبيّن - سبحانه - أنه لو فُرض أن هؤلاء الرسل المذكورين - صلوات الله وسلامه عليهم - أشركوا بالله - سبحانه - لأبطل أعمالهم، لأنه لا يقبل من مشرك عملاً، وفي هذا تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه، فإنه إذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار من الرسل لو أشركوا لحبطت أعمالهم فكيف بغيرهم، وهذا

---

(١) والمقصود هنا الشرك الأكبر، أما الشرك الأصغر فإنه لا يحبط إلا العمل الذي قارنه كما تقدم، انظر ص(٢٣).

(٢) في قوله - تعالى -: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾ ...... الآيات، [الأنعام: ٨٣].

شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله - تعالى - ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١][(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند هذه الآية: "والأنبياء معصومون من الشرك، ولكن المقصود بيان أن الشرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله، فكيف بغيره؟ وكذلك قوله لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥] مع أن الشرك منه ممتنع، لكن بيّن بذلك أنه إذا قدِّر وجوده كان مستلزما لحبوط عمل المشرك وخسرانه كائناً من كان، وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذا الذنب لا لغض قدر المخاطب"[(٢)].

ومثل هذه الآية قوله - تعالى - في سورة الزمر: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

ففي هذه الآية يخبر - سبحانه وتعالى - خبراً مؤكداً أنه أوحى إلى نبيه محمد ﷺ وإلى جميع الأنبياء قبله أن الشرك محبط لجميع الأعمال، موجب للهلاك والخسران [(٣)]، حتى ولو حصل من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام -،"وهذا على سبيل الفرض، والمراد تهييج الرسل، وإقناط الكفرة، وتنبيه الأمة، وأفرد

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٥٩/٥، وتفسير ابن كثير ١٦٠/٢، وتفسير السعدي ٤٣٠/٢.

(٢) الرد على البكري ص(٢٤١).

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٢٣/١١، وتفسير السعدي ٤٩١/٦.

الخطاب باعتبار كل واحد، واللام الأولى موطئة للقسم، والأخيرتان للجواب، وعطف الخسران على إحباط الأعمال من عطف المسبب على السبب"[١].

وقد أخبر الله – سبحانه وتعالى – أن عمارة المساجد والتي هي من أفضل الأعمال لا تنبغي للمشركين ولا تليق بهم، لأن المشرك لا تقبل منه قُربة، ولا تنفعه طاعة، بل أعماله كلها باطلة مردودة، وفي النار هو من الخالدين [٢]، كما قال – تعالى –: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [التوبة: ١٧].

وحينما يجمع الله – تعالى – الأولين والآخرين على صعيد واحد يوم القيامة ليقضي بينهم بحكمه، ويجازيهم بأعمالهم، يؤمّل المشركون في أعمال عملوها في الدنيا ويرجون ثوابها في ذلك اليوم العصيب، ولكنها تذهب وتبطل حينما تعرض على الحكم العدل – جلَّ جلاله – فلا ينالون بها أجراً، ولا يجدون لها نفعاً، وذلك لأنها لم تصدر من مؤمن موحد، ولم يُبتغ بها وجه الله والدار الآخرة[٣]، كما قال – تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

---

(١) التفسير المنير ٤٦/٢٤، وانظر تفسير أبي السعود ٢٦٢/٧.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٣٣٤/٦، وتفسير ابن كثير ٣٥٣/٢، وتفسير السعدي ٢٠٩/٣.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٣٨٠/٩، وتفسير ابن كثير ٣٢٦/٣، وتفسير القرطبي ١٦/٣، وتفسير السعدي ٤٧٢/٥.

وقد دلت السنة أيضاً على بطلان عمل المشرك وعـدم انتفاعـه بـه في الآخرة، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله – تبارك وتعالى –: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه))، [١].

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: ((قلت: يا رسول الله ابن جـدعان[٢] كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفرلي خطيئتي يوم الدين)) [٣].

قال القاضي عياض[٤]: "وقد انعقد الإجماع على أن الكفـار لا تـنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم، ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشد عذاباً من بعض بحسب جرائمهم"[٥].

ومن رحمة الله – تعالى – وعدله أن المشرك إذا عمل الخير ابتغاء ثواب الله وطلباً لرضاه فإن الله لا يبخسه حقه، ولا يضيع أجره، بل يجازيه على ذلـك، ولكن في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فليس له إلا النار إن مات على شـركه،

---

(١) صحيح مسلم ٢٢٨٩/٤ ح(٢٩٨٥).

(٢) هو عبدالله بن جدعان بن عمرو التيمي القرشي، كان من الكرماء الأجواد في الجاهلية، وكانت له جفنة عظيمة يطعم الناس منها كل ليلة، انظر البداية والنهاية ٢١٧/٢، والأعلام ٧٦/٤.

(٣) أخرجه مسلم ١٩٦/١ ح(٢١٤).

(٤) هو الإمام العلامة القاضي أبوالفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي المالكي، ولي قضاء سبتة، ثم غرناطة، من تصانيفه: شرح صحيح مسلم، والشفاء في حقوق المصطفى، تـوفي عام ٥٤٤هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٥١٢/٢٠، والأعلام ٩٩/٥.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ٨٧/٣.

وذلك لما روى أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسـول الله ﷺ: ((إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى[١] إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى لها)) [٢].

قال النووي: "أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا متقرباً إلى الله -تعالى-، وصرّح في هذا الحديث بأنه يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات، أي: بما فعله متقرباً به إلى الله – تعالى – مما لا يفتقر صحته إلى النية كصلة الرحم، والصدقة، والعتق، والضيافة، وتسهيل الخيرات ونحوها، وأما المؤمن فيدَّخر لـه حسـناته وثواب أعماله إلى الآخرة، ويجزى بها مع ذلك أيضاً في الدنيا، ولا مـانع مـن جزائه بها في الدنيا والآخرة، وقد ورد الشرع به فيجب اعتقاده"[٣].

---

(١) أفضى: صار، انظر المعجم الوسيط ١٩٣/٢.

(٢) صحيح مسلم ٢١٦٢/٤ ح(٢٨٠٨).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٠/١٧.

المبحث الثاني: تحريم الجنة على المشرك وخلوده في النار

إن أعظم أثر يجرُّه الشرك على صاحبه، وأكبر خطر يتهدده، وأسوأ مصير ينتظره إن مات على شركه هو أنه محروم من دخول الجنة، محكوم عليه بالخلود الأبدي في نار جهنم [١].

وقد ورد في القرآن آيات كثيرة تدل على أن المشرك ممنوع من دخول الجنة، محكوم عليه بالنار إن لم يتب من شركه، ويمت على التوحيد والإسلام، فمنها قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ففي هذه الآية الكريمة يبيّن - سبحانه - حكم المشرك ومآله الذي يصير إليه في الآخرة، وهو الحرمان من دخول الجنة والخلود في نار جهنم وبئس القرار، وليس له في ذلك اليوم من أعوان ينقذونه من عذاب الله أو أنصار، وذلك لأنه ظلم نفسه وسوى المخلوق بالله الخالق القهار [٢].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

---

(١) والمقصود هنا: الشرك الأكبر، أما الشرك الأصغر فإنه لا يوجب الخلود في النار، ولا يمنع من دخول الجنة كما تقدم، انظر ص (٢٠).

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦٥٢/٤، وتفسير ابن كثير ٨٤/٢، وتفسير السعدي ٢٤/٢.

وفي هذه الآية ينهى الله - سبحانه - نبيه ﷺ عن الشرك مبيناً عاقبة ذلك في الآخرة، وهي دخول نار جهنم - أعاذنا الله منها - مع حصول اللائمة واللعنة من الله، وملائكته، والنفس، والناس أجمعين [(١)].

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

ففي هذه الآية يخبر الله - تعالى - عن مآل الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وأنهم في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها ولا يزولون عنها، ولا يموتون فيها، فهم شرُّ البريَّة [(٢)]، وأشقى البشرية [(٣)].

وقال - تعالى -: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وفي هذه الآية ينهى الله - سبحانه - رسوله ﷺ وأمته له أسوة، عن الإشراك بالله، متوعداً من فعل ذلك بالعذاب الأليم الدائم [(٤)].

ولما لم يستطع رسول الله ﷺ هداية عمه أبي طالب إلى الإسلام، عزم على الدعاء له مكافأة له على ما قدمه له من رعاية وحماية، فنهاه الله عن ذلك، مبيناً أن الاستغفار للمشركين الذين ماتوا على شركهم أمر لا يليق بالنبي والمؤمنين

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٨/٨٢، وتفسير ابن كثير ٣/٤٤، وتفسير السعدي ٤/٢٧٩.

(٢) البريَّة: هم من برأه الله، أي خلقه، انظر القاموس المحيط ١/٦، وتفسير ابن جرير ١٢/٦٥٧.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ١٢/٦٥٧، وتفسير ابن كثير ٤/٥٧٥، وتفسير السعدي ٧/٦٥٨.

(٤) انظر تفسير ابن جرير ٨/٨٣، وتفسير ابن كثير ٣/٣٦٢، وتفسير السعدي ٥/٥٥١.

به، حتى ولو كان هؤلاء المشركون ذوي قربى، وذلك بعدما تبّن لهم أنهم من أصحاب النار، وأنها قد وجبت لهم واستحقوها بسبب شركهم، فلا ينفعهم حينئذٍ استغفار المستغفرين ولا شفاعة الشافعين [(١)]، كما قال - تعالى -: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

وعن سعيد بن المسيب[(٢)] عن أبيه[(٣)] قال: ((لما حضرت أباطالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أباجهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: أي عم قل لا إله إلا الله كلمةً أحاج لك بها عند الله، فقال أبوجهل وعبدالله بن أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبوطالب آخر ما كلمهم: على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾، وأنزل في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٤٨٧/٦، وتفسير ابن كثير ٤١٠/٢، وتفسير السعدي ٣٠٥/٣.

(٢) هو أبومحمد سعيد بن المسيب بن حَزْن المخزومي القرشي، أحد العلماء الأثبات الفقهاء الكبار، صاحب زهد وعبادة، توفي عام ٩٣هـ، انظر حلية الأولياء ١٦١/٢، وتقريب التهذيب ص(٢٤١).

(٣) هو المُسيَّب بن حَزْن بن أبي وهب المخزومي، له ولأبيه صحبة، عاش إلى خلافة عثمان، انظر التقريب ص(٥٣٢)، والإصابة ٩٩/٦.

ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] (١).

وقد أخبر الله – سبحانه – أن المشركين ومعبوداتهم من الأوثان والأصنام وقود جهنم الذي توقد به يوم القيامة خالدون فيها مخلدون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها، كما قال – تعالى –: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩] (٢).

والشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة منه (٣)، فإذا مات المشرك على شركه فإنه ليس أهلاً لمغفرة الله ورحمته التي يتفضل بها – سبحانه – على عباده الموحدين، كما قال – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

---

(١) صحيح البخاري ٥٠٦/٨ ح(٤٧٧٢)، وصحيح مسلم ٥٤/١ ح(٢٤).

(٢) تفسير ابن جرير ٨٨/٩، وتفسير ابن كثير ٢٠٦/٣.

(٣) والمقصود هنا الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر فقد تقدم أن العلماء اختلفوا فيه، فبعضهم قال: إنه لا يغفر إلا بالتوبة منه كالأكبر، وبعضهم قال: إنه واقع تحت المشيئة كسائر المعاصي، وأصحاب القول الأول لا يحكمون بخلوده في النار بل يقولون: إنه يوازن بين حسناته وسيئاته فإن رجحت حسناته دخل الجنة، وإن رجحت سيئاته عذب في النار بقدر ذنوبه ثم يكون مآله إلى الجنة، انظر ص(٢٠).

ففي هاتين الآيتين يبين - سبحانه وتعالى - أنه لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به أحداً من خلقه، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب صغائرها وكبائرها عند مشيئته ذلك حسبما تقتضيه حكمته ورحمته [١].

قال ابن جرير: "وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله"[٢].

وقال الشوكاني عند هذه الآية: "لا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء"[٣].

وقد جاءت السنة مقررة ومؤكدة لهذه الآيات حيث وردت أحاديث كثيرة[٤] تدل على أن من مات مشركاً فهو من أهل النار، ولا يدخل في أهل الرحمة والغفران، فمن ذلك حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: ((من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار)) [٥].

وعن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ: ((من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار)) [٦].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٢٨/٤، وتفسير ابن كثير ٥٢٠/١، وتفسير السعدي ٨٠/٢.

(٢) تفسير ابن جرير ١٢٩/٤.

(٣) فتح القدير ٧١٢/١.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٥٢٠/١.

(٥)أخرجه البخاري ١٧٦/٨ ح(٤٤٩٧).

(٦)أخرجه مسلم ٩٤/١ ح(٩٣).

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً، أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً)) [1].

---

(١)أخرجه أبو داود ٤/٤٦٢ ح(٤٢٧٠)، وصححه الحاكم ٤/٣٥١، والألباني في السلسلة الصحيحة ٢/٢٤ ح(٥١١)، وقوله في الحديث: ((أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً)) علق عليها في عون المعبود بقوله: "قال العزيزي في شرح الجامع الصغير: هذا محمول على من استحل القتل، أو على الزجر والتنفير، إذْ ماعدا الشرك من الكبائر يجوز أن يغفر وإن مات صاحبه بلا توبة"، عون المعبود ١١/٣٥٢.




الباب الثالث

أساليب القرآن ووسائله في محاربة الشرك

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أساليب القرآن في محاربة الشرك

الفصل الثاني: أساليب القرآن في مجادلة المشركين

الفصل الثالث: وسائل القضاء على الشرك ومقاومته في ضوء القرآن الكريم




الفصل الأول

أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك

وفيه مباحث:

المبحث الأول: النهي الصريح

المبحث الثاني: مخاطبة الفطرة

المبحث الثالث: الدعوة إلى التفكر في الآيات الكونية

المبحث الرابع: ذكر محاسن التوحيد

المبحث الخامس: التذكير بالنعم

المبحث السادس: التنديد بآلهة المشركين وإظهار عجزها وحقارتها

المبحث السابع: التشنيع بحال المشركين ورميهم بالسفه والضلال

المبحث الثامن: التذكير بعقوبة الله للمشركين السابقين

المبحث التاسع: بيان ما يحصل بين المشركين وشركائهم يوم القيامة

مدخل: التعريف بكلمة منهج، وأسلوب، ووسيلة

١) تعريف كلمة منهج:

المنهج في اللغة: الطريق الواضح البيِّن، وطريق نَهْج: بيِّن واضح، ومنهج الطريق وَضَحُهُ، والمنهاج كالمنهج، وأنهج الطريق: وضح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيِّناً [١].

والمنهج في الاصطلاح: هو الطريق الواضح في التعبير عن شيء أو في عمل شيء، أو في تعلم شيء طبقاً لمبادئ معينة، وبنظام معين بغية الوصول إلى غاية معينة[٢].

ومقصودي بعنوان هذا البحث"منهج القرآن في محاربة الشرك": بيان الطريق التي سلكها القرآن الكريم في القضاء على الشرك، وحماية المسلمين من الوقوع فيه.

٢) تعريف كلمة أسلوب:

الأسلوب في اللغة: يطلق على معانٍ مختلفة منها - وهو الأنسب بالمعنى الاصطلاحي -: الطريقة التي يسلكها المتكلم في كلامه [٣].

واصطلاحاً: "هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه،

---

(١) انظر لسان العرب ٤٥٥٤/٨، والقاموس المحيط ٢٨٨/١.

(٢) معجم المصطلحات العلمية والفنية ص(٦٩٠).

و انظر المعجم الوسيط ٩٥٧/٢.

(٣) انظر لسان العرب ٢٠٥٨/٤، والقاموس المحيط ١١١/١، ومختار الصحاح ص(٢١٥)، والمعجم الوسيط ٤٤١/١.

واختيار ألفاظه"[١].

والمقصود بأسلوب القرآن الكريم: "هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه"[٢].

ولا شك أن القرآن الكريم قد سلك أروع الأساليب وأنجعها وأفضلها في التعبير عن موضوعاته وقضاياه [٣].

ومن الموضوعات القرآنية التي عالجها القرآن الكريم بأسلوب معجز، وطريقة فذَّة: الشرك، وسأذكر في الفصلين التاليين أهم الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في محاربة الشرك ومجادلة أهله.

٣) تعريف كلمة وسيلة :

الوسيلة في اللغة تطلق على معانٍ منها - وهو المقصود هنا -: ما يتوصل به إلى الشيء، وجمعها وسائل [٤].

والمقصود ب-"وسائل القضاء على الشرك ومقاومته"في هذا الباب: الأمور التي يتوصل بها إلى القضاء على الشرك والتخلص منه، وحماية المسلمين من شره، وسأذكر أهم هذه الوسائل كما جاءت في القرآن الكريم.

---

(١) مناهل العرفان ٣٢٥/٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر شرح الطحاوية ٧٦/١، والإتقان ٢//٣٧٦.

(٤) انظر لسان العرب ٤٨٣٨/٨، والمصباح المنير ص(٣٤٠).

والوسائل باصطلاح الأصوليين: الطرق المؤدية إلى تحقيق مصلحة شرعية، انظر الفروق للقرافي ٣٢/٢، والقواعد والأصول الجامعة لابن سعدي ص(١٠).

المبحث الأول: النهي الصريح

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك النهي الصريح عنــه، حيــث وردت آيات كثيرة تنهى عن الشرك بلفظه الصريح، أو تنهى عنه بعض أنواعه، وقد جاء هذا النهي بصور مختلفة منها:

١) النهي العام عن جميع أنواع الشرك، كقوله - تعــالى -: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله - تعالى -: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم جميع أنواع الشرك دقيقها وجليلها.

٢) النهي عن بعض أنواعه، كالنهي عن الشــرك في الخــوف في قولــه - تعالى-: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقولــه - تعالى -: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، والنهي عن الشــرك في الطاعة في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦]، بتاء الخطاب وجزم الكاف على النهي، وهي قراءة ابن عامر[1] كمــا تقــدم [2]،

(١) هو أبوعمران عبدالله بن عامر بن يزيد اليَحْصُبي الشامي، أحد القراء السبعة المشهورين، ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبدالملك، توفي في دمشق عام ١١٨هـ، انظر سير أعــلام النــبلاء ٢٩٢/٥، والأعلام ٩٥/٤.

(٢) انظر ص(١٤٥)

والنهي عن الشرك في الدعاء في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، وهذا وإن كان المقصود به دعاء العبادة فإنه مستلزم لدعاء المسألة كما تقدم [(١)].

٣) توجيه النهي لأنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام -، كقوله - تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥].

وفي توجيه النهي لأنبياء الله - صلوات الله وسلامهم عليهم - مع أنهم أكمل الخلق توحيداً وإيماناً، وأبعدهم من الوقوع في الشرك، بل هم المعصومون منه ؛ تنبيه على قبح الشرك، وعظم جرمه وخطره.

٤) ذكر النهي على لسان بعض الأنبياء والصالحين، كقوله - تعالى - عن إبراهيم - عليه السلام - حينما دعا أباه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]، وقوله - تعالى - عن لقمان الحكيم في موعظة لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

٥) النهي عن كون الإنسان متصفاً بالشرك، كما قال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]،

(١) انظر ص(١٧٤)

وقوله – تعالى –: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، وقوله – تعالى –: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]، والنهي عن الكون على صفة من الصفات أبلغ من النهي عن تلك الصفة[(١)].

قال أبوحيان[(٢)]: "ونهى أن يكون منهم، والنهي عن كونه منهم أبلغ من النهي عن نفس الفعل، فقولك: لا تكن ظالماً أبلغ من قولك: لا تظلم، لأن لا تظلم نهي عن الالتباس بالظلم، وقولك: لا تكن ظالماً نهي عن الكون بهذه الصفة، والنهي عن الكون على صفة أبلغ من النهي عن تلك الصفة..."[(٣)].

(١) انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢/٢٦.

(٢) هو أبوحيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي، الأندلسي، مفسر، محدث، لغوي، من تصانيفه: تفسيره البحر المحيط، وتحفة الأريب في غريب القرآن وغيرهما، توفي في القاهرة عام ٧٤٥هـ، انظر طبقات المفسرين ٢/٢٨٦، والأعلام ٧/١٥٢.

(٣) البحر المحيط ١/٤٣٦.

المبحث الثاني: مخاطبة الفطرة

لقد فطر[1] الله - سبحانه - عباده على توحيده، ومحبته، وتعظيمه وحده دونما سواه، وغرس في نفوسهم بطلان الشرك، وقبحه.

ولو تركت الفطر على طبيعتها وأصالتها لاتَّجهت إلى الله - وحده -، وكفرت بما سواه من الشركاء والأنداد، كما قال - تعالى -: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣١].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه، كما تَنْتُج البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبوهريرة: واقرؤا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾)) [2].

وفي رواية لمسلم: ((ويُشرِّكانه)) [3].

وعن عياض بن حمار - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: ((إن الله

---

(١) الفطرة: مأخوذة من فطر: أي ابتدأ وابتدع، والمراد بها: الخِلْقَة والجبلَّة التي طبع عليها الإنسان، وركزت في نفسه.

انظر المفردات ص(٦٤٠)، وبصائر ذوي التمييز ٤/٢٠٠، ومختار الصحاح ٢١٢.

(٢) تقدم تخريجه في ص(٣١).

(٣) صحيح مسلم ٤/٢٠٤٨ ح(٢٦٥٨).

- تعالى - قال: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فجاءهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحْلَلْتُ لهم، وأمرهم أن يشركوا بي ما لم أنـزل به سلطاناً)) [(١)].

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المراد بالفطرة في الآية والحديث: الإسلام[(٢)].

قال ابن كثير في تفسير الآية: "يقول - تعالى - فسدِّد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه - تعالى - فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره"[(٣)].

وقال ابن القيم عند هذه الآية: "فبيّن - سبحانه - أن إقامة الوجه - وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته، حنيفاً مقبلاً عليه، معرضاً عما سواه - هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خُلُّوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك، ولا اختاروا سواه ؛ ولكن غُيِّرت الفطر وأُفسدت، كما قال النبي ﷺ: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه... إلى أن يقول: فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهْلٌ أن يُعْبد وإن لم

---

(١) تقدم تخريجه في ص(٢٥).

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١٨٣/١٠، وشفاء العليل ص(٤٧٨) وما بعدها، وفتح الباري ٢٤٨/٣، وفتح القدير ٣١٤/٤، وآثار حجج التوحيد ص(٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٣.

يرسل إليهم رسولاً، ولم ينزل عليهم كتاباً، ولو لم يخلق جنة أو ناراً علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته، ولا أقبح من الإعراض عنه، وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع - سبحانه - في الفطر والعقول من ذلك، وتكميله وتفصيله وزيادته حسناً إلى حسنه فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا وتوافقا.."[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالله - سبحانه - فطر عباده على محبته وعبادته وحده ؛ فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله، محباً له، عابداً له وحده ؛ لكن تفسد فطرته من مرضه كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وهذه كلها تُغَيِّر فطرته التي فُطر عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره، كما يغير البدن بالجدع، ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله - تعالى - لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة.

والرسل - صلى الله عليهم وسلم - بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها"[٢].

ولما كانت الفطرة السليمة تقتضي بذاتها التوحيد وتشهد به وتستقبح الشرك وتنفر منه، انتهج القرآن الكريم في محاربته للشرك أسلوب مخاطبة الفطرة وتذكيرها بما هو مغروس فيها ؛ حيث ذكَّر المشركين بحالهم في وقت الشدة والضرورة حينما تجتمع عليهم الخطوب، وتضيق بهم الدروب، ويلحقهم الضرر، ويدنو منهم الخطر، في ذلك الوقت الذي تزول فيه عن قلوبهم الغشاوة،

---

(١) مفتاح دار السعادة ٤٠٦/٢.

(٢) مجموع الفتاوى ١٣٥/١٠.

وتنجلي عن نفوسهم الغطاوة، فيلجأون إلى الله وحده في كشف ما هم فيه، وينسون ما كانوا به يشركون.

إن نسيان الإنسان لمن كان يشرك به ويعظِّمه ويحبه، وهو في أمسّ الحاجة إلى الناصر والمعين، والمخلِّص والمجير، من أعظم الدلائل على بطلان عبادة هذا الشريك العاجز وفسادها.

يقول الإمام القزويني[١]: الدليل على أن معرفة الله واجبة[٢] كونها من الأمور التي تصل العقول إليها، فإن الإنسان إذا دهاه أمر وضاقت به المسالك فلابد أن يستند إلى إله يَتَألَّه له، ويتضرع نحوه، ويلجأ إليه في كشف بلواه، ويسمو قلبه صعوداً إلى السماء، ويشخص ناظره إليها...، فيستغيث بخالقه وبارئه طبعاً وجبلة، لا تكلفاً وحيلة، ومثل ذلك قد يوجد في الأطفال والوحوش والبهائم أيضاً، فإنها ظاهرة الخوف والرجاء، رافعة رؤوسها إلى السماء عند فقدان الكلأ والماء، وإحساسها بالهلاك والفناء، هذا كله مركوز في جبلة الحيوانات فضلاً عن الإنسان العاقل، وهي الفطرة المذكورة في القرآن والحديث، ولكن أكثر الناس قد ذهلوا عن ذلك في حالة السراء، وإنما يردون إليه في الضراء، قال – تعالى –: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] [٣].

---

(١) هو أبومحمد طاهر بن أحمد بن محمد القزويني، المعروف بالنجار، أديب نحوي، مشارك في علوم عدة، من مصنفاته: سراج العقول في الكلام، وغاية التصريف، توفي عام ٥٥٨هـ، انظر الوافي بالوفيات ٣٩١/١٦، ومعجم المؤلفين ٣٣/٥.

(٢) الواجب عند المتكلمين: هو الموجود الذي يمتنع عدمه امتناعاً، التعريفات ص(٢٤٩).

(٣) نقلاً عن دلائل التوحيد لجمال الدين القاسمي ص(٢٤).

والآيات الواردة في مخاطبة الفطرة وتذكيرها كثيرة، فمنها قوله - تعالى -:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٥١-٥٥].

ففي هذه الآيات الكريمة ينهى الله - سبحانه - عباده عن الشرك، ويخبر بأنه هو المستحق للعبادة وحده، وأنه هو الذي يجب أن يُخاف ويُرْهَب، لأن بيده النفع والضر، وله ملك السموات والأرض، وهو الذي له الطاعة والعبادة دائماً في جميع الأوقات، فينبغي أن تُخْلَص له ويراد بها وجهه - سبحانه -، ثم ينكر - تعالى - على من يتقي غيره من الخلق، لأنه لا ينبغي أن يُتقى إلا من بيده النفع والضر، وهو الله - تعالى -، ولذلك أخبر عن نفسه - سبحانه - بأنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من عافية وصحة وسلامة، وسعة رزق فهي من فضله وجوده وإحسانه، ثم بعد هذا يذكّرهم - سبحانه - بحالهم عند الشدائد والضرورات والمهالك والملمَّات، تلك الساعة التي تنكشف عن فطرهم الغشاوة، فتبدو خالصة نقيَّة لا تتجه إلا إلى بارئها، ولا تلجأ إلا إلى خالقها.

إن الذي تفضل عليكم أيها الناس بجميع النعم، وصرف عنكم الكروب والنقم هو المستحق للعبادة وحده ؛ في الرخاء والشدة والعسر واليسر، فما بالكم تحاولون طمس نور الفطرة في نفوسكم، وتتعامون عن الحق بأفئدتكم

وقلوبكم ؛ حيث تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والضلال بعد أن أنجاكم الله – تعالى –؟

"و (إذا) في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فجائية، والإتيان بحرف المفاجأة للدلالة على إسراع هذا الفريق بالرجوع إلى الشرك، وأنه لا يتريث إلى أن يبعد العهد بنعمة كشف الضر عنه ؛ بحيث يَفْجَأون بالكفر دفعة دون أن يترقبه منهم مترقب، فكان الفريق المعني في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ فريق المشركين.

وكفر النعمة ليس هو الباعث على الإشراك.. ولكن شُبِّهَتْ مقارنة عودهم إلى الشرك بعد كشف الضر عنهم بمقارنة العلة الباعثة على عمل ذلك العمل، ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النعمة دون تريث، فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل، وهي استعارة تبعية[1] تمليحية تهكمية، ومثلها كثير الوقوع في القرآن، وقد سمى كثير من النحاة هذه اللام: لام العاقبة"[2].

وفي ختام هذه الآيات يتوعد الله – سبحانه وتعالى – من اتصف بالصفات التي ذُكرت فيها – وهم المشركون به – ويقول لهم: تمتعوا في دنياكم بما آتيناكم من النعم، فإن مصيركم ومرجعكم إلى الله، وستعلمون عند لقائه عاقبة

---

(١) الاستعارة التبعية: هي ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً أو اسماً مشتقاً أو حرفاً، انظر المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني ٢٣١/٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٧٨/١٤، ١٧٩، باختصار وتصرف يسير.

فعلكم، وسوء صنيعكم، وتندمون حيث لا ينفع الندم [(١)].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب أيضاً قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وهاتان الآيتان نظير ما سبق؛ حيث يُذكِّر الله - تعالى - فيها المشركين بحالهم عند الشدائد ؛ حيث تنكشف عن قلوبهم الغشاوة، فيتجهون بفطرهم إلى الله - تعالى - لكشف ماهم فيه.

يقول الرازي عند هاتين الآيتين: "والمقصود أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله - تعالى -، وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً، لأن الإنسان في هذه الحالة يَعْظُم إخلاصه في حضرة الله - تعالى -، وينقطع رجاؤه عن كل ما سواه، وهو المراد من قوله: ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [(٢)]، فبين أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخِلقة الأصلية في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضل الله، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات ؛ لكنه ليس كذلك، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية، ويقدم على الشرك"[(٣)].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٩٥/٧، وتفسير ابن كثير ٥٩٣/٢، وتفسير السعدي ٢٠٩/٤، وأضواء البيان ٢٥٣/٣، وفي ظلال القرآن ٢١٧٦/٤.

(٢) أي جهراً بالضراعة، وهي الضعف والذل وإسرار بذلك، انظر المفردات ص(٥٠٦).

(٣) تفسير الرازي ١٨/٣.

ونظير هاتين الايتين قوله – تعالى –: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

وقد تقدم الكلام عليهما في الباب الثاني [(١)].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب أيضاً قوله – تعالى –: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

وقوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ

(١) انظر ص (١٦٩).

تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

وغير ذلك من الآيات الدالة على أن الفطر تشهد بالتوحيد، وتقــرُّ بــه، وترفض الشرك وتكفر به، وأنها وإن دُنِّسَتْ وانحرفت عن ذلك في وقت الرخاء فإنها لا تلبث أن تعود صافية نقية حينما تحس بالخطر وتشعر بالشدة والضــرر، وهذا أمر مشاهد محسوس.

المبحث الثالث: الدعوة إلى التفكر في الآيات الكونية

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك دعوة الناس إلى التفكر في آيات الله الكونية ؛ حيث إن التأمل وإعمال النظر والفكر في هذا الكون الفسيح، ومشاهدة آيات الله العظيمة في الأنفس والآفاق يوجب للإنسان معرفة بالله – تعالى –، وربوبيته، ووحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه من الشركاء والأنداد، فإن عظمة المخلوق دليل على عظمة الخالق وقدرته، وكلّما تعرَّف الإنسان على شيء من مخلوقات الله – تعالى – ومظاهر عظمته في هذا الكون ازداد خوفاً منه، وحباً له، وإيماناً بأنه هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه.

قال خليفة العبدي[١]: "لو أن الله – تبارك وتعالى – لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكنِ المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فَمَلأَ كل شيء، وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فو الله مازال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم – تبارك وتعالى – حتى أيقنت قلوبهم بربهم – عز وجل –، وحتى كأنما عبدوا الله – تبارك وتعالى – عن رؤية"[٢].

ولقد حث الله – تعالى – في القرآن الكريم على التفكر في آياته الكونية،

---

(١) لم أجد له ترجمة، وإنما ذكره أبونعيم في الحلية ٣٠٣/٦، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٦٦/٤، وذكرا شيئاً من زهده وتقواه، ولم يتعرضا لنسبه أو وفاته. وقال ابن قُطْلُوْبَغَا في الثقات ١٦٤/٤: "من عبَّاد أهل الكوفة، ماله حديث يرجع إليه، وله الحكايات في العبادة".

(٢) أخرجه أبوالشيخ الأصفهاني في كتاب العظمة ٣٢٦/١، وقال محقق الكتاب: إسناده جيد.

وأثنى على المتفكرين فيها والمستبصرين بها، وذم من لا يتفكر في مخلوقاته الدالة على وحدانيته وعظمته، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك (١).

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن الله - تعالى - يلفت أنظار المشركين إلى مظاهر عظمته في هذا الكون، ويستدل بذلك على بطلان الشرك وفساده (٢)، والآيات الواردة في هذا المعنى كثيرة جداً، ولا يتسع المقام للإحاطة بها، وتفصيلها، وذكر ما توصل إليه العلم الحديث من الحقائق المذهلة التي تكشف عن شيء من أسرارها، وإنما سأذكر نماذج قليلة من تلك الآيات مع تعليق موجز عليها.

وهذه الآيات الكونية التي دعا الله - تعالى - إلى التفكر والتأمل فيها،

---

(١) انظر ص (٧٧).

(٢) يذكر بعض المتكلمين للاستدلال على وجود الله ما يسمى عندهم بدليلي الخلق والعناية، ويقصدون بدليل الخلق أو الاختراع: أن كل ما في هذا الكون من الموجودات مخلوق مخترع، وهذا المخلوق المخترع لابد له من خالق، وأما دليل العناية: فيقصدون به وجود النظام الدقيق المحكم في شؤون الكون ؛ بحيث إنه لو وجد بغير هذه الكيفية لاختل نظام الحياة وتعطلت مصالح الخلق، فهذا يدل على أن هناك إلهاً واحداً يدبّر هذا الكون، ويصرف شؤونه، ويستشهدون بالآيات القرآنية.

ويرى بعض المعاصرين أن هذين الدليلين يدلان أيضاً على توحيد الألوهية وبطلان الشرك، ويبدو لي أن هذين الدليلين لا يدلان على إثبات الألوهية وبطلان الشرك إلا بطريق الالتزام، فإن أنواع التوحيد متلازمة، والشرك في الربوبية مستلزم للشرك في الألوهية، انظر مناهج الأدلة لابن رشد ص(١٥٠-١٥٤)، ودلائل التوحيد للقاسمي ص(٣٢) وما بعدها، وعقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد أحمد ملكاوي ص(١٤٢)، ومباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم ص(١٢١) وما بعدها.

وتدبّرها، يقسمها بعض العلماء[1] إلى قسمين:

القسم الأول: دلالة الأنفس: وهي ما في خلق الإنسان من العجائب، والأسرار العظيمة.

والقسم الثاني: دلالة الآفاق: وهي آيات الله الباهرة، ومعجزاته الظاهرة في هذا الكون ؛ من السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والجبال، والشجر، والدواب وغير ذلك من المخلوقات العظيمة في البراري والبحار.

وقد جمع الله – تعالى – بين هاتين الدلالتين في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ففي هذه الآية يخبر – سبحانه – أنه سيظهر للمشركين المكذبين لكتابه، والمنكرين صدق رسوله ﷺ الدلائل والبراهين على بطلان قولهم من خلال آياته العظيمة ومعجزاته الباهرة في السماء والأرض وما فيهما من الدلائل الواضحة لكل مستبصر، ويظهر ذلك أيضاً من خلال أنفسهم وما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله، وعجائب قدرته، وباهر صنعته [2].

---

(١) انظر: إيثار الحق على الخلق لابن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير ص(٤٥)، وقد جعل هاتين الدلالتين مع دلالة المعجزات طرق معرفة لله – تعالى –.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٢٥/١١، وتفسير ابن عطية ١٩٩/٤، وتفسير القرطبي ٢٤٤/١٥، وتفسير ابن كثير ١١٣/٤، وتفسير السعدي ٥٩٠/٦، وأضواء البيان ٧٤/٧.
وفي المراد بالأنفس والآفاق أقوال أخرى، انظر المصادر السابقة.

آيات الله في الأنفس:

أما النفس الإنسانية ففيها من الآيات العظيمة، والعجائب الكثيرة ما يدل دلالة واضحة على عظمة الله ووحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه من الشركاء والأنداد.

ولقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن خلق الإنسان، وتطوره من حال إلى حال، واشتماله على الآيات العظيمة، والخصائص الكثيرة من العقل، والسمع، البصر، واللسان وغير ذلك من الجوارح والحواس، ودعا إلى التفكر في ذلك والاعتبار.

قال ابن القيم: "يدعو الله – سبحانه وتعالى – في كثير من آيات القرآن العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذْ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه، معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره، قال الله – تعالى –: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

فلم يكرر – سبحانه – على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة، والعلقة، والمضغة، والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، وهو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث..."[١]، ثم شرع – رحمه الله – يتحدث عن خلق الإنسان، وحواسه،

---

(١) مفتاح دار السعادة، بتصرف يسير ١/١٩٤.

وجوارحه، وما في ذلك من المعجزات الباهرة، والحكم البالغة، والآيات الواضحة، من مبدأ خلقه إلى منتهاه(١).

وفيما يلي أذكر نماذج قليلة من الآيات التي يدعو الله - تعالى - فيها عباده إلى التفكر في أنفسهم، وما تحويه أجسامهم من الآيات العظيمة الدالة على عظمته ووحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه، فمنها قوله - تعالى -: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أيها الناس آيات وعبر تدلكم على وحدانية صانعكم، وأنه لا إله لكم سواه، إذْ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يقول: أفلا تنظرون في ذلك فتتفكرون فيه، فتعلموا حقيقة وحدانية ربكم"(٢).

وفي كثير من الآيات يذكر الله - تعالى - مبدأ خلق الإنسان، والأطوار التي يمر بها حتى يصبح بشراً سوياً، ثم بعد ذلك يَضْعف ويشيخ ويهرم، ثم يموت، ويستدل بذلك - سبحانه - على وحدانيته وبطلان ما يعبد من دونه، كما قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

---

(١) انظر المرجع السابق ١/١٩٤، ١/٢٠٢.

(٢) تفسير ابن جرير ١/٤٦٠.

لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

أجل إن خلق الإنسان، ومراحل نموه التي يمر بها في بطن أمه، ثم خروجه إلى هذه الدنيا طفلاً فشاباً فكهلاً فشيخاً ؛ دليل قاطع، برهان ساطع، على وحدانية الله – تعالى –، وبطلان الشرك.

قال ابن جرير عند قوله – تعالى –: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ : "ذلك الذي فعل ذلك هو الحق لا شك فيه، وأن من سواه مما تعبدون من الأوثان والأصنام باطل ؛ لأنها لا تقدر على فعل شيء من ذلك"(١).

وقال السعدي: "أي الرب المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة"(٢).

وفي آيات أخرى يذكر – سبحانه وتعالى – منّته على عباده بأن رزقهم قلوباً يفقهون بها ويميزون بين ما ينفعهم وما يضرهم، وأسماعاً يسمعون بها الأصوات، وأبصاراً يشاهدون بها الأشياء، ويستدل بذلك على وحدانيته

---

(١) تفسير ابن جرير ١١٣/٩.

(٢) تفسير السعدي ٢٧٦/٥.

وبطلان ما يعبد من دونه ؛ لأنه هو المنعم المتفضل بهذه الأعضاء وغيرها، فينبغي أن يشكر عليها ؛ وذلك باستعمالها في طاعته وحده دونما سواه.

قال – تعالى –: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وقال – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣].

قال ابن جرير عند قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾: "فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، و لم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمة شريك"[(١)].

ومازال العلماء يكتشفون يوماً بعد يوم الكثير من الحقائق المذهلة، والمعجزات العجيبة، والأسرار البديعة التي أودعها الله – سبحانه – الجسم الإنساني [(٢)]، مما يدل دلالة واضحة على عظمة الله ووحدانيته، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

يقول أبو الشيخ الأصبهاني[(٣)]: "إذا تفكر العبد في نفسه استنارت له آيات

(١) تفسير ابن جرير ٦٢٥/٧.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ١٩٣/١، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار، والطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، المعروف بأبي الشيخ، محدث، مفسر، من تصانيفه: التفسير، وكتاب العظمة، توفي عام ٣٦٩هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٢٧٦/١٦، ومعجم المؤلفين ١١٤/٦.

الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غَمَرَاتُ[١] الشك، وظلمة الريب، وذلك إذا نظر إلى نفسه وجدها مكوَّنة مكنونة [٢]، مجموعة مُنَضَّدة [٣]، [٣]، مصوَّرة متركبة بعضها في بعض، فيعلم أنه لا يوجد مُدَبَّر إلا بمُدَبِّر، ولا مُكَوَّن إلا بمكوِّن، ونجد تدبير المدبر فيه شاهداً دالاً عليه كما تنظر إلى حيطان البناء وتقديرها، وإلى السقف المسقَّف فوقه بجذوعه وعوارضه، وتطيين ظهره ونصب بابه وإحكام غلقه ومفتاحه للحاجة إليه، فكل ذلك يدل على بانيه، ويشهد له، فكذلك هذا الجسم إذا نظرت إليه وتفكرت فيه وجدت آثار التدبير فيه قائمة شاهدة للمدبر دالة عليه، فقد أيقن الخلائق كلهم أنهم لم يكونوا من قبل شيئاً، ولا كان لهم في الأرض أثر ولا ذكر، فصاروا وهم لا يشعرون أنفساً معروفة مصورة محسومة،قد اجتمعت فيها جوارح وأعضاء بمقدار حاجتهم إليها، لم يزد لهم على ذلك و لم ينقص..."[٤].

آيات الله في الآفاق:

أما آيات الله - تعالى - في هذا الكون الفسيح فكثيرة جداً [٥]، ولا يمكن يمكن لأحد أن يحيط بجزء منها، فضلاً عن أن يحصيها ويحصرها، والإنسان إذا قلَّب نظره في هذا الكون فإنه عينه لا تقع إلا على آية من آيات الله ومعجزة من

(١) غَمرات مأخوذة من غَمَرَه إذا ستره وغطاه، لسان العرب ٣٢٩٥/٦.

(٢) مكنونة: مستورة، مختار الصحاح ص(٢٤٢).

(٣) مُنَضَّدة: مأخوذ من نَضَدَ الشيء: أي وضع بعضه على بعض، مختار الصحاح ص(٢٧٧).

(٤) كتاب العظمة ٢٧١/١، بتصرف يسير.

(٥) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٠٢/١ وما بعدها، وقصة الإيمان لنديم الجسر.

معجزاته تدل أنه الإله الواحد الحق، وأن كل ما يعبد من دونه فهو باطل.

فيا عجباً كيف الإله ** أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة ** وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شي له آية ** تدل على أنه الواحد[1]

ولقد ذكر الله - تعالى - في القرآن الكريم صوراً كثيرة من مظاهر عظمته في هذا الكون وأمر بالتفكر فيها والاعتبار والاستدلال بها على وحدانيته وبطلان ما يعبد من دونه، فمن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول - تعالى - ذكره: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله، في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض، وفيما خلق - جل ثناؤه - من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومِن فِعْل مَنْ لا تنبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه...، فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه - الذي آتاهم به من عند الله في آي كتابه - يصدقون، إن لم

(١) الأبيات لأبي العتاهية، انظر ديوانه ص(١٢٢).

يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله - تعالى-"[١].

ومنها قوله - تعالى -: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

ففي هذه الآية يرشد الله - سبحانه - عباده إلى التفكر في السموات والأرض وما فيهما من الآيات الباهرة والمعجزات الخالدة، فإن في ذلك دلالة واضحة على أن الله - تعالى - هو المعبود الحق، وأن كل ما يعبدون من دونه باطل، ولكن من سبق له من الله الشقاء - بسبب عناده وإعراضه - لا تنفعه الآيات، ولا تؤثر فيه البراهين والمعجزات [٢].

وهاتان الآيتان[٣] يدعو الله - سبحانه - إلى التفكر في الآيات الكونية عموماً، وهناك من الآيات القرآنية ما يدعو الله - سبحانه وتعالى - فيها إلى التفكر في آيات معينة من آياته الكونية، فمن ذلك:

١) السموات والأرض:

فإن خلق السموات ورفعها بغير عمد، وخلق الأرض وتذليلها وجعلها فراشاً ومهداً تقوم عليها مصالح العباد وتستقيم فيها أمور معايشهم= من أعظم الدلائل على عظمة الله ووحدانيته وبطلان ما يعبد من دونه، قال - تعالى -:

---

(١) تفسير ابن جرير ١٣٥/٦.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦١٦/٦، وتفسير ابن كثير ٤٤٩/٢، وتفسير السعدي ٣٩٤/٣.

(٣) وهما قوله - تعالى -: (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله (قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ).

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦]، وقال – تعالى –: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠]، وقال – تعالى –: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٣]، وقال – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وفي هاتين الآيتين يأمر الله – تعالى – الناس جميعاً أن يعبدوه وحده، وينهاهم أن يتخذوا معه الأنداد والشركاء، ثم يستدل – سبحانه – على وجوب إفراده بالعبادة وترك الشرك بمنته عليهم بأن أوجدهم وآباءهم من العدم، ورباهم بالنعم الظاهرة والباطنة ؛ حيث جعل لهم الأرض فراشاً يستقرون عليها وينتفعون بها، وجعل لهم السماء سقفاً وأودع فيها ما يحتاجون إليه في أمور معاشهم، وأنزل لهم من السحاب ماءً، أخرج به من أنواع الثمرات ما هو رزق لهم ولأنعامهم.

فالذي يعلم أن هذه الآيات الباهرة والنعم الكثيرة الظاهرة والباطنة هي من عند الله وحده لا ينبغي له أن يعبد معه غيره ؛ فَيُسَوِّي المخلوق الضعيف الفقير العاجز بالإله الخالق المنعم المتفضل [١].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٦٠/١، وتفسير ابن كثير ١٩٥/١، وتفسير السعدي ٥٧/١.

قال الزمخشري عند هذه الآية: "أي هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة، والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء"(١).

٢) الشمس والقمر والليل والنهار:

ومن آيات الله العظيمة الدالة على وحدانيته وعظمته، وبطلان ما يعبد من دونه؛ الشمس والقمر وحركتهما الدائبة التي ينشأ عنها حدوث الليل والنهار، وتعاقبهما على نحو منتظم محكم، تتحقق به مصالح العباد، وتستقيم عليه أمور معايشهم.

وقد دعا الله – سبحانه – في آيات كثيرة من القرآن الكريم إلى التفكر في خلق الشمس والقمر، والتأمل في تعاقب الليل والنهار، وما في ذلك من الأسرار العظيمة والحكم الكثيرة، والاستدلال بذلك على وحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه، كما قال – تعالى –: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

وقال – تعالى –: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٦].

وقال – تعالى –: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ

---

(١) الكشاف ٤٧/١.

وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦١-٦٢].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "أي هذا الفعل الذي فعلت من إيلاجي الليل في النهار، وإيلاجي النهار في الليل لأني أنا الحق الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهاً من دونه هو الباطل الذي لا يقدر على صنعة شيء، بل هو المصنوع"(١).

وقال - تعالى -: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

قال ابن كثير عند هذه الآية: "ينبه الله - تعالى - خلقه في هذه الآية على قدرته العظيمة وأنه لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر، فهو الذي خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، وتقدير سيره في سمائه ؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه - تعالى - على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال:

---

(١) تفسير ابن جرير ١٨٣/٩.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ أي ولا تشركوا بـه، فما تـنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به"(١).

٣) الرياح والمطر والنبات:

ومن آيات الله - تعالى - العظيمة الباهرة التي يستدل بها - سبحانه - على وحدانيته وعظمته، وبطلان ما يعبد من دونه، هذه الرياح العظيمة المتنوعة التي تثير السحاب وتلقِّحه، فينزل من السماء ماءً مدراراً يحيي بـه الله الأرض، وينبت به الزرع، ويخرج به من كل الثمرات، مختلفة ألوانها، متنوعة طعومها، إن من يتأمل هذه الآيات العظيمة وما تحويه من العجائب والحكم والأسرار يـوقن يقيناً لا يخالطه شك بأن الله - تعالى - هو الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، وأن جميع ما يعبد من دونه في غاية البطلان.

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن الله - تعالى - يـدعو عبـاده إلى التفكر في هذه الآيات - الرياح والمطر والنبات -، والاسـتدلال بهـا علـى وحدانيته وبطلان ما يعبد من دونه، كما قال - تعالى -: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

ففي هذه الآية يقرر الله - سبحانه - انفراده بالألوهية، ويوبخ المشـركين الذين يعدلون به غيره، وذلك بذكر بعض مظاهر عظمته في هذا الكون ؛ فهو

---

(١) تفسير ابن كثير ١١٥/٤ بتصرف، و انظر تفسير ابن جرير ١١٢/١١.

الذي يهدي عباده حينما يضلون في الطرق البرّية أو البحريّة، وهو الذي يرسل الرياح مبشرةً بنزول المطر ؛ حيث تثير السحاب، ثم تؤلف بينه، ثم تجمعه، ثم تُلَقِّحُه، ثم تُدِرُّه، إن من يفعل هذا هو المستحق للعبادة وحده، فهل يستطيع أحد أن يفعل مثل فعله حتى يُعْدَل به؟ تعالى الله عما يشركون [(١)].

وقال – تعالى –: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣-٤٤].

وفي هاتين الآيتين يذكر الله – تعالى – آية من آياته العظيمة الدالة على وحدانيته وعظمته، وبطلان ما يعبد من دونه، وذلك أنه – سبحانه – يسوق السحاب متفرقاً ثم يجمع بين أجزائه، ثم يجعله متراكماً بعضه فوق بعض، فيُرى المطر ينزل من خلل السحاب، فيسقي الله به الأرض، وينتفع به الخلق، وتارة ينزل – سبحانه – من السحاب بَرَداً يتلف ما يقع عليه من الزروع والأموال، فيصيب به – سبحانه – من يشاء من عباده، ويصرفه عمن يشاء بحسب ما تقتضيه حكمته، وهذا السحاب فيه بَرْق عظيم يكاد ضوؤه يخطف الأبصار من شدة نوره ولمعته.

أليس الذي أنشأ هذا السحاب وساقه، وجمع بينه ثم أنزل منه المطر الذي

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٦/١٠، وتفسير ابن كثير ٣٨٤/٣، وتفسير السعدي ٥٩٣/٥، والتحرير والتنوير ٢١/١٧.

تحيا به الأرض، ويخرج به الزرع هو الإله الحق المستحق للعبادة وحده دونما سواه؟.

ثم ذكر - سبحانه - آية أخرى من آياته ؛ وهو أنه يعاقب بين الليل والنهار، ويتصرف فيهما بالزيادة والنقصان، ويغاير فيهما الأحوال بالبرد والحر، والعسر واليسر، والسعادة والشقاء.

إن في هذه الآيات لعبرة وعظة لأصحاب العقول النيّرة المستقيمة، فهلاّ اعتبر بها المشركون الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى وانتهوا عن شركهم؟ [(١)].

قال ابن جرير عند قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾: "إن في إنشاء الله السحاب، وإنزاله منه الودق، ومن السماء البَرَد، وفي تقليبه الليل والنهار لعبرة لمن اعتبر به، وعظة لمن اتعظ به، ممن له فهم وعقل، لأن ذلك ينبئ ويدل على أن له مدبِّراً ومصرفاً ومقلباً لا يشبهه شيء"[(٢)].

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وفي هذه الآية يقرر الله - سبحانه وتعالى - وحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه من خلال ذكر آية من آياته العظيمة في هذا الكون، وهي أنه - سبحانه - يشق الحب والنوى، فيخرج منها أنواع الزروع على اختلاف ألوانها وأشكالها

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٧/٩، وتفسير ابن كثير ٣٠٨/٣، وتفسير السعدي ٤٣٠/٥، والتفسير المنير ١٦٥/١٨.

(٢) تفسير ابن جرير ٣٣٩/٩.

وطعومها، فكيف ينصرف هؤلاء المشركون عن عبادة الله - تعالى - ويصدون عنها مع مشاهدتهم لهذه الآيات العظيمة الدالة على الوحدانية؟ [(١)].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "وهذا تنبيه من الله - جلّ ثناؤه - لهؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم، وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياه، يقول - تعالى ذكره - إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان هو الله الذي شق الحب من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع، وشق النوى من كل ما يغرس ماله نواة فأخرج منه الشجر..." [(٢)].

وقال - تعالى -: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

قال ابن جرير عند قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾: "إن في إنزال الله المطر من السماء الذي أخرج به نبات كل شيء والخَضِر الذي أخرج منه الحب المتراكب، وسائر ما عدد في هذه الآية من

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥/٢٧٥، وتفسير ابن كثير ٢/١٦٣، وتفسير السعدي ٢/٤٣٨، والتحرير والتنوير ٧/٣٨٧.

(٢) تفسير ابن جرير ٥/٢٧٥، بتصرف يسير.

صنوف خلقه ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ يقول: في ذلك أيها الناس إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه، علمتم أن له مدبِّراً ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يقول: لقوم يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء.

وخص بذلك - تعالى ذكره - القوم الذين به يؤمنون، لأنهم هم المنتفعون بحجج الله والمعتبرون بها، دون من قد طبع الله على قلبه، فلا يعرف حقاً من باطل، ولا يتبين هدى من ضلالة [1].

---

(١) تفسير ابن جرير ٥/٢٩١.

المبحث الرابع: ذكر محاسن التوحيد

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك والتنفير منه ترغيب الناس بتوحيد الله - تعالى -، وذلك بذكر محاسن التوحيد وفضائله، ومنافعه الكثيرة في الدنيا والآخرة ؛ فإن من عرف فضائل توحيد الله - تعالى - وأيقن بثمراته العاجلة والآجلة، فإنه لا شك سيسعى إلى تحقيقه في نفسه، ويبتعد عن كل ما يضاده وينافيه من الشرك والمعاصي.

ولقد سلك رُسُل الله - عليهم الصلاة والسلام - هذا الأسلوب في دعوة أقوامهم إلى التوحيد وتنفيرهم من الشرك، حيث ذكروا لهم فضائل التوحيد، وما يترتب على تحقيقه من الثمرات الكثيرة في الدنيا والآخرة.

فهذه نبي الله نوح - عليه السلام - يدعو قومه إلى توحيد الله -تعالى-، وينهاهم عن الشرك، ويذكر لهم في أثناء ذلك شيئاً من ثمرات التوحيد ومحاسنه؛ حيث يعدهم - إن هم استجابوا له - بمغفرة الله لذنوبهم، وتأخيره لآجالهم، وذلك بعدم معاجلتهم بالعقوبة التي قد تحل بهم إن هم بقوا على شركهم، كما قال - تعالى - حكاية عنه - عليه السلام -: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [نوح: ٢-٤] [(١)].

وفي آيات أخرى يحثهم - عليه السلام - على إفراد الله - تعالى-

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٤٦/١٢، وتفسير ابن كثير ٤٥٢/٤، وتفسير السعدي ٤٨٠/٧.

بالعبادة، والتوبة إليه من الشرك واستغفاره من جميع الذنوب، ويُطْمِعُهُم إن هم فعلوا ذلك"في الغفران إذا استغفروا ربهم فهو - سبحانه - غفار الذنوب، ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ١٠]، وأطمعهم أيضاً في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها، وهي المطر الغزير الذي تنبت به الزروع، وتسيل به الأنهار، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها - وهي البنين - والأموال التي يطلبونها ويعزونها: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾[1] [نوح: ١١-١٢].

وهذا نبي الله هود - عليه السلام - يدعو قومه إلى الإيمان بالله وحده والتوبة من الشرك وجميع الذنوب، ويبين لهم أن ذلك سبب لنزول الخيرات الكثيرة من السماء، كما يعدهم - إن هم آمنوا به - أن يزيدهم الله - تعالى - قوة إلى قوتهم، كما قال - تعالى - حكاية عنه - عليه السلام -: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢].

قال ابن جرير: "الاستغفار هو الإيمان بالله في هذا الموضع، لأن هوداً دعا قومه إلى توحيد الله لِيَغْفِرَ لهم ذنوبهم، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح: ٣-٤] [2].

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧١٣/٦، و انظر تفسير ابن جرير ٢٤٩/١٢، وتفسير السعدي ٤٨٢/٧.

(٢) تفسير ابن جرير ٥٧/٧، و انظر تفسير البغوي ٣٨٨/٢.

وقال ابن كثير: "ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه"(١).

وحينما دعا إبراهيم - عليه السلام - قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك والأصنام بين لهم أن عبادة الله وحده وتقواه سبب لحصول الخيرات، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

قال ابن كثير عند هذه الآية: "وقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة"(٢).

وقال السعدي: "وهذا من باب إطلاق "أفعل التفضيل" مما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك.

وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة فإنه من آثار عبادة الله وتقواه"(٣).

وقد أخبر الله - سبحانه وتعالى - أنه إنما أنزل كتابه الحكيم على رسوله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤١٨.

(٣) تفسير السعدي ٦/٧٤.

الكريم ﷺ لئلا يعبد إلا هو وحده ولا يُشرك به أحد من خلقه، ولذلك دعا رسول الله ﷺ قومه إلى عبادة الله وحده وبشر من استجاب له بالجنة، وأنذر من عصاه وكذب دعوته بالنار، وأمرهم بالاستغفار من ذنوبهم السابقة والتي من أعظمها عبادة الأوثان، وحثهم على التوبة إلى الله والرجوع إليه ولزوم طاعته وحده، ثم ذكر لهم ما يترتب على ذلك من الفضائل والمحاسن والتي منها سعة الرزق، ورغد العيش، والحياة الطيبة إلى أن يتوفاهم الله - تعالى - في الأجل الذي قدره لهم، كما وعد أهل الفضل والبر والإحسان بالجزاء الحسن والفضل العظيم من الله - تعالى - في الدنيا والآخرة [١]، كما قال - تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١-٣].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٦/٦٢٠، و تفسير ابن كثير ٢/٤٥٠، وتفسير السعدي ٣/٤٠٠، وأضواء البيان ٣/٨، والتفسير المنير ١٢/١٢.

المبحث الخامس: التذكير بالنعم

ومن أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك التذكير بنعم الله - تعالى -، فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها [(١)]، وتعظيمه، ومن تعظيم الله – تعالى – وكمال حبه، إفراده بالعبادة، وتنزيهه عن الشرك، ولـــذلك ســـلك أنبياء الله - تعالى - هذا الأسلوب في دعوة أممهم إلى توحيـــد الله - تعـــالى - وترك عبادة الأوثان.

فهذا هود - عليه السلام - يقول لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ففي هذه الآية يذكِّر هود - عليه السلام - قومه بنعمة الله - تعـــالى - عليهم بأن جعلهم خلفاء لقوم نوح - عليه السلام - الذين أهلكهم الله بالغرق لما خالفوه وكذبوه، كما يذكرهم بنعمة أخرى منّ الله - تعالى - بها علـــيهم وخصهم بها، وهي طول الأجسام وقوتها [(٢)].

وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا

(١) انظر مجلة البيان، عدد ٦٨ ص(٣٧).

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٣٤، وتفسير السعدي ٣/٤٩.

وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

فذكَّرهم – عليه السلام – بنعمتين من نعم الله – تعالى – عليهم؛ الأولى: استخلافهم بعد قوم هود الذين أهلكهم الله – تعالى – بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم لرسولهم، والثانية: التمكين لهم في الأرض يبنون من سهولها قصوراً وينحتون في جبالها بيوتاً (١)، وأراد بذلك أن يلفت أنظارهم إلى أنه ينبغي أن يشكروا الله – تعالى – على هذه النعم، وذلك بإفراده بالعبادة وحده دون من سواه.

وهذا إبراهيم – عليه السلام – يقول لقومه: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢].

فذكّر – عليه السلام – جملة من نعم الله – تعالى – عليه وعلى غيره، والتي تستلزم إفراد الله – تعالى – بالعبادة وحده دون من سواه.

قال الرازي عند هذه الآيات: "واعلم أن إبراهيم – عليه السلام – جمع في هذه الألفاظ جميع نعم الله – تعالى – من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار

---

(١) انظر تفسير السعدي ٣/٥٣.

الآخرة"[١].

إن كل ما بالإنسان من نعمة فإنها من الله - تعالى - وحده ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ٥٣]، ونعم الله - سبحانه وتعالى - على عباده لا تعدُّ ولا تحصى، وهم وإن أدركوا شيئاً منها فإنه يخفى عليهم الكثير مما لم يشاهدوه بأبصارهم ولم يدركوه بعقولهم: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

ولقد ذكر الله - تعالى - في القرآن الكريم كثيراً من نعمه التي امتن بها على عباده، والمتأمل في الآيات التي تذكر فيها المنعم يجد أنها غالباً ما تختم بالتنديد بالمشركين والإنكار عليهم والتعجب من حالهم حيث يتفضل الله - تعالى - عليهم بالنعم العظيمة ومع ذلك يدعون غيره ويتقربون إلى من سواه.

فمن الآيات التي يخبر الله - تعالى - فيها بنعمه العظيمة على خلقه، ويدعوهم إلى شكرها، وإسدائها إلى واهبها المتفضل بها، وذلك بإخلاص العبادة له وحده وترك جميع ما يعبده من دونه، قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ

(١) تفسير الرازي ٢٤/١٢٦.

يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢٠-٢١].

ففي هاتين الآيتين ينبه الله – تعالى – عباده إلى ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة في الدنيا والآخرة حيث سخر لهم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلقه فيها من السحاب الذي ينزل منه الأمطار فيسقي بها العباد ويحيى بها البلاد، كما سخر لهم ما في الأرض من الأشجار والدواب والأنهار والبحار وغير ذلك من المنافع، وعمهم بوافر نعمه الظاهرة والباطنة التي تخفى عليهم من نعم الدين والدنيا، ثم مع هذا كله يوجد من الناس من يكفر بهذه النعم ؛ حيث يجادل في توحيد الله – تعالى – وإرساله الرسل، بغير علم عنده، ولا هدى يبين به صحة ما يقول، ولا كتاب من الله نيِّر مبين للحق، وإنما حجتهم الوحيدة هي التقليد الأعمى لآبائهم الأقدمين الذين أضلهم الشيطان وزين لهم سوء أعمالهم فاتبعوه إلى جهنم وبئس المصير [(١)].

وقال – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر:٣].

يقول ابن كثير عند هذه الآية: "ينبه الله – تعالى – عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال – تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾، أي فكيف تؤفكون بعد

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٠/١٧، و تفسير ابن كثير ٣/٤٥٩، وتفسير السعدي ٦/١٦٢، وتفسير المراغي ٧/٨٨، والتفسير المنير ٢١/١٥٩.

هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان، والله أعلم"[١].

وفي سورة النحل والتي يسميها بعض المفسرين سورة النعم[٢] يذكر الله - تعالى - في مطلع السورة عدداً كثيراً من النعم التي امتنّ بها على عباده، ثم يستدل بها على وحدانيته، وينكر على المشركين الذين يعبدون الأوثان والأصنام وهو يتفضل عليهم بأنواع النعم، ويجري عليهم أصناف الأرزاق والمنن، حيث يخبر الله - تعالى - في هذه السورة أنه امتنّ على عباده بخلق السموات والأرض، كما خلقهم هم من نطفة ثم لم يزل ينقلهم من طَوْر إلى طَوْر يُربِّيْهِم بنعمه، ويؤتيهم من فضله حتى اكتملت أجسامهم ونضجت عقولهم وأفهامهم، كما امتنّ - سبحانه - على عباده بخلق الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، وجعل لهم فيها المنافع العظيمة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وألبانها، ولحومها، إلى جانب ما فيها من الجمال والزينة، ومع ذلك فهي تحملهم وتحمل أثقالهم إلى البلاد البعيدة، كما سخر لهم الخيل والبغال والحمير، وجعلها للركوب والزينة، كما امتن عليهم - سبحانه وتعالى - بإنزال المطر من السماء، وجعله عذباً يشربون منه هم ومواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة، وينبت به شجر ترعي فيه أنعامهم، كما سخر لهم الليل يسكنون فيه، والنهار ينتشرون فيه لتحصيل معايشهم، وجعلهما يتعاقبان، وسخر لهم الشمس والقمر والنجوم ليستضيئوا بها، ويهتدوا بها في الظلمات، إلى جانب ما فيها من

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٦٠١، و تفسير السعدي ٤/١٨٣.

المنافع العظيمة للأبدان والأشجار والثمار وغيرها، كما سخر لهم ما في الأرض من الحيوانات والنباتات والمعادن وغيرها مما يحتاجون إليه وتقوم عليه مصالحهم، كما سخر لهم البحر وهيأه لركوبهم، وجعل فيه الأسماك التي يتغذون بها، وأودع فيه الجواهر واللآلي التي يتحلون بها، كما أمتنّ عليهم بنصب الجبال في الأرض حتى لا تتحرك وتضطرب بهم، وأجرى فيها الأنهار التي يشربون منها ويسقون زروعهم ومواشيهم، وجعل فيها طرقاً يتوصلون بها إلى البلاد البعيدة، ثم لما ذكر - سبحانه وتعالى - ما امتنّ به على عباده من هذه النعم العظيمة قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٧-١٨] [١].

قال ابن جرير: "يقول - تعالى ذكره - لعبدة الأوثان والأصنام: أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعم العظيمة كمن لا يخلق شيئاً، ولا ينعم عليكم نعمة صغيرة ولا كبيرة.

يقول: أتشركون هذا في عبادة هذا؟ يعرِّفهم بذلك عظم جهلهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، وقلة شكرهم لمن أنعم عليهم بالنعم التي عددها عليهم، التي لا يحصيها أحد غيره، قال لهم - جل ثناؤه - موبخاً: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أيها الناس؟ يقول: أفلا تذكرون نعم الله عليكم، وعظيم سلطانه وقدرته على ما يشاء، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعاً، ولا

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٥٨٢-٥٨٦، و تفسير السعدي ٤/١٨٣-١٩١.

تدفع عنها ضراً، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادتكموها وإقراركم لها بالألوهية.

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تطيقوا أداء شكرها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، يقول – جل ثناؤه – إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم أن يعذبكم عليه بعد الإنابة إليه والتوبة"[1].

وقال – تعالى – في نفس السورة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٢-٧٤].

ففي هذه الآيات يذكر الله – تعالى – نعمته على عباده بأن جعل لهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تَقَرُّ بهم أعينهم، ويخدموهم ويقضون حوائجهم، ورزقهم ما لذَّ وطاب من المآكل والمشارب، ثم ينكر – سبحانه – على المشركين الذين أعرضوا عن عبادته وحده واتخذوا له الأنداد والأصنام التي لا تملك لهم رزقاً من السموات والأرض، ولا تقدر على ذلك، فكيف يجعلونها أنداداً وأشباهاً لله – تعالى – في العبادة مع أن هذه

(١) تفسير ابن جرير ٥٧٣/٧.

حالها؟[١].

وقال - تعالى - في هذه السورة أيضاً: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٠-٨٣].

ففي هذه الآيات يذكر الله - تعالى - منته على عباده بأن جعل لهم البيوت التي تُكِنُّهُم من المطر والبرد، وتسترهم من الشمس، يأوون إليها هم وأولادهم ويحفظون بها أمتعتهم، وجعل لهم من جلود الأنعام البيوت الخفيفة التي ينتفعون بها حال سفرهم وحال إقامتهم، وجعل لهم من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ينتفعون به من الأوعية والآنية والفرش والألبسة وغيرها، وجعل لهم أيضاً من مخلوقاته ظلالاً يستظلون بها، كأظلة الأشجار والجبال وغيرها، وجعل لهم من الجبال كهوفاً ومغارات تكنهم من الحر والبرد والمطر وغير ذلك، وجعل لهم أيضاً ثياباً تقيهم الحر والبرد، ودروعاً تقيهم وقت الحروب، ثم يخبر

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥٩٩/٢، و تفسير السعدي ٢٢٠/٤.

– سبحانه – انه امتنّ بكل ذلك لكي يكون عوناً على طاعته، وإخلاص العبادة له وحده، فمن تولى وأعرض عن طاعة الله – تعالى – بعد هذا البيان والامتنان، فإنما على الرسول ﷺ البلاغ المبين، وقد أداه، وأما الهداية فهي بيد الله – تعالى –، وقد عرف هؤلاء المشركون أن الله – تعالى – هو المتفضل عليهم بهذه النعم، ومع ذلك كفروا به وأشركوا معه غيره، فسيرون جزاء الله لهم [(١)].

قال ابن كثير عند قوله – تعالى –: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ : "أي يعرفون أن الله – تعالى – هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع ذلك ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره"[(٢)].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦٠١/٢، و تفسير السعدي ٢٢٥/٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٦٠٢/٢.

المبحث السادس: التنديد بآلهة المشركين وإظهار عجزها وحقارتها

إن العبادة بجميع أنواعها لا ينبغي أن تصرف إلا لمستحقها، وهو الله - تعالى-، فهو المتصف بالصفات الكاملة، وهو الذي له الخلق، وإليه الأمر، يعطي ويمنع، ويضر وينفع.

وأما ما يُعبد من دونه من آلهة فجميعها باطلة لأنها لا تملك الصفات التي تنبغي في المعبود ؛ فهي أوثان ناقصة عاجزة، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضراً، ولذلك ندّد بها القرآن الكريم، وأنكر عبادتها وبيّن ضعفها وعجزها وحقارتها، وسخر من عابديها، جاء ذلك في آيات كثيرة جداً وبأساليب متنوعة منها:

١) وصف آلهة المشركين بأنها مخلوقة ؛ والعبادة إنما تنبغي للخالق لا للمخلوق، كما قال - تعالى -: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وقال - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأحقاف: ٤].

٢) وصف آلهة المشركين بأنها ميتة لا روح فيها، وما كان بهذه الصفة ماذا

يرجى من عبادته، وأنى يستجيب لداعيه !؟ قال - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

قال الزمخشري عند هذه الآية: "نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين، وأحياء لا يموتون، وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون، وأنهم أموات، وأنهم جاهلون بالغيب"[١].

"فتباً لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها ؛ حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها"[٢].

٣) وصف آلهة المشركين بأنها فاقدة للسمع والبصر والأيدي والأرجل، وما كان بهذه الصفة فإنه لن ينفع عابده ولن يجيب داعيه، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

---

(١) الكشاف ٢/٣٢٥.

(٢) تفسير السعدي ٤/١٩٢.

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول - تعالى ذكره - لهؤلاء الذين عبدوا الأصنام من دونه، مُعَرِّفَهم جهل ما هم عليه مُقيْمُون: ألأصناكم هذه أيها القوم ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ فيسعون معكم ولكم في حوائجكم، ويتصرفون بها في منافعكم؟ ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ فيدفعون عنكم، وينصرونكم بها عند قصد من قصدكم بشر ومكروه؟ ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ فيعرفونكم ما عاينوا وأبصروا مما تغيبون عنه فلا ترونه؟، ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فيخبرونكم بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه؟ يقول - جل ثناؤه -: فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتها، والمعظَّم من الأشياء إنما يعظَّم لما يرجى منه من المنافع التي توصل إليه بعض المعاني عندكم، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضر؟"(١).

وقال - تعالى - عن إبراهيم - عليه السلام - حينما دعا أباه إلى ترك الشرك:

﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾[مريم:٤٢].

وقال لقومه: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢].

وقال - تعالى - منكراً على المشركين عبادهم للأصنام: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾[فاطر: ١٤].

(١) تفسير ابن جرير ٦/١٥٠.

٤) الإخبار بأن هذه الآلهة التي تُعبد من دونه ليس لها أدنى ملك، لا على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، كما قال - تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢].

قال ابن القيم عند هذه الآية: "فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه ؛ فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك ؛ فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ؛ فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى - سبحانه - المراتب الأربع نفياً مترتباً، منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى المِلْك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب منها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفي بهذه الآية نوراً، وبرهاناً، ونجاةً، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك، مَوَادِّه لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع، وفي قوم قد خلوا من قبل، و لم يُعَقِّبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن"(١).

وقال السعدي: "فهذه أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر، والشجر وغيرهم، قطعها الله وبيّن بطلانها تبييناً حاسماً لمواد

(١) مدارج السالكين ١/٣٧٢.

الشرك قاطعاً لأصوله.

لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله لما يرجو منه من النفع فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعوه غير الله لا مالكاً للنفع والضر، ولا شريكاً للمالك، ولا عوناً، ولا ظهيراً للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك كان هذا الدعاء، وهذه العبادة ضلالاً في العقل، باطلة في الشرع"[(١)].

وقال - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

والقطمير: هو القشرة التي تكون على النواة [(٢)].

"والمعنى: لا يملكون شيئاً ولو حقيراً، فكونهم لا يملكون أعظم من قطمير معلوم بفحوى الخطاب، وذلك حاصل بالمشاهدة، فإن أصنامهم حجارة جاثمة لا تملك شيئاً بتكسب ولا تحوزه بهبة، فإذا انتفى أنها تملك شيئاً انتفى عنها وصف الإلهية بطريق الأولى، فنفي ما كانوا يزعمون من أنها تشفع لهم"[(٣)].

٥) بيان أن هذه الآلهة التي تعبد من دونه لا تنطق ولا تتكلم، ولا شك أن هذه صفة نقص لا تليق بالمعبود، بل هي دالة على حقارته وبطلانه، قال - تعالى -: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟

---

(١) تفسير السعدي ٦/٢٧٥.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١٠/٤٠٣.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢٢/٢٨٣.

ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

قال الخازن[1]: "يعني أن هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب، ولا يهدي إلى رشد، ولا يقدر على ذلك، ومن كان كذلك كان جماداً أو حيواناً ناقصاً عاجزاً، وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد"[2].

وقال - تعالى - في شأن هذا العجل الذي عبده بنو إسرائيل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩].

أي: إن كلموه لم يرد عليهم جواباً.

قال ابن جرير: "أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم وإله موسى لا يكلمهم وإن كلموه لم يرد عليهم جواباً، ولا يقدر على ضر ولا نفع، فكيف يكون من كانت هذه صفته إلهاً؟"[3].

ولقد احتج إبراهيم - عليه السلام - على بطلان آلهة قومه بكونها لا تنطق، فإنهم لما سألوه هل هو الذي كسَّر أصنامهم؟ أجابهم بقوله: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وأراد بذلك الأصنام المكسرة - اسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسَّر اسألوه

---

(١) هو علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، الشافعي، الشهير بالخازن، مفسر، محدث، من مصنفاته تفسيره لباب التأويل في معاني التتريل، وشرح عمدة الأحكام في الفقه، توفي في حلب عام ٦٤١هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ٤٢٢/١، والأعلام ٥/٥.

(٢) تفسير الخازن ٢٥٠/٢.

(٣) تفسير ابن جرير ٤٤٨/٨، و انظر تفسير ابن كثير ١٧١/٣.

لماذا كسرها؟ ومقصوده بهذا إقامة الحجة عليهم وإلزامهم بالإقرار ببطلان عبادتها، ولذلك أقروا على أنفسهم بالظلم والشرك والضلال، ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، ولكنهم لم يثبتوا على هذه الحالة بل انتكست عقولهم، وضلت أفهامهم فقالوا لإبراهيم -عليه السلام-: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، أي كيف تستهزئ بنا حيث تأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟[1].

٦) بيان ضعف آلهة المشركين وعجزها الشديد حيث لا تجلب لعابديها نفعاً ولا تدفع عنهم ضراً، وإذا كانت بهذه الحالة فما الفائدة من عبادتها والتعلق بها، إنه الضلال البعيد والخسران المبين، قال - تعالى -: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾[الإسراء: ٥٦].

ففي هذه الآية يقول الله - تعالى - لنبيه محمد - عليه الصلاة والسلام -: قل للمشركين الذين يدعون غير الله من الأوثان ويلجأون إليها: ادعوا هذه الأوثان التي زعمتموها آلهة حينما يترل بكم الضر فإنهم لا يستطيعون كشف الضر عنكم ولا تحويله إلى غيركم، لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله - تعالى - وحده لا شريك له، وهذا دليل على بطلان هذه الآلهة وحقارتها [2].

وقال - تعالى -: ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ

---

(١) انظر تفسير السعدي ٢٤٢/٥.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٩٤/٨، و تفسير ابن كثير ٥٠/٣، وفتح القدير ٣٣٥/٣.

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾ [الحج: ١٢-١٣].

وقال - تعالى -: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

بل بيّن الله - تعالى - أن هذه الآلهة التي تعبد من دونه لا تملك لأنفسها نفعاً ولا تستطيع أن تدفع عنها ضراً، فكيف تستطيع أن تنفع غيرها أو تنصره؟ قال - تعالى: ﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وقال - تعالى -: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

المبحث السابع: التشنيع بحال المشركين ورميهم بالسفه والضلال

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك والتنفير منه، الشنيع بحال المشركين وتسفيه عقولهم وتضليل آرائهم؛ فإن الشرك بالله - تعالى - من أقبح القبائح وأنكر والمنكرات وأعظم الضلالات، وأكبر السفاهات؛ حيث يرضى المشركُ لنفسه أن يتذلل ويخضع لمخلوق مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، إنه لا يقدم على ذلك إلا من غرق في الجهالة وتاه في الضلالة، وأمعن[١] في الإساءة، وانهمك[٢] في الغواية، وقد وردت آيات كثيرة يصف الله - تعالى - فيها المشركين بالجهل والضلال والسفه، فمن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

ففي هذه الآية يصف الله - تعالى - من أشرك به بأنه قد بلغ الغاية في الضلال والبعد عن الهدى.

"ومَنْ [هنا] استفهامية، والاستفهام إنكار وتعجب، والمعنى: لا أحد أشد ضلالاً وأعجب حالاً ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له دعاءه، فهو أقصى حد في الضلالة"[٣].

---

(١) أمعن: بالغ، المعجم الوسيط ٨٧٨/٢.

(٢) انهمك: جدَّ، مختار الصحاح ص(٢٩١).

(٣) تفسير التحرير والتنوير ١١/٢٦.

قال ابن جرير عند قوله – تعالى –: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾: "يقول – تعالى ذكره –: وآلهتهم التي يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة، لأنها لا تسمع ولا تنطق، ولا تعقل، وإنما عنى بوصفها بالغفلة تمثيلها بالإنسان الساهي عمّا يقال له، إذْ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئاً، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه، وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم وقبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادة مَن جميع ما بهم من نعمته، ومَن به استعانتهم عندما يترل بهم من الحوائج والمصائب"(١).

وقال – تعالى –: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١١٦].

وفي هذه الآية يحكم – سبحانه وتعالى – على من أشرك به بالضلال البعيد عن الحق، والزوال الشديد عن الهدى، والخسران المبين في الدنيا والآخرة (٢).

ومثل هذه الآية قوله – تعالى – في حق المشرك: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢]، وقوله – تعالى –: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[الرعد: ١٤].

وحينما دعا إبراهيم – عليه السلام – قومه إلى توحيد الله – تعالى – وترك الأوثان رفضوا دعوته، وأصروا على عبادة الأوثان، محتجين بما كان عليه آباؤهم، فرد عليهم – عليه السلام – مسفهاً لأحلامهم، مضللاً لآرائهم وآراء

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٧٣/١١.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١١٧/٤، و تفسير ابن كثير ٥٦٨/١.

آبائهم: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

ولما أفحمهم - عليه السلام - وأبطل دعواهم في إلهية أوثانهم وأقروا على أنفسهم بأنها لا تنطق ولا تضر ولا تنفع، قال لهم موبخاً لهم منكراً عليهم متهكماً بهم ساخراً من حالهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

"قبحاً لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون قُبْحَ ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع، فتتركوا عبادته، وتعبدوا الله الذي فطر السموات والأرض، والذي بيده النفع والضر"(١).

ولما أخبر النبي ﷺ قومه بأنه منهي عن عبادة ما يدعونه من دون الله بيّن لهم أنه لو اتبع أهواءهم ووافقهم في ذلك صار ضالاً مثلهم، وهذا على سبيل الفرض، فإنه ﷺ معصوم من ذلك (٢)، قال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

"وجملة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ جواب لشرط مقدر، أي إن اتبعت أهواءكم إذن قد ضللت.

(١) تفسير ابن جرير ٤٢/٩.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٢٠٨/٥، و تفسير السعدي ٤٠٧/٢.

وتقديم جواب"إذن"على"إذن"في هذه الآية للاهتمام بـالجواب، ولـذلك الاهتمام أكد بـ"قد"مع كونه مفروضاً، وليس بواقع للإشارة إلى أن وقوعه محقق لو تحقق الشرط المقدر الذي دلت عليه"إذن".

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ عطف على ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ عطف عليه للدلالة على أنه جزاء آخر للشرط المقدر، فيدل على أنه إن فعل ذلك يخرج عن حاله التي هو عليها الآن من كونه في عداد المهتدين إلى الكون في حالة الضلال، وأفاد مع ذلك تأكيد مضمون جملة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ لأنه نفى عن نفسه ضد الضلال، فتقررت حقيقة الضلال على الفرض والتقدير"[1].

وقد شبه الله – تعالى – المشركين فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل بالبهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفهم معناه، ووصفهم – سبحانه – بأنهم صم عن سماع الحق، بكم لا ينطقون به، عمي عن رؤية طريقه، لا ينظرون نظر تفكر واعتبار [2]فقال – سبحانه –: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

"فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذِيْدَ[3] عن الفساد، ونهى عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصحَ،

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٦٢/٧ باختصار.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢١٠/١، و تفسير السعدي ٢٠٣/١، وفي ظلال القرآن ١٤٩/١.

(٣) ذيد: طرد، مختار الصحاح ص(٩٤).

وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل ونبذ الحق أن هـــذا ليس له مُسْكَة[1] من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء فإنـــه مـــن أسفه السفهاء"[2].

---

(١) مُسْكَة: بقية، مختار الصحاح ص(٢٦١).

(٢) تفسير السعدي ١/٢٠٣.

المبحث الثامن: التذكير بعقوبة الله للمشركين السابقين

لقد حث القرآن الكريم على النظر في أحوال الأمم الغابرة (١)، وكيف كان مصيرهم حينما كذبوا رسلهم وأشركوا بالله ما لم يترل به سلطاناً، فإن سنة الله - تعالى - لا تتبدل ولا تتغير، ولا تحابي أحداً أو تجامله، كما قال - تعالى -: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال - تعالى -: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]، ولذلك كان أنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام - يُذَكِّرون أقوامهم بعاقبة من سبقهم من الأمم، وينذروهم أن يصيبهم ما أصاب من كذب وأشرك منهم لعلهم يعتبرون بذلك ويتعظون.

فهذا نبي الله هود - عليه السلام - يُذَكِّر قومه بما حل بقوم نوح - عليه السلام - حينما كذبوه وردوا دعوته وبقوا على شركهم، كما قال - تعالى - حكاية عنه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول: فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا ما حلّ بقوم نوح من العذاب إذْ عصوا رسولهم، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها، فاتقوا الله أن يحل

---

(١) الغابرة: الماضية، انظر المصباح المنير ص(٢٢٩).

بكم نظير ما حلّ بهم من العقوبة، فيهلككم ويبدل منكم غيركم، سُنَّتَّه في قوم نوح قبلكم على معصيتكم إياه وكفركم به"[١].

وهذا نبي الله صالح – عليه السلام – يذكِّر قومه بما حلّ بقوم هود – عليه السلام –، وينذرهم أن يصيبهم ما أصابهم إن هم ردوا دعوته وأصروا على الشرك وعبادة الأوثان، كما قال – تعالى – حكاية عنه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وهذا نبي الله إبراهيم – عليه السلام – يذكِّر قومه بما حلّ بالأمم المكذبة للرسل قبلهم، ويحذرهم أن يصيبهم ما أصابهم إن هم كذبوه وخالفوا أمره، كما قال – تعالى – حكاية عنه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

أي كذب أمم قبلكم أنبياءهم فأهلكهم الله – تعالى – وعاجلهم بالعذاب، فلم يضروا رسلهم، وإنما ضروا أنفسهم بشركهم وتكذيبهم [٢].

وفي آيات كثيرة يأمر الله – تعالى – رسوله محمداً ﷺ أن يحث قومه على النظر في أحوال من سبقهم من الأمم، والتأمل في ديارهم، والاعتبار بما حلّ بالمشركين منهم كما قال – تعالى –: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ

---

(١) تفسير ابن جرير ٥/٥٢٣.

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/٤٦٣، و تفسير القرطبي ١٣/٢٢٢، وتفسير الخازن ٣/٣٧٨، وتفسير البضاوي ٢/٢٠٦، ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية خطاب لمشركي قريش، انظر تفسير ابن جرير ١٠/١٢٩، و تفسير ابن كثير ٣/٤١٩.

بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠-١١].

ففي هاتين الآيتين يسلّي - سبحانه وتعالى - رسوله ﷺ في تكذيب قومه له، ويتوعد من كذبه من المشركين بالهلاك العاجل الذي حلّ بمن قبلهم من الأمم المكذبة، ثم يأمر رسوله ﷺ أن يحث قومه المشركين بالله - تعالى - المكذبين لرسوله أن يسيروا في الأرض ويتجولوا في ديار من سبقهم من الأمم الشركية المكذبة، وينظروا كيف كان عاقبة شركهم وتكذيبهم، وما حلّ بهم من النكال والعذاب مع ما ادّخر الله لهم من العذاب الأليم في الآخرة، إن من ينظر إلى تلك الديار بعين البصيرة فإنه لا شك سيترجر عن عن مشابهتهم، ويبتعد عن مثل أفعالهم [(١)].

وقال - تعالى -: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٤٢].

قال ابن جرير: "يقول - تعالى ذكره - لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: سيروا في البلاد فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم، وكذبوا رسوله، كيف كان آخر أمرهم، وعاقبة تكذيبهم رسل الله، وكفرهم، ألم نهلكهم بعذاب منا، ونجعلهم عبرة لمن بعدهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ يقول فعلنا ذلك بهم لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلهم"[(٢)].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٥٤/٥، وتفسير ابن كثير ١٢٩/٢، و تفسير السعدي ١٢٩/٢.

(٢) تفسير ابن جرير ١٩٢/١٠.

قال القرطبي: "وهذا السفر مندوب إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار مَنْ خَلاَ من الأمم وأهل الديار، والعاقبة آخر الأمر"[١].

وقال النووي: "باب البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين ومصارعهم، وإظهار الافتقار إلى الله - تعالى -، والتحذير من الغفلة عن ذلك[٢]، وذكر حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه لما وصلوا الحِجْر[٣]: ((لا تدخلوا على هؤلاء إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم[٤] مثل ما أصابهم)) [٥]، وفي رواية لمسلم: ((لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم زجر[٦] فأسرع حتى خَلَّفَها)) [٧].

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين في هذا الزمان يذهبون إلى تلك الديار للسياحة والنزهة، وربما فعلوا عندها بعض المنكرات.

والآيات التي تدعوا إلى النظر والاعتبار في أحوال الأمم السابقة كثيرة، فمنها قوله - تعالى -: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) تفسير القرطبي ٢٥٤/٦.

(٢) رياض الصالحين ص(٣٥٠)، و انظر زاد المعاد ٥٣١/٣.

(٣) الحِجْر: ديار ثمود ؛ قبيلة نبي الله صالح، وهي شمال المدينة بينها وبين الشام، وتعرف اليوم بمدائن صالح، انظر معجم البلدان ٢٠٢/٢.

(٤) أي خشية أن يصيبكم.

(٥)أخرجه البخاري ٣٨١/٨ ح(٤٧٠٢)، وصحيح مسلم ٢٢٨٥/٤ ح(٢٩٨٠).

(٦) أي زجر ناقته.

(٧) صحيح مسلم ٢٢٨٦/٤ ح(٢٩٨٠).

ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل: ٦٩].

وقوله - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[يوسف: ١٠٩].

وقوله - تعالى -: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

وقوله - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠].

هذا ولا شك أن أعظم ذنب عوقبت عليه تلك الأمم هو الشرك بـالله، كمـا قـال - تعـالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣].

ففي هذه الآية يخبر الله - تعالى - أنه قد أهلك الأمم الماضـية بسـبب شركهم بالله - تعالى - ومخالفتهم أمره بعد ما جاءهم رسلهم بالبينات والحجج الواضحات، على صدق ما جاؤا به، فلم يؤمنوا بهم، ويجيبوهم إلى ما دعـوهم إليه من توحيد الله - تعالى - وإخلاص العبادة له، وترك عبادة الأوثان، ثم يبين - سبحانه - أنه كما أهلك تلك القرون الماضية كذلك يهلك من شابههم وفعل مثل فعلهم من هذه الأمة، وفي هذه الآية تخويف لكفار قريش الـذين كـذبوا

رسول الله ﷺ، واستمروا على شركهم، وهذه سنة الله – تعالى – في جميع الأمم [(١)].

قال ابن جرير عند قوله – تعالى –: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾: "يقول – تعالى ذكره –: كما أهلكنا هذه القرون من قبلكم أيها المشركون بظلمهم أنفسهم، وتكذيبهم رسلهم، وردهم نصيحتهم ؛ كذلك أفعل بكم، فأهلككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رسولكم محمداً ﷺ، وظلمكم أنفسكم بشرككم بربكم إن أنتم لم تنيبوا وتتوبوا إلى الله من شرككم، فإن ثواب الكافر بي على كفره عندي أن أهلكه بسخطي في الدنيا، وأورده النار في الآخرة"[(٢)].

(١) انظر تفسير البغوي ٣٤٦/٢، وتفسير الخازن ٤٣١/٢، و تفسير السعدي ٣٣٣/٣.

(٢) تفسير ابن جرير ٥٣٨/٦، و انظر نفس المرجع ١١٠/٧.

المبحث التاسع: بيان ما يحصل بين المشركين وشركائهم يوم القيامة

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك تصوير ما يحصل يوم القيامة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة، وتنصل[١] المعبودين من جناية هؤلاء العابدين، وإنكارهم أن يكون لهم يد في إضلالهم وشركهم [٢]، وكفر العابدين بالمعبودين، وجحد عبادتهم.

إن من عرف مصير تلك الآلهة المدَّعاة، وموقفها من عابديها في يوم أحوج ما يكون فيه الإنسان إلى الشافع والنصير، فإنه لن يجترئ أن يتأله لمخلوق كائناً من كان.

ولقد صور القرآن الكريم ذلك الموقف، وتلك المجادلة تصويراً بليغاً، وعرض تلك المخاصمة عرضاً بديعاً، وذلك في آيات كثيرة، منها قوله -تعالى-:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم

(١) انظر دعوة التوحيد، لهراس ص(٣٨).

(٢) التنصُّل: التبرؤ، انظر مختار الصحاح ص(٢٧٦).

﴿بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

ففي هذه الآيات يذكر الله - تعالى - حال المشركين الذين جعلوا له الأمثال والنظراء يعبدونهم من دونه، ويحبونهم كحبه، يذكر الله - تعالى - حالهم حينما يعاينون العذاب الشديد يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يوقنون فيه بأن القوة كلها لله - سبحانه -، وأن الأمر كله بيده، وأن جميع المخلوقات تحت قهره وسلطانه، وأن أندادهم التي يتعلقون بها عاجزة حقيرة لا تستطيع نصر أنفسها فضلاً عن غيرها، حينئذٍ يخيب ظنهم، ويبطل سعيهم، ويشتد كربهم، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ويكفر التابعون بالمتبوعين، وتنقطع بينهم العلائق والأواصر والصلات، ويتمنى التابعون أن يُردّوا إلى الدنيا لكي يتبرؤوا من متبوعيهم، ويخلصوا العبادة لله وحده، وأنّى لهم ذلك، فإن الوقت ليس وقت إمهال، وهم مع ذلك كاذبون لأنهم لو ردوا لعادوا لما نهو عنه كما قال - تعالى -: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]، فهم كاذبون في دعواهم هذه [1].

"إنه مشهد مؤثر: مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين، بين المحبين والمحبوبين، وهنا يجيء التعقيب المُمِضّ[2] المؤلم:

(١) انظر تفسير ابن جرير ٧١/٢، و تفسير ابن كثير ٢٠٨/١، وتفسير السعدي ١٩٧/١.

(٢) المُمِضُّ: الموجع، انظر مختار الصحاح ص(٢٦١).

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

إن المودة والولاء والحب الذي يكون بين الأتباع والمتبوعين في الدنيا ينقلب إلى بغض وعداوة وتبرؤ وتلاعن في الآخرة، كما قال - تعالى -: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقال - تعالى - حكاية عن إبراهيم - عليه السلام -: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وفي سورة الأعراف يذكر الله - تعالى - مشهدين من مشاهد الحسرة والخذلان، والخزي والخسران للمشركين الذين افتروا عليه الكذب، فنسبوا له النظراء والأنداد، وكذبوا بآياته الموصلة إلى الهدى والرشاد.

---

(١) في ظلال القرآن ١/٥٤.

أما المشهد الأول فهو مشهدهم حينما تتخلى عنهم آلهتهم التي كانوا يدعونها من دون الله، وتغيب عنهم في وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى المعزّ والنصير، ذلك أن تلك الآلهة شغلت بأنفسها، وحينئذٍ يشهدون على أنفسهم بالكفر، واستحقاق العذاب.

وأما المشهد الثاني فهو مشهدهم حينما يحكم الله - تعالى - عليهم بدخول النار لينضموا إلى أمثالهم من الأمم السابقة من الجن والإنس ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ حتى إذا اجتمعوا فيها وتلاحقوا قال متأخروهم من الأتباع لأوائلهم من الرؤساء المتبوعين: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وذلك لأنهم السبب في إضلالهم، فيدعون الله - تعالى - أن يضاعف عليهم العقوبة[1]، فيجيبهم الله - تعالى - بأن لكل منهم عذاباً مضاعفاً [2]، فيرد المتبوعون - المدعو عليهم - على الأتباع الداعين بأنه ليس لكم فضل علينا، فقد اشتركنا في الشرك والضلال، قال الله - تعالى - لهم

(١) كما قال - تعالى - عنهم في آية أخرى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ } [الأحزاب:٦٧-٦٨].

(٢) ولا شك أن عذاب المتبوعين والأئمة المضلين أعظم من عذاب الأتباع، كما قال - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال - تعالى -: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النحل: ٢٥].

جميعاً: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[1].

يقول الله – تعالى – مصوراً ذينك المشهدين: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٧-٣٩].

وقال – تعالى – عنهم في حال محشرهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥/٤٧٨، و تفسير ابن كثير ٢/٢٢١، و تفسير السعدي ٣/٢٤، وفي ظلال القرآن ٣/١٢٨٩، والتفسير المنير ٨/١٩٩.

ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وقال – تعالى –: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الصافات: ٢٧-٣٣].

وهناك آيات أخرى يخبر الله – تعالى – فيها أن المعبودين من دونه من الأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين وغيرهم يعلنون براءهم من عبادة عابديهم وعدم رضاهم بها وغفلتهم عنها، ويشهدون الله على ذلك، كما قال – تعالى–:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

نعم، في ذلك الموقف العصيب الذي يحشر فيه الناس جميعاً، يأمر الله – تعالى – المشركين وشركاءهم أن يلزموا مكانهم، ثم يفرق الله – تعالى – بينهم وبين شركائهم، تفريقاً حسياً بالأبدان، ومعنوياً بقطع العلائق والصلات، وحينئذٍ يتبرأ المعبودون من عُبّادِهم، وتحصل بينهم العداوة الشديدة بعد أن بذلوا

لهم في الدنيا خالص الحب، وصفو الوداد،"وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك، ولا رضي به، ولا أراده، بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه"[1].

في ذلك اليوم تَخْتَبِرُ كلُ نفس ما قدمت، وتتفقد ما عملت من خير أو شر، حيث تجازى بحسبه ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[2].

وقد أخبر الله - تعالى - أن عيسى - عليه السلام - يتبرأ ممن عبده، وينكر ما نسب إليه من ادعاء الألوهية، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[المائدة: ١١٦-١١٧].

كما أخبر - سبحانه - أن الملائكة يتبرؤون من عابديهم، كما قال

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٣١.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦/٥٥٥، و تفسير ابن كثير ٢/٤٣١، و تفسير السعدي ٣/٣٤٨، والتفسير المنير ١١/١٥٩.

- تعالى -: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

بل إن الشيطان الذي لم يُعبد معبود من دون الله إلا بأمره وإغوائه وتزيينه يتبرأ من معبوديه يوم القيامة، ويكفر بشركهم، كما قال - تعالى -: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وحينما يشتد الكرب ويعظم الخطب يوم القيامة يُسأل المشركون ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، وعند ذلك يحارون ويضطربون في الإجابة، فتارة ينكرون إشراكهم [(١)]، ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وتارة يقولون: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [غافر: ٧٤]، وتارة يعترفون

(١) وذلك حينما يرون أن الله - تعالى - يغفر لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب، ولا يغفر الشرك، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما، انظر تفسير ابن جرير ١٦٧/٥، والدر المنثور ٢٩٢/٢.

بشركهم، ويشيرون إلى آلهتهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَ﴾[النحل: ٨٦]، ولكنهم في ذلك الوقت يعترفون ببطلانها، ويقرون بعجزها عن نفعهم، ومع ذلك ترد عليهم تلك الآلهة المزعومة، وتكفر بشركهم، وتتبرأ من عبادتهم، وتكذب دعواهم، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

وحينئذٍ يستسلمون جميعاً لله - تعالى -، ويخضعون لحكمه، ويعلمون أنهم مستحقون لعذابه، ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[النحل: ٨٧] (١).

---

(١) انظر تفسير السعدي ٤/٢٢٨.




الفصل الثاني

أساليب القرآن الكريم في مجادلة المشركين

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الاستفهام التقريري والإنكاري

المبحث الثاني: القصص القرآني

المبحث الثالث: ضرب الأمثال

المبحث الرابع: السبر والتقسيم

المبحث الخامس: التسليم

المبحث السادس: الاستدلال بأن ما يدعونه مستحيلٌ عقلاً

المبحث السابع: مجاراة الخصم لتبيين خطئه

المبحث الثامن: المباهلة




المبحث الأول: الاستفهام التقريري والإنكاري

تعريف الاستفهام:

الاستفهام لغة: طلب الفهم [١].

واصطلاحاً: طلب العلم بشيء، بواسطة أداة من أدوات الاستفهام [٢].

وعرفه بعضهم بقوله: "الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأدوات خاصة"[٣].

والاستفهام يخرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مختلفة منها: التقرير، والإنكار.

فالإقرار في اللغة: الإذعان للحق [٤]، والتقرير: الحَمْل على الإقرار.

واصطلاحاً: حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده[٥].

وعرف بعضهم الاستفهام التقريري بقوله: "هو الاستفهام عن المقدمات البيِّنة البرهانية، التي لا يمكن لأحد أن يجحدها، وهي تدل على المطلوب لتقرير

(١) انظر المعجم الوسيط ٧٠٤/٢، والإتقان ٢١٨/٢.

(٢) المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني ١٠٨/٢.

(٣) علم المعاني للدكتور بسيوني عبدالفتاح ص ١١٠/٢.

(٤) القاموس المحيط ٢٠٠/٢.

(٥) البرهان في علوم القرآن ٣٤٤/٢، وانظر المعجم المفصل في علوم البلاغة للدكتورة إنعام عكاوي ص١٣٢.

المخاطب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل [١].

والإنكار في اللغة: الجهل والجحود، والاستنكار: استفهامك أمراً تنكره[٢].

والاستفهام الإنكاري اصطلاحاً: هو الاستفهام الذي يراد به تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، وإما لأنه قد هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله [٣].

والاستفهام الإنكاري له معنيان: التوبيخ، والتكذيب [٤].

وقد سلك القرآن الكريم هذا الأسلوب - الاستفهام - في محاورة المشركين، وإقناعهم ببطلان ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأنداد.

"والمتأمل في القرآن الكريم يظهر له بوضوح وجلاء أن الاستفهام فيه قد بلغ من الروعة والجِدّة والغنى والتنوع في أساليبه ومعانيه حداً لا يدانيه فيه استفهام في كلام آخر"[٥].

والاستفهام في القرآن المكي أكثر منه في القرآن المدني، وذلك لأنه يخاطب مشركي مكة المكذبين المعاندين، وأكثر معانيه تفيد الإنكار والتعجب والتوبيخ

---

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٧٦.

(٢) انظر القاموس المحيط ٢/٢٤٣، ومختار الصحاح ص ٢٨٣، والمعجم الوسيط ٢/٩٥١.

(٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٩٣ بتصرف يسير.

(٤) انظر المنهاج الواضح للبلاغة ٢/١٠٨، والإتقان ٢/٢١٩.

(٥) أساليب الاستفهام في القرآن، لعبدالعليم السيد فودة ص ٤٩٦، بتصرف يسير.

والوعيد والاحتقار [١].

ومن أمثلة الاستفهام التقريري في سياق مجادلة المشركين ما يلي:

١) قوله تعالى: عن يوسف عليه السلام - مخاطباً صاحبيه في السجن: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

فالمراد بهذا الاستفهام تقريرهما بإبطال ودنيهما [٢].

قال أبو حيان عند هذه الآية: "ثم أورد - عليه السلام - الدليل على بطلان ملة قومهما بقوله: ﴿ ءَأَرۡبَابٞ ﴾ فأبرز ذلك في صورة الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام، وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق، والمعنى: أعبادة أرباب متكاثرة في العدد خير أم عبادة واحد قهار، وهو الله؟ فمن ضرورة العاقل أن يرى خيريَّة عبادته"[٣].

٢) قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ ﴾[الرعد: ١٦].

قال الزمخشري: "﴿ قُلِ ٱللَّهُۚ ﴾ حكاية لاعترافهم وتأكيد عليهم ؛ لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض، لم يكن لهم بدٌّ أن يقولوا: الله، كقوله: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ

(١) انظر المرجع السابق ص ٤٨٧.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٧٤/١٢.

(٣) البحر المحيط ٣١٠/٥، بتصرف يسير.

لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك؟ فإذا قال: هذا قولي، قال: هذا قولك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستئنافاً منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كَيْتَ وكيت.

ويجوز أن يكون تلقيناً، أي إن كَعُّوا[1] عن الجواب فَلَقِّنْهم، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه"[2].

٣) قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٣].

قال القرطبي: "وهذا استفهام لتقرير الحجة ؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فما معنى عبادتكم لها؟"[3].

ومن أمثلة الاستفهام الإنكاري ما يلي:

١) قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١].

قال الشوكاني: "والاستفهام في هذه الآية للتقريع والتوبيخ ؛ أي كيف يجعلون لله شريكاً لا يخلق شيئاً ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع عنهم"[4].

٢) قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ

---

(١) كَعُّوا: أحجموا وتركوا، انظر لسان العرب ٣٩١/٧.

(٢) الكشاف ٢٨٤/٢، و انظر تفسير أبي السعود ١٢/٥.

(٣) تفسير القرطبي ٧٤/١٣، وللاستزادة من الأمثلة انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد عبدالخالق عظيمة ٤٨٤/٣.

(٤) فتح القدير ٣٨٦/٢، بتصرف يسير، و انظر التحرير والتنوير ٢١٥/٨.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

قال أبوالسعود[١]: "هذا إنكار ونفي لأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال"[٢].

٣) قوله تعالى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

قال أبوالسعود: "هذا خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله - سبحانه - والاصطفاء بالشيء جعله خالصاً، والهمزة للإنكار"[٣].

٤) قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

قال أبوحيان: "حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، وسووا بينه وبينه، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾، ثم وبخهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي مثل هذا لا ينبغي أن تقع فيه الغفلة"[٤].

---

(١) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، فقيه، أصولي، مفسر، ولي القضاء في القسطنطينية وغيرها، ثم تولى الإفتاء، من مصنفاته: تفسيره: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، وتهافت الأمجاد في الفقه الحنفي، توفي عام ٩٨٢هـ في القسطنطينية، انظر الأعلام ٥٩/٧، ومعجم المؤلفين ٣٠١/١١.

(٢) تفسير أبي السعود ٧٨/٨، بتصرف يسير.

(٣) تفسير أبي السعود ٧٣/٥، بتصرف يسير، و انظر أساليب الاستفهام في القرآن ص ١٩٦.

(٤) البحر المحيط ٤٨١/٥.

المبحث الثاني: القصص القرآني

أسلوب القصة أمر محبب للنفس، تصغى إليه وترتاح لسماعه، وتتأثر بما فيه، وتحفظه بسهولة، وتحرص على إشاعته بين الناس، وذلك لأنه يأخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها.

وهو من أوسع أساليب القرآن الكريم، لاسيما في موضوع توحيد الله - تعالى-، والنهي عن عبادة من سواه.

وقد عُني القرآن الكريم بهذا الأسلوب، واتخذه سبيلاً للإقناع والتأثير [1].

وقصص القرآن الكريم كلها حق وصدق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[آل عمران: ٦٢].

وهي أيضاً أحسن القصص، وذلك لما تتميز به من الخصائص التي لا توجد في غيرها من القصص، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

وقد ذكر الله - تعالى - في القرآن الكريم كثيراً من القصص، وأكثرها قصص الأنبياء - عليهم السلام -، وقد تضمنت دعوتَهم لأقوامهم ومواقف

(١) انظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣٠٥، ومناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٧٩، والمدخل إلى التفسير الموضوعي ص ١١٩، والقصة القرآنية هداية وبيان للدكتور وهبة الزحيلي ص ١١.

أقوامهم منهم، والمعجزات التي أيدهم الله - تعالى - بها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين منهم [١]، قال تعالى بعد أن ذكر جملة من أنبيائه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يقص على الناس رجاء أن يعتبروا فيؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦][٢].

والمقصود من قصص القرآن هو الاعتبار بها والاتعاظ بما فيها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقد سلك القرآن الكريم هذا الأسلوب في مجادلة المشركين لإقناعهم ببطلان الشرك، وسوء عاقبته، يظهر ذلك جلياً في قصص الأنبياء - عليهم السلام -.

وسأقتصر على ذكر قصة واحدة من تلك القصص، وهي قصة إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه وقومه، فهي من أوضح الأمثلة في هذا الباب، وقد

(١) انظر مباحث في علوم القرآن للقطان ص ٣٠٦.

(٢) انظر مع قصص السابقين في القرآن لصلاح الخالدي ٢٢/١.

ذكر الله – تعالى – هذه القصة في سور متعددة من القرآن الكريم في مشاهد متنوعة، وأساليب مختلفة، وسأتعرض في هذا المبحث لبعض مشاهدها المتعلقة بإنكار الشرك ومحاورة أهله.

دعوة إبراهيم – عليه السلام – لأبيه:

لقد دعا إبراهيم – عليه السلام – أباه إلى عبادة الله وحده، وحاول صرفه عن عبادة الأوثان، وبين له أنها لا تتمتع بشيء من خصائص الألوهية، فهي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ولا تغني عنه شيئاً.

وقد تلطَّف – عليه السلام – في دعوته لأبيه، وأظهر له نصحه، وشفقته عليه، ولكن لم يجد ذلك مع أبيه الفظ الغليظ، فقد أصرّ على كفره وعناده، ورد نصيحة ابنه، بل هدده بالرجم[1] إن لم ينته عن سبّ آلهته، ودعوته إلى التوحيد، ثم أمره بهجره زمناً طويلاً، فقابل إبراهيمُ – عليه السلام – هذه القسوةَ والشدة بالرفق واللين [2]، قال تعالى واصفاً تلك المحاورة: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

(١) واختلف في المراد بالرجم، فقيل: بالشتم والكلام القبيح، وقيل: بالحجارة، انظر تفسير ابن جرير ٣٤٧/٨، وزاد المسير ١٦٦/٥.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٣٤٦/٨، وتفسير ابن كثير ١٢٩/٣، وتفسير السعدي ١١٤/٥.

يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾

[مريم: ٤١-٤٨].

قال الزمخشري عند هذه الآيات: "انظر حين أراد أن ينصح أباه، ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم، والارتكاب الشنيع،كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق وساقه أرشق[١] مساق، مع استعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن ؛ حيث لم يَسِم[٢] أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس عندك، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه، ثم ثبَّطَه ونهاه عما كان عليه مبيناً له أن الشيطان الذي استعصى على ربه الرحمن هو عدوه الذي لا يريد به إلا كل هلاك وخزي ونكال، وهو الذي ورطه في هذه الضلالة، وأمره بها وزينها له، ثم خوفه سوء العاقبة، وما يجره عليه ما هو به من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب ؛ حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، ولكن قال: أخاف أن يمسك عذاب، فذكر الخوف والمس ونكَّر العذاب، وصدَّر كل نصيحة من النصائح

(١) أرشق: أحسن، انظر معجم الوسيط ٣٤٧/١.

(٢) يَسِم: يصف، انظر المعجم الوسيط ١٠٣٢/٢.

الأربع بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً.

ولما هدم مذهب أبيه بالحجج القاطعة، وناصحه هذه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناداه باسمه، ولم يقابل: (يَا أَبَتِ) بـ (يا بُني)، وأنكر عليه رغبته عن آلهته، وتوعده بالرجم، وأمره أن يهجره زماناً طويلاً، فقابل إبراهيم – عليه السلام – كل ذلك بغاية الرفق واللين"[1].

وقال أبو السعود: "ولقد سلك – عليه السلام – في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل، لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا يَنْكَب[2] بالكلية عن مَحَجَّة[3] الرشاد"[4].

مناظرته – عليه السلام – للملك الذي ادعى الربوبية:

عرض القرآن للقصة: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

---

(١) الكشاف ٤١٢/٢ بتصرف واختصار.

(٢) يَنْكَب: يعدل ويميل، انظر مختار الصحاح ص(٢٨٢).

(٣) المَحَجَّة: جادة الطريق، مختار الصحاح ص(٥٢).

(٤) تفسير أبي السعود ٢٦٧/٥.

ففي هذه الآية يقص الله – تعالى – مناظرة نبيه إبراهيم – عليه السلام – للملك الجبار الذي غره ملكه وأطغاه فادَّعى الربوبية، وأنكر وجود الله – تعالى –، ودعا الناس إلى عبادة نفسه، وهو ملك بابل[1] نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وقد كان قد طلب من إبراهيم – عليه السلام – دليلاً على وجود الله – تعالى – فذكر له – عليه السلام – دليلاً على ذلك، وهو إحياء النفوس وإماتتها، فادّعى الملك أنه يستطيع ذلك، وأراد بذلك أنه يأتي بالرجلين قد استحقا القتل فيقتل أحدهما ويعفو عن الآخر، وهذه مكابرة منه وتمويه وتزوير، فإن المقصود بالإحياء والإماتة إيجاد الحياة في المعدومات، وإزالتها عند انتهاء الأعمار بالممات، ولما رأى إبراهيم – عليه السلام – تكبُّر هذا الطاغية وتجاهله معنى الإحياء والإماتة قال له مبطلاً لمقولته، ناقضاً لفريته، ملزماً له بِطَرْدِ[2] دليله إن كان صادقاً: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، وعند ذلك بهت ذلك الجبار، وانقطعت حجته، ولم يجد جواباً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

إنكاره على قومه عبادة الأصنام وتكسيره لها:

عرض القرآن للقصة: قال – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ

(١) بابل: مدينة قديمة كانت في العراق، وتقع على نهر الفرات، انظر معجم البلدان ١/٣٠٩.

(٢) أي: إجراؤه على شبيهه.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١/٣٢٠، وتفسير السعدي ١/٣١٩، والقصة القرآنية للزحيلي ص(٥٩).

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

ففي هذه الآيات يذكر الله - تعالى - قصة خليله إبراهيم -عليه السلام-

الذي امتن عليه بالرشد، وألهمه الحق والحجة [(١)]، وتفضل عليه بالنبوة، يذكر - تعالى - قصته مع قومه وإنكاره عليهم عبادة الأصنام وتكسيره لها، حيث سألهم سؤال استنكار عن هذه الأصنام التي مثلوها، وصوروها على صور بعض المخلوقات ثم أقاموا على عبادتها، فلم يكن لهم جواب ودليل على ذلك إلا التقليد الأعمى لآبائهم، فرد عليهم - عليه السلام - بأنهم هم وآباؤهم في ضلال مبين، وأي ضلال أعظم من ضلال الشرك؟ إن الباطل لا يمكن أن يكون حقاً وإن فعله الآباء والأجداد، فردوا عليه متسائلين مستغربين: هل ما جئتنا به هو الحق أم هو كلام لاعب مستهزئ؟ فأجابهم - عليه السلام - إجابة المؤمن الواثق مبيناً سفههم، وقلة عقولهم، وغفلتهم عن دلائل الوحدانية: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، إن الرب الذي يستحق العبادة هو الذي خلق السموات والأرض والمتصرف فيهما، وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة رسله - عليهم الصلاة والسلام-؟.

ثم أقسم - عليه السلام - قسماً أسمعه بعض قومه أن يكيد لأصنامهم كيداً يريهم به عجزها وضعفها وعدم قدرتها على الانتصار لأنفسها.

وكان لهم عيد يخرجون إليه، فلم يخرج معهم إبراهيم - عليه السلام - حينما خرجوا معتذراً بأنه سقيم، فلما تولوا عنه وخرجوا ذهب إلى أصنامهم بخفية وكسرها كلها إلا كبيرها، وذلك لأجل أن يرجعوا إليه ويظنوا أنه هو

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

الذي كسرها غيرةً منه، لأنها تعبد معه، ولكي يعلموا أن هذه الأصنام لا تدفع عن نفسها ولا عن غيرها، حيث لم يدافع هذا الكبير عن صغاره.

فلما رجع قومه من عيدهم ورأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي غضبوا لذلك وامتعضوا [١]، وسألوا عمن فعل ذلك بها ورموه بالظلم، فأخبرهم بعض الناس أنهم سمعوا شاباً اسمه إبراهيم يعيب هذه الأصنام ويذكرها بسوء، فلما تحققوا أنه إبراهيم جاؤا به على مرأى من الناس ومسمع لكي يحضروا ويشاهدوا مصير من أهان آلهتهم وكسرها.

فلما حضر الناس وحضر إبراهيم – عليه السلام – سألوه هل هو الذي كسر أصنامهم؟ فأجابهم إبراهيم – عليه السلام – ملزماً لهم مقيماً الحجة عليهم بأن الذي كسرها هو كبيرها غضباً عليها لما عبدت معه، وأمرهم أن يسألوا الأصنام التي كُسّرت لِمَ كسرت، والصنم الكبير الذي لم يكسَّر لأي شيء كسرها؟ فإن كانوا قادرين على النطق فإنهم سيخبرونكم، وأراد بذلك أن ينبههم إلى حقارة هذه الأصنام وعدم أهليتها للعبادة، حيث لا تنطق ولا تسمع ولا تبصر، وعند ذلك رجع قومه بالملامة على أنفسهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ولزمتهم الحجة بإقرارهم بأن ما هم عليه باطل[٢]، ولكنهم لم يستمروا على ذلك، فقد رجعوا إلى غيهم وانتكست عقولهم، ثم عادوا إلى المجادلة بالباطل، واحتجوا على إبراهيم – عليه السلام – قائلين له: إنك تعلم أن هذه الآلهة لا تنطق، فلماذا تأمرنا أن نسألها؟،

---

(١) امتعضوا: غضبوا وتألموا، انظر المعجم الوسيط ٢/٨٧٧.

(٢) وقيل: لاموا أنفسهم لعدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، انظر تفسير ابن كثير ٣/١٩٢.

فقال لهم إبراهيم – عليه السلام – عندما أقروا بأنها لا تنطق ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها ولا عن غيرها: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ، إن هذا هو عين الضلال وغاية الحمق والسفاهة: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ، أين عقولكم أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال؟

فلما أقام – عليه السلام – عليهم الحجة، ودحض شبهتهم وأبان عجزهم عدلوا إلى استعمال القوة ولجؤوا إلى البطش والشدة، حيث حكموا عليه بالإحراق بالنار انتصاراً لآلهتهم الباطلة، حيث جمعوا حطباً كثيراً وأضرموا ناراً عظيمة وألقوه فيها، ولكن هيهات أن تمسه بسوء، والله – تعالى – حافظه وناصره؟ فقد أمر الله – تعالى – تلك النار أن تكون برداً وسلاماً عليه، فكانت عليه برداً وسلاماً ؛ حيث لم يصبه منها أذى أو مكروه، وبطل كيد المشركين، وغلبهم الله فكانوا هم الخاسرين في الدنيا والآخرة [1].

مناظرته – عليه السلام – لعباد الكواكب من قومه:

يقول الله – تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٥/٩، وتفسير ابن كثير ١٩٠/٣، وتفسير السعدي ٢٣٨/٥، والتفسير المنير ٧٣/١٧، والقصة القرآنية ص(٦١)، والقصص القرآني للدكتور فضل عباس ١٥٩.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٩].

ففي هذه الآيات يذكر الله – تعالى – قصة إبراهيم – عليه السلام – مع قومه عَبَدَة النجوم، حيث أنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام واتخاذها آلهة من دون الله، وبين أن ذلك ضلال واضح بيِّن حيث يعبد من لا يستحق العبادة من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

ثم يذكر – تعالى – منّته على إبراهيم – عليه السلام – حيث أراه خلق السموات والأرض وما فيهما من العجائب والمعجزات الدالة على وحدانية الله وعظمته.

ثم يصور – سبحانه وتعالى – تلك المناظرة التي جرت بين خليله إبراهيم – عليه السلام – وعُبَّاد الكواكب الذين يعبدون النجوم ويجعلون لها الهياكل في الأرض فيعبدونها، وقد قصد – عليه السلام – بهذه المناظرة إبطال ألوهية هذه الكواكب وعدم استحقاقها للعبادة.

فلما أظلم عليه الليل رأى كوكباً مضيئاً فقال على وجه التنزُّل مع الخصم

والتسليم له: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [(١)]، فلما غاب ذلك الكوكب قال: لا أحب الذي يغيب ويختفي عن عبده،"فإن المعبود لابد أن يكون قائماً بمصالح من عبده ومدبرًا له في جميع شؤونه"[(٢)].

ثم انتقل إلى كوكب آخر أشد إضاءة من الأول، وهو القمر فإنه لما رآه طالعاً مضيئاً قد زاد نوره على نور الكوكب قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ، فلما غاب تبيّن أنه ليس أهلاً للعبادة، لأن المعبود الحق لا ينبغي أن يغيب عن عابده كما مضى، وعند ذلك سأل الله – تعالى – الهداية إلى الحق والعصمة من الضلال.

ثم انتقل إلى كوكب آخر أكبر من الكوكب والقمر وأكثر إضاءة منهما، وهو الشمس، فإنه لما رآها طالعة مضيئة قال تنزلاً وفرضاً: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، فلما غابت صرح حينئذٍ بعقيدته وأعلن البراءة من أصنام قومه، وأسلم وجهه لفاطر السموات والأرض وحده دونما سواه، وأبطل اعتقاد قومه الضالين بالحجة الباهرة، والبرهان الواضح [(٣)].

---

(١) قال ابن كثير: "وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة، فروى ابن جرير من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير. والحق أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، تفسير ابن كثير ١٥٦/٢ باختصار، و انظر تفسير السعدي ٤٢٥/٢، وأضواء البيان ١٨٠/٢، ومناهج الجدل في القرآن الكريم ص(١٨٠).

(٢) تفسير السعدي ٤٢٤/٢.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٢٣٨/٥، وتفسير ابن كثير ١٥٥/٢، وتفسير السعدي ٤٢٣/٢، والتفسير المنير ٢٦١/٧.

قال ابن القيم تعليقاً على هذه المناظرة: "لقد ناظر إمامُ الحنفاء - صلوات الله وسلامه عليه - قومَه في بطلان إلهية الكواكب أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته، ودُحضت حجتهم، فقال بعد أن بيّن بطلان إلهية الكوكب والقمر والشمس بأُفُولها وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهداً غير غائب، كما لا يكون إلا غالباً قاهراً غير مغلوب ولا مقهور، نافعاً لعباده، يملك لعابده الضر والنفع فيسمع كلامه ويرى مكانه، ويهديه ويرشده، ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه، وذلك ليس إلا لله وحده، فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ ، وفي ذلك إشارة إلى أنه - سبحانه - خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوامة لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويديرها ويربُّها [١]، والمحتاج المخلوق المربوب المدبَّر لا يكون إلهاً"[٢].

(١) يَرُبُّها: يملكها، انظر القاموس المحيط ١/٩٣.

(٢) إغاثة اللهفان ٢/٦١٠.

المبحث الثالث: ضرب الأمثال

تعريف المثل:

المثل: هو تمثيل شيء بشيء لوجود عنصر أو أكثر من عناصر التشابه بينهما[١].

وعرَّفه ابن القيم بقوله: "هو تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار[٢] أحدهما بالآخر [٣].

فوائد ضرب الأمثال:

وضرب الأمثال له فوائد كثيرة، وأهداف متنوعة، منها: التوضيح، وتقريب المعنى إلى الذهن، وتثبيت المعنى في النفس بتذكر صورته.

يقول الزمخشري: "ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المُتَخَيَّل في صورة المتحقق، والمُتَوَهَّم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسَوْرَة[٤] الجامح[٥] الأبي"[٦].

---

(١) الأمثال القرآنية للميداني ص(٢٢).

(٢) الاعتبار: القياس، انظر التعريفات ص(٣٠).

(٣) إعلام الموقعين ١/١٥٠.

(٤) السَّوْرَة: الشدة والحدة والهيجان، انظر المعجم الوسيط ١/٤٦٢.

(٥) الجامح: هو من ركب هواه فلم يمكن رده، انظر المرجع السابق ١/١٣٢.

(٦) الكشاف ١/٣٧.

ويقول الزركشي[(١)]: "وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، الاعتبار، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس ؛ حيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

ولقد امتنّ الله – تعالى – على عباده بأن ضرب لهم الأمثال، وذلك لما تضمنته من الفوائد، قال – تعالى –: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وقال – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، وقال – تعالى –: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]"[(٢)].

أمثلة ضرب الأمثال في سياق مجادلة المشركين:

استعمل القرآن الكريم أسلوب ضرب الأمثال في مجادلة المشركين وإقناعهم ببطلان الشرك ؛ حيث ضرب الأمثال الكثيرة لبيان فساد الشرك، وإظهار عجز آلهة المشركين وحقارتها، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

---

(١) هو أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي الشافعي المصري، فقيه، أصولي، مفسر، من مصنفاته: البرهان في علوم القرآن، والبرهان في أصول الفقه، توفي عام ٧٩٤هـ، انظر طبقات المفسرين ١٥٨/٢، والأعلام ٦٠/٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٥٧٢/١، بتصرف يسير، و انظر الإتقان ٣٦٤/٢.

١) قوله - تعالى -: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم: ٢٨].

ففي هذه الآية الكريمة يضرب الله - تعالى - للمشركين مثلاً من واقع أنفسهم يعرفونه ويقرون به، وهو أن أحدهم لا يرضى أن يشاركه أحد من عبيده الأرقاء في رزقه، بحيث يكون هو وإياه متساويين فيه كالشريك الحر، يخاف قسمه للمال كما يخاف قسمة الشريك الحر لماله؛ فإذا كانوا لا يرضون بذلك لأنفسهم فكيف يرضون لله - تعالى - شركاء من خلقه مع أهم مقرون بأهم عبيد مملوكون له - سبحانه -، إن هذا هو غاية الجهل والسفه [(١)].

يقول ابن القيم عند هذه الآية: "وهذا دليل قياس احتج الله - سبحانه - به على المشركين، حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومن أبلغ الحجاج أن يَأْخُذ الإنسان من نفسه، ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها، معلوم لها..."[(٢)].

٢) قوله - تعالى -: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٢٩].

ففي هذه الآية يضرب الله - تعالى - مثلاً للمشرك في إشراكه، والموحد

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٠/١٨٢، وتفسير ابن كثير ٣/٤٤١، وتفسير السعدي ٦/١١٣.

(٢) إعلام الموقعين ١/١٥٩.

في توحيده وإخلاصه، حيث يشبه المشرك بالعبد الذي يملكه شركاء كثيرون، وهم مع ذلك متنازعون فيه غير متفقين، كل له فيه حاجة ومطلب يخالف حاجة الآخر فيه مطلبه، كيف تتصور حالة هذا العبد مع هؤلاء الشركاء المتشاحين المتنازعين؟ أمَّا الموحد فيشبهه الله - تعالى - بالعبد الخاص برجل واحد، لا يملكه غيره ولا يتصرف فيه أحد سواه، فهل يستوي هذا وهذا؟ كلا فشتان بينهما.

كذلك المشرك الذي يدعو عدة آلهة فهو دائماً في تخبط وحيرة وضلال[1].

أما المخلص الموحد فهو في راحة تامة، وطمأنينة كاملة.

"وهذا من أبلغ الأمثال، فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه، ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون"[2].

٣) قوله - تعالى -: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد: ١٤].

ففي هذه الآية يضرب الله - تعالى - مثلاً للمشركين الذين يدعون غير الله - تعالى -، حيث يشبههم بالرجل العطشان الذي يبسط يديه ويمدها إلى البئر لكي يرتفع إليه الماء فيشربه، وأنى له ذلك، فإن الماء جماد لا يمكن أن يستجيب له ويرتفع إليه من قاع البئر حتى يبلغ فاه.

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٦٣١/١٠، وتفسير ابن كثير ٥٧/٤، وتفسير السعدي ٤٦٨/٦.

(٢) إعلام الموقعين ٢٠٤/١.

وهكذا المشركون الذين يدعون مع الله آلهة أخرى فإنها لا تستجيب لهم، ولا ينتفعون بها في الدنيا ولا في الآخرة [(١)].

قال القرطبي: "ضرب الله – عز وجل – الماء مثلاً ليأسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدرك مثلاً بالقابض الماء باليد"[(٢)].

٤) قوله – تعالى –: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

قال ابن كثير: "هذا مثل ضربه الله – تعالى – للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء"[(٣)].

٥) قوله – تعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

وفي هذه الآية يضرب الله – تعالى – مثلاً لبيان عجز آلهة المشركين

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٦٣/٧، وتفسير ابن كثير ٢٥٢/٢، وتفسير السعدي ٩٦/٤.

(٢) تفسير القرطبي ١٩٧/٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٢٤/٣، و انظر إعلام الموقعين ١٨١/١، وتفسير السعدي ٨٧/٦.

وحقارتهم حيث لا يستطيعون خلق ذباب صغير، حتى وإن اجتمعوا كلهم على ذلك، ثم يبين - سبحانه - مظهراً آخر من مظاهر عجز تلك الآلهة وضـــعفها، وذلك أنهم لا يستطيعون استنقاذ ما سلبه الذباب منهم، فكيف تعبد هذه الآلهة وقد بلغت هذا المبلغ من العجز والضعف؟ [1].

يقول ابن القيم عند هذه الآية: "حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهـــذا المثل ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم علـــى خلقه، فكيف ما هو أكبر منه، ولا يقدرون على الانتصار علـــى الـــذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون علـــى خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، وعلى الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيـــف يستحســـن عاقل عبادتها من دون الله؟

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله - سبحانه - في بطلان الشـــرك وتجهيـــل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة"[2].

---

(١) انظر تفسير السعدي ٣٢٦/٥، والأمثال القرآنية ص(١٩٢).

(٢) إعلام الموقعين ١٨١/١.

المبحث الرابع: السَّبر والتقسيم

تعريف السَّبْر والتَقْسِيم:

هو أسلوب من أساليب الجدل، يستعمله المجادل لإبطال دعوى من يجادله، وهو متركب من أصلين:

أحدهما: حصر أوصاف الموضوع بطريق من طرق الحصر، ويسمى التقسيم.

والثاني: اختبار تلك الأوصاف المحصورة، وإبطال ما هو باطل منها، وإبقاء ما هو صحيح، ويسمى السبر، أو الترديد [1].

وقد عرفه الآمدي[2] بقوله: "وهو في عرف الفقهاء: عبارة عن ترديد اللفظ بين احتمالين أحدهما ممنوع والآخر مسلّم، غير أن المطالبة متوجهة ببناء الغرض عليه"[3].

وعرفه الزركشي بقوله: "هو كون اللفظ متردداً بين أمرين: أحدهما ممنوع، والآخر مسلم، واللفظ محتمل لهما غير ظاهر في أحدهما"[4].

وقال الشنقيطي: "اعلم أن مقصود الجَدلين من هذا الدليل: معرفة الصحيح

---

(١) انظر أضواء البيان ٣٩٥/٤، ومناهج الجدل في القرآن الكريم ص(٧٤).

(٢) هو أبوالحسن علي بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي الشافعي، أصولي متكلم، من مصنفاته: الإحكام في أصول الأحكام، ومختصره منتهى السول في أصول الفقه، توفي عام ٦٣١هـ في دمشق، انظر البداية والنهاية ١٤٠/١٣، والأعلام ٣٣٢/٤.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ٣٢٩/٤.

(٤) البحر المحيط للزركشي ٣٣٢/٥.

والباطل من أوصاف محل التزاع، وهو عندهم يتركب من أمرين:

الأول: حصر أوصاف المحل.

والثاني: إبطال الباطل منها وتصحيح الصحيح مطلقاً، وقد تكون باطلة كلها فيتحقق بطلان الحكم المستند إليها، وقد يكون بعضها باطلاً وبعضها صحيحاً"(١).

أمثلة السبر والتقسيم في سياق مجادلة المشركين:

تكرر ورود هذا الأسلوب في القرآن الكريم في سياق مجادلة المشركين، ومن أمثلة ذلك:

١) قوله - تعالى -: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وهاتان الآيتان فيهما إنكار على مشركي العرب الذين حرموا بعض

---

(١) أضواء البيان ٤/٣٩٨.

إناث الأنعام كالبحيرة والوَصِيلة والسائبة، وبعض الذكور كالحـــامي [١]، دون غيرها، حيث يبين الله – سبحانه وتعالى – أنه خلق من الأنعام ثمانية أصـــناف: الضأن والمعز والإبل والبقر، وكل نوع من هذه الأنواع الأربعة إما ذكر وإمـــا أنثى، و لم يحرم شيئاً من ذلك.

فالله – تعالى – في هاتين الآيتين يقول لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المشـــركين الذين يحرمون بعض هذه الأنواع دون بعض هل حرم الله الذكرين من الضـــأن والمعز، أم الأنثيين منهما، وهل حرم الذكرين من الإبل والبقر أم الأنثيين منهما، أم حرم ما اشتملت عليه أرحام هذه الإناث؟ أخبروني عن دليلكم علـــى هـــذا التحريم الذي زعمتموه، وهذا التفصيل الذي ذكرتموه، إن كنـــتم صـــادقين في دعواكم؟.

والحقيقة أنه لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل إلا واحداً من هـــذه الثلاثة؛ فإن كان المحرم منها الذكر وجب أن يكون جميع ذكورها حراماً، وإن كان المحرم منها الأنثى وجب أن يكون جميع إناثها حراماً، وإن كان المحرم منها ما حملته بطوها وجب أن يكون جميع أولادها حراماً، وهم لا يقولون بشيء من ذلك.

(١) البحيرة: الناقة تلد خمسة أبطن آخرها ذكر، فيبحرون أذنها أي: يشقونها ويخلون ســـبيلها، فـــلا تركب ولا تحلب، والوصيلة: الشاة تلد ذكراً وأنثى فيقال للأنثى: وصلت أخاها، فـــلا يـــذبح الذكر، والسائبة: هي الناقة تترك وتُسَيَّب ويحرم الانتفاع بها كالبحيرة، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيت فناقتي سائبة، والحامي: هو الفحل ينتج من صلبه عشرة أبطن، فيقولون: حُمي ظهره، فيترك ولا يمنع من ماء ولا مرعى، انظر تفسير البيضاوي ٢٨٥/١.

ولما بيّن - سبحانه وتعالى - بطلان قولهم وفساده، قال لهم متهكماً بهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ ، هل كنتم حضوراً حينما أمركم الله - تعالى - بهذا التحريم، أو أوحى به إليكم؟ كلا بل هو محض الكذب والجهل والافتراء والتضليل والظلم، والله لا يهدي القوم الظالمين [1].

قال السيوطي[2] مبيناً وجه الاستدلال بهاتين الآيتين على السبر والتقسيم: "إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، رد - تعالى - ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم فقال: إن الخلق لله، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى فمم جاء تحريم ما ذكرتم؟ أي ما علته؟ لا يخلوا إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة، أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدرى له علة وهو التعبدي، بأن أُخذ ذلك عن الله - تعالى -، والأخذ عن الله - تعالى - إما بوحي أوإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ فهذه وجوه التحريم ؛ لا تخرج عن واحد منها، والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً، والثاني يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً، والثالث يلزم عليه تحريم

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٧٦/٥، و تفسير ابن كثير ١٩٠/٢، و تفسير السعدي ٤٨٩/٢، والتفسير المنير ٧٢/٨، وتفسير الجزائري ٦٦٩/١.

(٢) هو أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الشافعي المصري، محدث مفسر، مشارك في أنواع العلوم، له مصنفات كثيرة جداً منها: الدر المنثور في التفسير المأثور، والإتقان في علوم القرآن، والجامع الصغير في الحديث وغيرها، توفي عام ٩١١هـ، انظر الأعلام ٣٠١/٤، ومعجم المؤلفين ١٢٨/٥.

الصنفين معاً، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة، لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدَّعوه، وبواسطة رسول كذلك ؛ لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدَّعى، وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال"[١].

٢) ومن أمثلة ذلك قوله - تعالى -: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧-٨٠].

وسبب نزول هذه الآيات هو ما ورد عن خَبَّاب[٢] - رضي الله عنه - قال: ((كنت رجلاً قيناً [٣]، وكان لي على العاص بن وائل[٤] دين، فأتيته أتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، قال قلت: لن أكفر به حتى

(١) الإتقان ٣٧٩/٢، و انظر أضواء البيان ٣٩٧/٤.

(٢) هو أبو يحيى خباب بن الأَرتِّ بن جندلة التميمي، من السابقين إلى الإسلام، وكان من المستضعفين في مكة، شهد بدراً وغيرها، مات في الكوفة عام ٣٧هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٢٢٣/٢، والإصابة ١٠١/٢.

(٣) قيناً: أي حداداً، انظر مختار الصحاح ٢٣٣.

(٤) هو العاص بن وائل السهمي، من صناديد قريش، آذى خباباً - رضي الله عنه -، وروي أنه نزلت فيه سورة الكوثر، هلك في السنة الأولى من الهجرة، انظر البداية والنهاية ٢٣٥/٣-٢٥٩، ١٠٤، ١٠٥.

تموت ثم تبعث [١]، قال: وإني لمبعوث من بعد الموت؟ فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد، قال: فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[٢].

قال الشنقيطي موضحاً التقسيم والترديد الوارد في هذه الآيات: "والتقسيم الصحيح في هذه الآية الكريمة يحصر أوصاف المحل في ثلاثة، والسبر الصحيح يبطل اثنين منها ويصحح الثالث، وبذلك يتم إلقام العاص بن وائل الحجر في دعواه: أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً.

أما وجه حصر المحل في ثلاثة فهو أنا نقول: قولك إنك تؤتى مالاً وولداً يوم القيامة لا يخلو مستندك فيه من واحد من ثلاثة أشياء:

الأول: أن تكون اطلعت على الغيب، وعلمت أن إيثارك المال والولد يوم القيامة مما كتبه الله لك في اللوح المحفوظ.

والثاني: أن يكون الله أعطاك عهداً بذلك ؛ فإنه إن أعطاك عهداً لن يخلفه.

الثالث: أن تكون قلت ذلك افتراءً على الله من غير عهد ولا اطلاع غيب.

---

(١) قال ابن حجر: "قوله: ((حتى تموت ثم تبعث)) مفهومه: أنه يكفر حينئذٍ لكنه لم يرد ذلك، لأن الكفر حينئذٍ لا يتصور، فكأنه قال: لا أكفر أبداً، والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لا يؤمن به"، فتح الباري ٨/٤٣٠.

(٢)أخرجه البخاري ٨/٤٣١ ح(٤٧٣٥)، و مسلم ٤/٢١٥٣ ح(٢٧٩٥).

وقد ذكر - تعالى - القسمين الأولين في قوله: ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ مبطلاً لهما بأداة الإنكار [١]، ولا شك أن كلا هذين القسمين باطل، لأن العاص المذكور لم يطلع الغيب، و لم يتخذ عند الرحمن عهداً، فتعين القسم الثالث، وهو أنه قال ذلك افتراءً على الله، وقد أشار - تعالى - إلى هذا القسم الذي هو الواقع بحرف الزجر والردع، وهو قوله: ﴿ كَلَّا ﴾أي لأنه يلزمه ليس الأمر كذلك، لم يطلع الغيب، و لم يتخذ عن الرحمن عهداً، بل قال ذلك افتراءً على الله، لأنه لو كان أحدهما حاصلاً لم يستوجب الردع عن مقالته كما ترى"[٢].

٣) ومن أمثلة السبر والتقسيم في سياق مجادلة المشركين في القرآن الكريم قوله - تعالى -: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

يقول ابن القيم مبيناً التقسيم والترديد المذكور في هذه الآية: "تأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول - تعالى - هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوعٌ من غير صانع، ومخلوق من غير خالق.

ولو مر رجل بأرض قَفْر[٣] لا بناء فيها، ثم مر فيها فرأى بنياناً وقصوراً

---

(١) وهي همزة الاستفهام.

(٢) أضواء البيان ٣٩٥/٤، و انظر تفسير السعدي ١٣٤/٥.

(٣) قَفْرٌ: مفازة لا نبات فيها ولا ماء، مختار الصحاح ص(٢٢٨).

وعمارات محكمة لم يتخالجه[1] شك ولا ريب أن صانعاً صنعها وبانياً بناها.

ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا أيضاً من المستحيل أن يكون العبد موجداً خالقاً لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعاً ولا ظفراً، ولا شعرة كيف يكون خالقاً لنفسه في حال عدمه؟.

وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقاً خلقهم، وفاطر فطرهم فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلهاً غيره وهو وحده الخالق لهم؟"[2].

---

(١) يتخالجه: ينازعه، انظر القاموس المحيط ٢٥٣/١.

(٢) الصواعق المرسلة ٢٩٣/٢، و انظر أضواء البيان ٣٩٨/٤.

المبحث الخامس: التسليم

تعريف التسليم:

التسليم لغة: يطلق على معانٍ منها: بذل الرضا بالحكم [١].

واصطلاحاً: "هو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع لكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه"[٢].

وهو أسلوب من أساليب الجدل، وقد استخدمه القرآن الكريم في مجادلة المشركين.

أمثلة التسليم في سياق مجادلة المشركين:

ورود هذا الأسلوب في القرآن الكريم في سياق مجادلة المشركين عدة مواضع منها:

١) قوله - تعالى -: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ومعنى الآية - كما يقول السيوطي -: "ليس مع الله من إله، ولو سُلِّم أن معه - سبحانه وتعالى - إلهاً لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما

---

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٠٨١، ومختار الصحاح ص(١٥٥).

(٢) مناهج الجدل (٨٢).

خلق، وعلوٍّ بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعداً محال لما يلزم منه من المحال"(١).

يقول ابن القيم عند هذه الآية: "فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقاً فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه – سبحانه – إله لكان له خلق وفعل وحينئذٍ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه، بل إن قَدِر على قهره وتفرد بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد أمور ثلاثة:

- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد ومَلِك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق، وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد، لا رب له غيره، فذاك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما

---

(١) الإتقان ٢/٣٨١.

يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون له إلهان معبودان"[(١)].

٢) ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ففي هذه الآية يخبر الله – سبحانه وتعالى – أنه لو كان في السموات والأرض آلهة حقيقية غيره – سبحانه – لفسدتا وفسد من فيهما من المخلوقات، لأنه لو كان فيهما إلهان مدبران أو أكثر وقع بينهما الاختلاف والتعارض، وإذا حصل ذلك اختل النظام، واضطربت الأحوال، ووجد الخلل والفساد، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر وعدم استحقاقه للألوهية، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن [(٢)].

والمشاهد أن العالم العلوي والسفلي في غاية ما يكون الانتظام والتناسق والاتفاق والكمال، فلا خلل ولا تناقض ولا ممانعة ولا تعارض ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]، فتعين أن لهذا الكون إلهاً واحداً يدبِّره ويصرفه كيف شاء، وهو الله الواحد القهار، ولذلك نزه الله – تعالى – نفسه

---

(١) الصواعق المرسلة ٤٦٣/٢، و انظر تفسير ابن جرير ٢٤٠/٩.

(٢) واعترض على هذا بأنه يمكن أن تتفق إرادة اثنين فلا يقع خلاف ولا فساد، وأجيب بأنه يستحيل وجود اثنين لا تنفك إرادة أحدهما عن الآخر، متكافئين في العلم والقدرة والإرادة والحكمة والتدبير على وجه لا تتقدم صفة أحدهما على صفة الآخر، انظر كتاب استخراج الجدال من القرآن الكريم لابن الحنبلي ص(٤٩).

في ختام الآية عن شرك المشركين، وافتراء الكافرين [١].

٣) ومثل هاتين الآيتين قوله – تعالى –: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

وهذه الآية فيها قولان للمفسرين:

القول الأول: لو كان مع الله – تعالى – آلهة أخرى – كما يزعم المشركون –لابتغوا إلى منازعته ومغالبته طريقاً كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض [٢].

القول الثاني: لو كان مع الله آلهة أخرى – كما يزعم المشركون لطلبوا طريقاً ووسيلة يتقربون بها إليه وينالون بها رضاه [٣].

وهذه الآيات الثلاث يستدل بها علماء الكلام على دليل التمانع، ويجعلونه دليلاً على توحيد الربوبية.

وتقرير هذا الدليل عندهم أن يقال: لو فرض للعالم صانعان، فأراد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه، فلا يخلو الأمر من أحد احتمالات ثلاثة:

١- ألا يحصل مراد كل منهما، وهذا يستلزم عجزهما، والإله لا يكون عاجزاً.

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٥/٩، و تفسير ابن كثير ١٨٤/٣، ٢٦٤، و تفسير السعدي ٢٢٠/٥، والتفسير المنير ٣٤/١٧.

(٢) ورجحه البغوي ١١٦/٣، والشوكاني ٣٢٥/٣، والشنقيطي ٥٣٩/٣، و انظر زاد المسير ٢٩/٥.

(٣) ورجحه ابن جرير ٨٤/٨، وابن تيمية انظر درء تعارض العقل والنقل ٣٥٠/٩، وابن القيم انظر الصواعق المرسلة ٤٦٢/٢، وابن كثير ٤٤/٣، وابن أبي العز الحنفي انظر شرح الطحاوية ٤١/١.

٢- أن تنفذ إرادتهما معاً، وهذا محال لأنه يستلزم اجتماع الضدين، والضدان لا يجتمعان.

٣- أن تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر، فيكون أحدهما عاجزاً مغلوباً، والعاجز المغلوب لا يكون إلهاً [١].

والمتأمل في هذه الآيات الثلاث يجد أنها سيقت لإثبات توحيد الإلهية، وليست لإثبات توحيد الربوبية، وإن كانت دالة عليه، وذلك لأن مشركي العرب الذين خوطبوا بهذه الآيات يقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله وحده هو الخالق المالك المدبر، كما قال - تعالى - في الآيات التي تقدمت على آية"المؤمنون": ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

ولذلك استدل بعض العلماء بهذا الدليل على إثبات الوحدانية [٢].

---

(١) انظر كتاب الداعي إلى الإسلام لابن الأنباري ص(٢٢٢)، وتفسير الرازي ١٣٠/٢٢، وكتاب استخراج الجدال ص(٤٨)، و تفسير ابن كثير ٢٦٤/٣، وتفسير الألوسي ٢٥/١٧.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل ٣٦٩/٩، و تفسير ابن كثير ٢٦٤/٣، وشرح الطحاوية ٤٠/١، والتحرير والتنوير ٤١/١٧، وتفسير الألوسي ٢٨/١٧.

المبحث السادس: الاستدلال بأن ما يدعونه مستحيلٌ عقلاً

إن الشرك بجميع أنواعه مخالف للفطرة مناقض للعقل، وقد تقدم أن القرآن الكريم خاطب الفطرة المُسْتَكِنّة[١] في نفس الإنسان، وذكَّرها بما هو مغروس فيها[٢]، كما سخر من عقول المشركين وسفه أحلامهم وضلل آرائهم، حيث يدعون مخلوقاً مثلهم لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً [٣]، وإلى جانب ذلك فإن القرآن الكريم سلك أسلوب الإقناع العقلي في مجادلة المشركين، حيث يثبت للمشركين أن ما يدّعونه من الشرك محال عقلاً، وتقدم في مبحث التسليم ذكر بعض الآيات الدالة على استحالة وجود إله آخر مع الله – تعالى – وذلك لما يترتب على هذا القول من الأمور المخالفة للواقع المشاهد [٤].

ومن الآيات الدالة على استحالة الشرك عقلاً:الآيات الواردة في الرد على المشركين الذين ينسبون الولد لله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – فإن"إثبات الولد لله من أعظم الإشراك به"[٥]، وقد ادعى اليهود أن عُزيراً ابن الله، وادعى النصارى أن المسيح – عليه السلام – ابن الله، وادعى مشركو العرب أن الملائكة – عليهم السلام – بنات الله، فأبطل الله – تعالى – مقولة الجميع، وبيّن أنها مستحيلة عقلاً.

---

(١) المُستكنَّة: المستترة، انظر مختار الصحاح ص(٢٤٢).

(٢) انظر ص(٢٦١).

(٣) انظر ص(٢٩٥).

(٤) انظر المبحث السابق.

(٥) بدائع الفوائد ٤/٣٣١.

قال – تعالى –: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

ففي هاتين الآيتين ينكر الله – تعالى – على الذين ينسبون إليه – سبحانه وتعالى – الولد، من اليهود والنصارى ومشركي العرب وغيرهم، حيث يتره – سبحانه – نفسه عن هذا القول الباطل، ثم يبين وجه فساده، واستحالته عند أولي العقول السليمة، وذلك من وجوه أربعة:

الأول: كون ما في السموات والأرض ملكاً له وعبيداً مربوبين تحت تدبيره يتصرف فيهم كيف شاء، فإذا كانوا كذلك كيف يكون أحد منهم ولداً له؟ فإن الولد لابد أن يكون بعض الوالد وشريكه ونظيره، ولا يمكن أن يكون مملوكاً للوالد أو مخلوقاً له.

الثاني: أنه مبدع السموات والأرض على غير مثال سبق، فكيف يصح أن ينسب إليه شيء من خلقه بالبنوة التي تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة؟ إن ذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض، قال – تعالى –: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ﴾ [يونس: ٦٨].

الثالث: أنه إذا أراد أمراً قال له كن، فيكون بمجرد أمره، فلا يستعصي عليه – سبحانه – شيء، ولا يمتنع منه، ومن كان كذلك فأي حاجة به إلى الولد؟ وهو لا يستكثر به من قلة، ولا يتعزز به من ضعف، ولا يستعين به على قضاء حاجة[1].

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٥٤/١، وبدائع الفوائد ٣٣١/٤، و تفسير ابن كثير ١٦٥/١، وتفسير السعدي ١٢٩/١.

قال ابن جرير: "فمعنى الكلام: سبحان الله أنّى يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعاً بدلالتها بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها[1] عليه"[2].

وقال - تعالى -: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

وفي هاتين الآيتين يرد الله - تعالى - على المشركين الذين افتروا على الله - تعالى - الكذب، حيث نسبوا له - سبحانه - البنين والبنات بغير علم، ثم يبين بطلان قولهم وفساده، ومخالفته للعقل الصحيح، وذلك من وجوه:

الأول: أنه بديع السموات والأرض، وقد تقدم إيضاح هذا الوجه في الآية السابقة.

الثاني: أنه - سبحانه - ليس له صاحبة، أي زوجة، والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين، والله - تعالى - لا يناسبه ولا يشبهه شيء من خلقه، فكيف يكون له ولد؟ [3].

الثالث: ما قرره ابن القيم بقوله: "أن يقال لو كان له ولد لعلمه لأنه بكل

---

(١) احتذاها: صورها، انظر مختار الصحاح ص(٥٤)، والمعجم الوسيط ١/١٦٣.

(٢) تفسير ابن جرير ١/٥٥٦.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/١٦٥، و تفسير السعدي ٢/٤٤٦، وانظر أيضاً ص(٥٥) من هذه الرسالة.

شيءٍ عليم، وهو - تعالى - لا يعلم له ولداً، فيستحيل أن يكون لــه ولــدٌ لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه إذ لو كان لعلمـــه، فحيث لم يعلمه فهو غير كائن"[١].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: ((قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فـــزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فســـبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً)) [٢].

وقد بيّن الله - تعالى - بطلان إلهية المسيح - عليه السلام - ودحر مزاعم النصارى التي يعتقدونها فيه، فقال - تعالى -: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

لقد تضمنت هذه الآية ثلاثة براهين تدل على فساد القول بألوهية المسيح - عليه السلام - ومخالفته للعقل، وهي كما يلي:

الأول: أن عيسى - عليه السلام - كغيره من الرسل الســـابقين، جـــاء بالآيات والمعجزات، كما جاؤا بأمثالها، فإن كانت شبهتكم فيـــه أن الله أبـــرأ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى على يده فقد أحيى الله - تعالى - العصا لموسى - عليه السلام - وفلق له البحر، ومع ذلك لم تقولوا بألوهيته.

---

(١) بدائع الفوائد ٤/٣٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ٨/١٦٨ ح(٤٤٨٢).

وإن كانت شبهتكم فيه أنه خلق من غير أب، فقد خُلق آدم من غير أب ولا أم، ومع ذلك لم يقل بألوهيته أحد [(١)].

الثاني: أن عيسى – عليه السلام – وأمه كانا محتاجين إلى الطعام والشراب لكي تقوم بذلك أبدانهما كسائر الناس، وهذا دليل واضح على عجزهما وحاجتهما إلى غيرهما، والإله غني عن غيره [(٢)].

الثالث: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يُستحيى من ذكرها، ومن كان كذلك لا يليق أن يكون إلهاً أو ولداً للإله[(٣)].

وقال – تعالى – مبيناً بطلان مقولة مشركي العرب الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله – تعالى الله عن ذلك –: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٥-١٩].

(١) انظر مناهج الجدل ص(٢٦١).

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦٥٤/٤، والصواعق المرسلة ٤٨٢/٢، و تفسير ابن كثير ٨٤/٢، ومناهج الجدل ص(٢٦٢).

(٣) انظر الصواعق المرسلة ٤٨٢/٢، و تفسير ابن كثير ٨٤/٢.

لقد جادل الله – تعالى – هؤلاء المشركين في هذه الآيات، وأبطل مقولتهم الكاذبة بالحجج الواضحة والبراهين الساطعة، وذلك من عدة وجوه:

الأول: أن الخلق كلهم عبيد الله – تعالى –، والعبودية تنافي الولادة، فالولد لا يكون عبداً للوالد.

الثاني: أن الولد جزء من والده مثيل له، والله – تعالى – ليس كمثله شيء.

الثالث: أنهم نسبوا إلى الله – تعالى – البنات مع أنهم يفضلون البنين على البنات، بل إن الواحد منهم إذا بشر بالأنثى حزن، وأنف من ذلك، واسودّ وجهه، حتى إنه يستتر عن الناس خجلاً من ذلك، إن العقل – لو كان مرجع القسمة إليه – يقتضي أن الله – تعالى – أولى بالبنين من البنات، فكيف يجعلون لله ما يكرهون من الصنفين؟!.

الرابع: أن الأنثى محل نقص في الظاهر والباطن، فهي في ظاهرها وصورتها محتاجة إلى الحلي والزينة لجبر النقص الحاصل في جمالها، وهي في المعنى ناقصة نظراً لعجزها عن الانتصار لنفسها والإفصاح عن حجتها.

الخامس: أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة، فكيف يتكلمون بشيء لم يشاهدوه أو يعلموه؟ ! [1].

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/١٣٥، و تفسير السعدي ٦/٦٣٧، ومناهج الجدل ص(٢٣٩).

المبحث السابع: مجاراة الخصم لتبيين خطئه

من أساليب القرآن الكريم في مجادلة المشركين مجاراة الخصم المجادل لكي يَعْثُر ويتبين خطؤه، وذلك بأن تسلَّم[١] له بعض مقدماته التي استدل بها مع الإشارة إلى أنها لا تُنتج ما يريده منها، بل هي مساعدة على إنتاج ما يريده خصمه، والمراد من ذلك تبكيته وإلزامه بما لا يعترف به [٢].

وقد مثل السيوطي لهذا الأسلوب بمثال واحد وهو قوله - تعالى -: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ٩ -١١].

"فكأن الرُسُل - عليهم الصلاة والسلام - قالوا في الرد على المنكرين

---

(١) والتسليم هنا حقيقي، وليس جدلياً كما سبق في أسلوب (التسليم) في المبحث الخامس.

(٢) انظر الإتقان ٣٨٢/٢، ومناهج الجدل ص(٨٣).

لنبوتهم ما ادّعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره، ولكن دعواكم هذه لا تُنتج عدم الرسالة ولا تنافي أن يمن الله علينا بها، بل البشرية شرط في الرسالة إلى عامة البشر ؛ فإن سنة الله جرَت بأن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، يعرفون قدره ومكانته وصدقه وأمانته، وقد بين الله - تعالى - هذه الظاهرة بقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٤-٩٥] (١).

وهذه الآيات فيها إخبار عن مصير الأمم الشركية المكذبة لرسلها، والتي لا يحصى عددها إلا الله - تعالى -، فقد جاءتهم رسلهم بالمعجزات، والدلائل الواضحات، والحجج القاطعات، فلم يؤمنوا بها وينقادوا إليها، بل استكبروا وعاندوا وأعرضوا وكفروا برسلهم، وشككوا في رسالتهم ودعوتهم.

فردت عليهم رسلهم بأن وجود الله - تعالى - وانفراده بالألوهية من أظهر الأشياء وأوضحها فقد شهدت بذلك الفطر السليمة، ودلت عليه آيات الكون الكثيرة فهو الذي خلق السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال سابق، ومع ذلك فإنه - سبحانه - يدعوكم إلى ما فيه مصالحكم في دنياكم وأخراكم فإن أطعتموه غفر لكم ذنوبكم، وأطال آجالكم فلم يعاجلكم بالعقوبة.

فرد المشركون المكذبون على رسلهم رد السفهاء الجاهلين حيث ذكروا ثلاث شبهات تمنعهم من الإيمان بالله وحده والاستجابة لرسله:

---

(١) مناهج الجدل ص(٨٥)، و انظر الإتقان ٣٨٢/٢.

الأولى: التساوي في الإنسانية، فكيف تفضلوننا بالرسالة وأنتم بشر مثلنا.

والثانية: التقليد الأعمى للآباء، فكيف نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقولكم.

والثالثة: المطالبة بالإتيان بمعجزة خارقة يقترحونها هم غير تلك الآيات البينات التي جاءتهم بها رسلهم.

فردت رسلهم على تلك الشبهات الباطلة بما يلي: أما قولكم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فهذا صحيح، ولكن هذا لا يمنع أن يمنّ الله علينا ويصطفينا بالرسالة، فإن الله يمنّ على من يشاء من عباده.

وأما احتجاجكم بما وجدتم عليه آباءكم فهي حجة باطلة، لأن توافق الآباء على أمر من الأمور لا يدل على صحته، والإنسان إذا منّ الله عليه بمعرفة الحق والهداية إليه فإنه يجب عليه قبوله حتى وإن خالف ما كان عليه آباؤه.

وأما إعراضكم عما جئنا به من المعجزات ومطالبتكم بالإتيان بمعجزة جديدة تقترحونها أنتم فهذا أمر ليس بأيدينا، وإنما هو بيد الله وحده إن شاء جاءكم به وإن شاء لم يأتكم به، وذلك بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته، وكفى بما جئناكم به دليلاً وحجة [(١)].

هذا ولم أجد لهذا الأسلوب مثالاً غير هذه الآية، وذلك في سياق مجادلة المشركين.

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٤٢١/٧، و تفسير ابن كثير ٥٤٣/٢، و تفسير السعدي ١٢٦/٤، وتفسير المراغي ١٣٢/١٣، والتفسير المنير ٢١٦/١٣.

المبحث الثامن: المباهلة

تعريف المباهلة:

قال ابن منظور[١]: "البَهْل: اللَّعن، وبَهَلَه الله بَهْلاً أي: لعنه، وباهل القوم بعضهم بعضاً وتباهلوا وابتهلوا: تلاعنوا، والمباهلة: الملاعنة، يقال: باهلت فلاناً: أي لاعنته"[٢].

وقال الراغب الأصفهاني: "والبهل والابتهال في الدعاء الاسترسال فيه، والتضرع، نحو قوله - عزوجل -: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، ومن فسر الابتهال باللعن فلأجل أن الاسترسال في هذا المكان لأجل اللعن"[٣].

والخلاصة: أن معنى المباهلة في اللغة: الدعاء باللَّعنة بتضرع واجتهاد.

وبعد التأمل في الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وما ورد في تفسيرها من الأحاديث والآثار، ومن خلال ما سبق من كلام

---

(١) هو أبوالفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري، من أئمة اللغة، من مصنفاته: لسان العرب، ومختار الأغاني، توفي في مصر عام ٧١١هـ، انظر الأعلام ١٠٨/٧، ومعجم المؤلفين ٤٦/١٢.

(٢) لسان العرب ٣٧٥/١، و انظر معجم مقاييس اللغة ٣١٠/١.

(٣) المفردات ص(١٤٩)، و انظر تفسير ابن جرير ٢٩٦/٣.

أهل اللغة يتبين أن المراد بالمباهلة الشرعية هي: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء مصطحبين أبناءهم ونساءهم فيدعون الله - تعالى - أن يحل لعنته وعقوبته بالكاذب من الفريقين.

المباهلة في القرآن الكريم:

سلك القرآن الكريم هذا الأسلوب - المباهلة - في مجادلة المشركين المبطلين الذين يتكبرون عن قبول الحق، ويصرون على باطلهم وضلالهم مع قيام الحجة عليهم، وظهور الحق لهم، حيث أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يُباهل نصارى نجران(١) حينما جادلوه في أمر عيسى - عليه السلام - فلم يقبلوا الحق الذي جاء به من عند الله - تعالى -، بل أصروا على عقيدتهم الفاسدة، ومقولتهم الباطلة في عيسى - عليه السلام -.

قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٣].

---

(١) نجران: بلد جنوب المملكة العربية السعودية على حدود اليمن.

سبب نزول الآيات:

قال الواحدي[١]: "قال المفسرون: قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكباً على رسول الله ﷺ، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم، فالعاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه ؛ واسمه عبد المسيح، والسيد إمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ؛ وكان شرُف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده.

فقدموا على رسول الله ﷺ، ودخلوا مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحِبَرات[٢] ؛ جباب وأردية، في جمال رجال الحارث بن كعب[٣]، يقول من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فصلَّوا إلى المشرق.

فكلم السيدُ والعاقبُ رسولَ الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ: أسلما، فقالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً،

---

(١) هو أبو الحسن على بن أحمد بن محمد الواحدي، من كبار المفسرين، من مصنفاته: تفاسيره ؛ البسيط والوسيط والوجيز، وأسباب النزول وغيرها، توفي في نيسابور عام ٤٦٨هـ، انظر طبقات المفسرين ٣٨٧/١، والأعلام ٢٥٥/٤.

(٢) الحِبَرات: ثياب يمانية، انظر مختار الصحاح ص(٥١).

(٣) هو الحارث بن كعب بن عمرو بن عُلَة، من مذحج من كهلان، جد جاهلي، الأعلام ١٥٧/٢.

وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهما النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدث، قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويُحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا، فأنزل الله - عزوجل - فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها)) [(١)].

و عن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ : "وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد ﷺ، وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا لمحمد ﷺ ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى ؛ تزعم أنه عبد الله، فقال محمد ﷺ: أجل، إنه عبد الله، قالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده فجاء جبريل ﷺ بأمر ربنا السميع العليم، فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ ... إلى آخر

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص(٨٣)، وقد ذكرها ابن كثير عن ابن إسحاق مطولة جداً، انظر تفسير ابن كثير ٣٧٦/١، و انظر سيرة ابن هشام ٥٧٣/١.

الآية[١].

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: "قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الإسلام فقالا: أسلمنا يا محمد قبلك، قال: "كذبتما، إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام"، قالوا: فهات أنبئنا. قال: "حب الصليب، وشرب الخمر، وأكل لحم الخترير"قال جابر: فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يغادياه بالغداة فغدا رسول الله ﷺ وأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم،ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيباه وأقرا له، فقال رسول الله ﷺ: "والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر الوادي عليهما نارا"قال جابر: فيهم نزلت: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦١][٢].

وكان وفودهم على النبي ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة، كما ذكر ابن كثير [٣].

بيانٌ إجمالي للآيات:

في هذه الآيات الكريمة يقول الله - تعالى - منكراً على النصارى الذين

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٢٩٣/٣، وابن أبي حاتم ٦٦٧/٢، و انظر لباب النقول في أسباب الترول للسيوطي ص(٧٦).

(٢) أخرجه الحاكم ٦٤٩/٢ وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في دلائل النبوة ٣٥٣/١، والواحدي ص ٩٠.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣٧٨/١.

يزعمون أن عيسى – عليه السلام – إله أو ابـــن إلـــه ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في قدرته – سبحانه – على خلقه من غـــير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [(١)]، حيث خلقه – جل وعلا – من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فالذي خلق آدم من غير أب ولا أم قادر علـــى أن يخلـــق عيسى – عليه السلام – من غير أب بطريق الأولى والأحرى.

فإن كانت شبهتكم في ادِّعائكم بنوة عيسى – عليه السلام – أنه خلق من غير أب فإن آدم أحق بذلك منه وأولى لأنه خلق من غير أم ولا أب، ومع ذلك فقد اتفق الناس كلهم على أنه عبد من عباد الله، وأن دعوى بنوتـــه باطلـــة ؛ فدعوى ذلك في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً.

"وهذا من تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحســـم لمـــادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه"[(٢)].

وهذا الأسلوب من الأقيسة الإضمارية التي استخدمها القرآن الكـــريم في مجادلة الخصم،"وهي التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عـــن المحذوف"[(٣)].

ثم بيّن – سبحانه وتعالى – أن ما ذكره في شأن عيسى – عليه السلام –

---

(١) قال الألوسي: "والمَثَل هنا ليس هو المثل المستعمل في التشبيه، بل بمعنى الحال والصفة العجيبة، أي صفة عيسى كصفة آدم وحاله العجيبة، تفسير الألوسي ١٨٦/٣ بتصرف يسير.

(٢) الكشاف ١٩٢/١.

(٣) مناهج الجدل في القرآن الكريم ص(٨٦).

وأنه عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه هو القول الحق الذي لا ريب فيه، لا كما يزعم النصارى من أنه إله أو ابن إله، كما نهى - سبحانه - رسوله ﷺ أن يشك في أمر عيسى - عليه السلام - بعد ما جاءه البلاغ المبين من ربه - عزوجل -.

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ مع استحالة وقوع الشك منه له فائدتان:

إحداهما: أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأَرْيَحيَّة[(١)] فيزداد في الثبات على اليقين نوراً على نور.

والثانية: أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم، فيترع ويترجر عما يورث الامتراء، لأنه ﷺ مع جلالته وعلو قدره خوطب بمثل هذا فكيف بغيره"[(٢)].

وقيل الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته [(٣)].

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يباهل من جادله في شأن عيسى - عليه السلام - بعد قيام الحجة عليه، وظهور الحق له بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة،"وذلك بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم ثم يدعون الله - تعالى - أن يترل عقوبته ولعنته على الكاذبين"[(٤)].

---

(١) الأَرْيَحيَّة: الارتياح للشيء ومحبته والفرح به، والنشاط إلى المعروف، والأَرْيَحيُّ: الرجل الواسع الخلق، النشيط إلى المعروف، يرتاح لما طلبت ويراح قلبه سروراً، انظر لسان العرب ١٧٦٦/٣.

(٢) تفسير الألوسي ١٨٧/٣ بتصرف.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٦٦/٤.

(٤) تفسير السعدي ٣٨٨/١.

"وإنما ضم رسول الله ﷺ إلى النفس الأبناء والنساء مع أن القصد من المباهلة تبيين الصادق من الكاذب وهو مختص به وبمن يباهله، لأن ذلك أتم في الدلالة على ثقته بحاله، واستيقانه بصدقه، وأكمل نكاية بالعدو وأوفر إضراراً به لو تمت المباهلة"[١].

ثم أكد – سبحانه وتعالى – صدق ما قصه وأخبر به من أمر عيسى – عليه السلام – وأنه هو الحق الذي لا جدال فيه، لا ما يدّعيه النصارى وغيرهم، مبيناً – سبحانه – أنه هو المتفرد بالربوبية المستحق للألوهية، وأنه هو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبيره.

وفي ختام الآيات هدد الله – تعالى – نصارى نجران الضالين إن هم أعرضوا عن الحق بعدما تبين لهم في هذه الآيات البينات التي سمعوها، فلم يرجعوا عن دينهم الباطل وقولهم الفاسد، مبيناً أنه عليم بهم، لا يخفى عليه من أعمالهم شيء، بل يحصيها عليهم ثم يجازيهم بها [٢].

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن حذيفة – رضي الله عنه – أنه قال: ((جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما: لا تفعل، فو الله لئن كان نبياً فلاعنّا لا نفلح نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب النبي ﷺ فقال: قم يا أباعبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه

(١) تفسير الألوسي ١٨٩/٣، و انظر تفسير أبي السعود ٤٦/٢.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٢٩٣/٣، و تفسير ابن كثير ٣٧٤/١، و تفسير السعدي ٣٨٧/١.

الأمة)) [١].

وعن محمد بن جعفر بن الزبير[٢] أن النبي ﷺ لما أمر بملاعنتهم دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضى[٣].

و عن السدي[٤] في قوله – تعالى –: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ

---

(١) صحيح البخاري ٩٣/٨ ح(٤٣٨٠)، وأخرجه مسلم مختصراً ١٨٨٢/٤ ح(٢٤٢٠).

(٢) هو محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام الأسدي المدني، تابعي ثقة، من فقهاء المدينة وقرائها، مات سنة بضع عشرة ومائة، انظر تهذيب التهذيب ٩٣/٩، وتقريب التهذيب ص(٤٧١).

(٣)أخرجه ابن جرير ٢٩٨/٣، و انظر تفسير ابن كثير ٣٧٦/١.

(٤) هو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السُدِّي، أبومحمد الكوفي، وهو السدي الكبير، صدوق يهم، ورمي بالتشيع، مات سنة ١٢٧هـ، انظر تقريب التهذيب ص(١٠٨)، وتهذيب التهذيب ٣١٤/١.

﴿ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾... الآية: ((فأخذ - يعني النبي ﷺ بيد الحسن والحسين وفاطمة، وقال لعلي اتبعنا، فخرج معهم، فلم يخرج يومئذٍ النصارى وقالوا: إنا نخاف أن يكون هذا هو النبي ﷺ، وليس دعوة النبي ﷺ كغيرها، فتخلفوا عنه يومئذٍ، فقال النبي ﷺ: لو خرجوا لاحترقوا، فصالحوه على صلح: على أن له عليهم ثمانين ألفاً، فما عجزت الدراهم ففي العروض: الحُلَّة[1] بأربعين، وعلى أنه له عليهم ثلاثاً وثلاثين درعاً، وثلاثاً وثلاثين بعيراً، وأربعة وثلاثين فرساً غازية كل سنة، وأن رسول الله ﷺ ضامن لها حتى نؤديها إليهم)) [2].

وأخرج مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: ولما نزلت هذه الآية ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: "اللهم هؤلاء أهلي"[3].

(١) الحُلَّة: إزار ورداء، مختار الصحاح ص(٦٣).
(٢)أخرجه ابن جرير ٣/٢٩٨، وفي بعض الآثار أن علياً ـــ رضي الله عنه ـــ لم يكن معهم.
(٣) صحيح مسلم ٤/١٨٧١ ح(٢٤٠٤).

تعقيبات:

أولاً: هل المباهلة خاصة بالنبي ﷺ؟

المباهلة ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل هي عامة لجميع الأمة إلى قيام الساعة، كما أنها ليست خاصة مع النصارى، بل هي عامة مع كل مخالف، إذا قامت عليه الحجة وظهر له الحق، فلم يرجع عن قوله، بل أصر على ضلاله وعناده.

قال ابن القيم - رحمه الله - في فوائد قصة نصارى نجران: "ومنها أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، و لم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله - سبحانه - بذلك رسوله، و لم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك، ودعا إليه ابنُ عمه عبد الله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع [1]، و لم ينكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعي[2] سفيانَ الثوري[3] في مسألة رفع اليدين و لم ينكر ذلك

---

(١) وهي مسألة العَوْل في باب الفرائض، حيث قال ـ رضي الله عنه ـ: ((من شاء باهلته أن المسائل لا تعول))، انظر سنن البيهقي ٦/٢٥٣، وسنن سعيد بن منصور ١/٤٤، والمغني لابن قدامة ٩/٢٨.

(٢) هو الإمام المحدث أبو عمرو عبدالرحمن بن محمد بن يُحْمَد الأوزاعي، عالم أهل الشام في زمانه، محدث فقيه زاهد، كان له مذهب مستقل عمل به فترة ثم اندرس، توفي عام ١٥٧هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٧/١٠٧، والأعلام ٣/٣٢٠.

(٣) هو الإمام الحافظ الحجة الزاهد أبو ع بدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أحد الأئمة الحفاظ الفقهاء العباد، توفي عام ١٦١هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٧/٢٢٩، وتقريب التهذيب ص(٢٤٤).

عليه [١]، وهذا من تمام الحجة"[٢].

قلت: وقد دعا إليها أيضاً ابن مسعود - رضي الله عنه -، فقد أخرج النسائي عنه أنه قال: ((من شاء لاعنته ما أنزلت: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، إذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت)) [٣].

كما دعا إليها ابن القيم بعض من خالفه في مسائل صفات الله - تعالى -، فلم يجبه إلى ذلك، وخاف سوء العاقبة [٤].

وممن دعا إليها أيضاً الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؛ حيث قال -رحمه الله- في إحدى رسائله: "وأنا أدعو من خالفني إلى أحد أربع: إما إلى كتاب الله، وإما إلى سنة رسوله ﷺ، وإما إلى إجماع أهل العلم ؛ فإن عاند دعوته إلى المباهلة"[٥].

وقال الحافظ ابن حجر[٦] في فوائد قصة أهل نجران: "وفيها مشروعية

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١٢/٧.

(٢) زاد المعاد ٦٤٣/٣.

(٣) سنن النسائي ١٩٧/٦ ح(٣٥٢٢)، وصحح إسناده الألباني، انظر صحيح سنن النسائي ٧٤٦/٢ ح(٣٩٦).

(٤) انظر نونية ابن القيم بشرح د. محمد خليل هراس ص(١٢).

(٥) انظر الدرر السنية ٥٥/١.

(٦) هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني الشافعي، محدث مؤرخ، له مصنفات كثيرة منها: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ولسان الميزان، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، توفي بالقاهرة عام ٨٥٢هـ، الأعلام ١٧٨/١، ومعجم المؤلفين ٢٠/٢.

مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة، وقد دعا ابن عباس إلى ذلك ثم الأوزاعي، ووقع ذلك لجماعة من العلماء"[١].

وقد سئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: هل المباهلة خاصة بين الرسول ﷺ والنصارى؟

فاجابت بأنها ليست خاصة به ﷺ مع النصارى، بل حكمها عام له وأمته مع النصارى وغيرهم [٢].

ثانياً: شروط المباهلة :

يشترط للمباهلة شروط خمسة لابد من توافرها قبل أن يقدم الإنسان عليها، وقد اجتهدت في استنباط هذه الشروط من القرآن الكريم، والأحاديث، والآثار الواردة في قصة نصارى نجرا، وكلام بعض العلماء على هذه الواقعة، ثم عرضتها على فضيلة الشيخ محمد العثيمين – رحمه الله تعالى – فأقرها [٣]، وهي كما يلي:

١) إخلاص النية لله – تعالى –، فإن المباهلة دعاء وتضرع إلى الله – تعالى – كما تقدم، ولابد لقبول الدعاء من إخلاص النية فيه لله – تعالى –، كما هو الشأن في جميع العبادات، فلا يجوز أن يكون الغرض منها الرغبة في

---

(١) فتح الباري ٨/٩٥.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ٤/١٦٠.

(٣) وقد عرضتها عليه إجمالاً وذلك يوم الخميس ١٤١٤/١١/١٧هـ، بعد صلاة الظهر في مدينة عنيزة.

الغلبة، والانتصار للهوى، أو حب الظهور وانتشار الصيت، بل تكون للدفاع عن الحق وأهله، وإظهار الحق، والدعوة إلى الله – تعالى – والذب عن دينه.

٢) العلم، فإن المباهلة لابد أن يسبقها حوار وجدال، ولا جدال بلا علم، والمجادل الجاهل يفسد أكثر مما يصلح [(١)]، وقد ذم الله – تعالى – المجادل بغير علم فقال: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ** ﴾ [الحج: ٨].

كما ذم الله أهل الكتاب لمحاجتهم بغير علم فقال – تعالى –: ﴿ **يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٦].

قال القرطبي: "في الآية دليل على المنع عن الجدال لمن لا علم له ولا تحقيق عنده" [(٢)].

٣) أن يكون طالبُ المباهلة من أهل الصلاح والتقى، إذ إنها دعاء، ومن أعظم أسباب قبول الدعاء الاستجابة لله – تعالى – بفعل الطاعات واجتناب المحرمات، كما قال – تعالى – ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ**

(١) انظر الحوار مع أهل الكتاب لخالد القاسم ص(١٤٨).

(٢) تفسير القرطبي ٤/٧٠.

﴿يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال أبو بكر الجزائري في تفسيره: "مشروعية المباهلة غير أنها تكون في الصالحين الذين يستجاب لهم"[(١)].

٤) أن تكون بعد إقامة الحجة على المخالف، وإظهار الحق له بالأدلة الواضحة والبراهين القاطعة، فإذا أصرَّ على رأيه وبقي على ضلاله وعناده، ولم يقبل الحق، ولم تجد معه المحاورة والمناقشة، فعند ذلك يأتي دور المباهلة، وتقدم قول ابن القيم – رحمه الله –: "السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، ولم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة"[(٢)].

وبهذا يتبين خطأ من يلجأ إلى المباهلة بسبب ضعف أدلته وانقطاع حجته، وعدم قدرته على إقناع خصمه وتفنيد أدلته والرد على شبهته، وأن هذا المنهج خلاف ما جاء في الكتاب والسنة.

٥) أن تكون المباهلة في أمر مهم من أمور الدين، ويرجى في إقامتها حصول مصلحة للإسلام والمسلمين، أو دفع مفسدة كذلك.

قال الدّوّاني[(٣)]: "إنها (أي المباهلة) لا تجوز إلا في أمر مهم شرعاً وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة،

---

(١) أيسر التفاسير ٣٢٦/١.

(٢)انظر ص(٣٠٨).

(٣) هو العلامة محمد بن أسعد الصديقي الدَّوَّاني الشافعي، عالم العجم بأرض فارس، فاق في جميع العلوم لاسيما العقلية، وله مصنفات كثيرة، مات سنة ٩١٨هـ، انظر الأعلام ٣٢/٦، ومعجم المؤلفين ٤٧/٩.

والسعي في إزالة الشبهة وتقديم النصح والإنذار، وعدم نفع ذلك، ومساس الضرورة إليها"(١)، فلا ينبغي أن يدعو الإنسان إليها في كل مسألة يقع فيها الخلاف، ويسوغ فيها الاجتهاد كما يفعل بعض الجهال، وتأمل قول الله – تعالى –: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، أفرأيت من ذهب إلى رأي ظهرت له قوته، وبانت له رجاحته معتمداً على أدلة ثبتت عنده صحتها، وبدت له صراحتها، هل يُعد كاذباً مبطلاً ظالماً تجب مباهلته والقضاء عليه وملاعنته؟ !.

وأما ما ورد عن ابن عباس وابن مسعود والأوزاعي من دعوتهم للمباهلة في مسائل الفروع، فقد سألت فضيلة الشيخ محمد العثيمين – حفظه الله تعالى– عن ذلك فقال: إنه اجتهاد منهم – رضي الله عنهم – (٢).

ثالثاً: عاقبة المباهلة :

قال ابن حجر: "ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة، وقد وقع لي ذلك مع شخص كان يتعصب لبعض الملاحدة فلم يقم بعدها غير شهرين"(٣).

وقد دلت السنة على ذلك، فقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: "... ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا

---

(١) الفتوحات الإلهية ٣٢٦/١.

(٢) في نفس اللقاء السابق.

(٣) فتح الباري ٩٥/٨.

يجدون مالاً ولا أهلاً"[١].

وقال صديق حسن خان القنوجي[٢]: "أردت المباهلة في ذلك الباب - يعني باب صفات الله تعالى - مع بعضهم فلم يقم المخالف غير شهرين حتى مات"[٣].

ومما وقع أيضاً في هذا العصر: أن المتنبئ الكذاب غلام أحمد القادياني الذي ظهر في شبه القارة الهندية في القرن المنصرم باهل أحد العلماء الذين ناقشوه وناظروه وأظهروا كذبه وبطلان دعوته، وهو الشيخ الجليل ثناء الله الأمرتسري، فأهلك الله - عزوجل - المتنبئ الكذاب بعد سنة من مباهلته، وبقي الشيخ ثناء الله بعده قريباً من أربعين سنة، يهدم بنيان القاديانية ويجتث جذورها [٤].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢٤٨/١، وصحح إسناده أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٥١/٣.

(٢) هو أبو الطيب محمد صديق حسن خان البخاري القنوجي الهندي، له مؤلفات كثيرة بالعربية والأردية والفارسية، مات سنة ١٣٠٧هـ، انظر الأعلام ١٦٧/٦، ومعجم المؤلفين ٩٠/١٠.

(٣) عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري ٣٣٤/٥.

(٤) القاديانية دراسات وتحليل، لإحسان إلهى ظهير ص (١٥٤-١٥٩).

الفصل الثالث

وسائل القضاء على الشرك ومقاومته في ضوء القرآن الكريم

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الدعوة إلى التوحيد.

المبحث الثاني: نقض شبهات المشركين.

المبحث الثالث: إزالة مظاهر الشرك.

المبحث الرابع: الهجرة.

المبحث الخامس: الجهاد.

المبحث الأول: الدعوة إلى التوحيد

إن أُولى الوسائل التي سلكها القرآن الكريم في القضاء على الشرك الدعوة إلى توحيد الله - تعالى -، وعلى هذا المنهج سارت دعوات الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، حيث أخبر الله - تعالى - في القرآن الكريم أن أول مهمة قاموا بها حينما أرسلوا إلى أقوامهم المشركين هي دعوتهم إلى توحيد الله - تعالى - وإفراده بالعبادة [١].

وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكده بطريقين [٢]:

الأول: الطريق الإجمالي: حيث أخبر الله - تعالى - أنه بعث في كل أمة من الأمم رسولاً، وأن أول دعوة دعا إليها كل رسول هي الأمر بعبادة الله - تعالى - وحده، كما قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

قال السعدي: "يخبر - تعالى - أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة، ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له".

وقال - تعالى -: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥][٣].

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ١/٢٠.

(٢) انظر أضواء البيان ٣/٢٤٤، والمدخل إلى التفسير الموضوعي ص(١٠٦).

(٣) تفسير السعدي ٤/٢٠٢، وانظر تفسير ابن جرير ٧/٥٨٢، وتفسير ابن كثير ٢/٥٨٩، وأضواء البيان ٣/٢٤٤.

قال أبو حيان: "أخبر [سبحانه] أنه ما أرسل من رسول إلا جاء مقرراً لتوحيد الله وإفراده بالإلهية والأمر بالعبادة"(١).

وقال السعدي: "فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة"(٢).

الثاني: الطريق التفصيلي: حيث أخبر الله - تعالى - عن جملة من الأنبياء الذين ذكر قصصهم في القرآن الكريم أن أول أمر قاموا به حينما أرسلوا إلى أقوامهم المشركين هو الدعوة إلى توحيد الله - تعالى -، وإليك نماذج من تلك الدعوات:

١) فهذا نوح - عليه السلام - الذي هو أول الرسل إلى الأرض، ابتدأ رسالته بدعوة قومه إلى التوحيد، كما قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴾ [هود: ٢٥-٢٦].

وقال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن

(١) البحر المحيط ٣٠٦/٦.

(٢) تفسير السعدي ٢٢٣/٥، وانظر تفسير ابن جرير ١٦/٩، وتفسير ابن كثير ٢٨٥/٣.

يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ١-٣].

وقال - تعالى -: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

قال صاحب التحرير والتنوير عند هذه الآية: "وعطف جملة ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ على جملة ﴿أَرْسَلْنَا ﴾ بالفاء إشعاراً بأن ذلك القول صدر منه بفور رسالته، فهي مضمون ما أرسل به.

وخاطب نوح قومه كلهم لأن الدعوة لا تكون إلا عامة لهم، وعبّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة، ليتحققوا أنه ناصح ومريدٌ خيرهم ومشفق عليهم، وأضاف {القوم} إلى ضميره للتحبيب، والترقيق لاستجلاب اهتدائهم.

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فيه دلالة على إمحاضه النصح لهم، وحرصه على سلامتهم، حتى جعل ما يضر بهم كأنه يضر به، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم"[(١)].

٢) وعلى هذا المنهج سار هود - عليه السلام - حينما أرسل إلى قومه، حيث كانت الدعوة إلى التوحيد هي مهمته الأولى ومقصوده الأعظم، كما قال

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/٨ بتصرف، وانظر تفسير ابن جرير ٥٢٠/٥، و تفسير السعدي ٤٤/٣.

– تعالى –: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال – تعالى –: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: ٥٠].

وقال – تعالى –: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢١].

٣) وجاءت دعوة المشركين إلى التوحيد على لسان نبي الله صالح – عليه السلام –، كما قال – تعالى –: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال – تعالى –: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

وقال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل: ٤٥].

٤) وهكذا كان خليل الرحمن إبراهيم - عليه السلام -، فإنه ما فتئ[1] يدعو أباه وقومه عبدة الأوثان إلى التوحيد وبأساليب مختلفة، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

قال ابن كثير: "يخبر الله - تعالى - عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الزرق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم لا مسدى لها غيره..."[2].

٥) ومن الرسل الذين سماهم الله - تعالى - في القرآن الكريم وأخبر أنهم دعوا أممهم الشركية إلى التوحيد شعيب - عليه السلام -، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال - تعالى -: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

---

(١) أي مازال وما برح، مختار الصحاح ص(٢٠٥).

(٢) تفسير ابن كثير ٤١٨/٣.

٦) وعلى نهج أولئك سار نبي الله يوسف – عليه السلام –، حيث بادر إلى دعوة صاحبيه في السجن إلى لتوحيد، وبين لهما بطلان الشرك وعبادة الأوثان، كما قال – تعالى – حكاية عنه: ﴿ **يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

"لقد رسم يوسف – عليه السلام – بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المثيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة، كما هزّ بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً عنيفاً"[(١)].

٧) وكذا كان عيسى – عليه السلام – فقد دعا قومه إلى التوحيد، ورغبهم فيه، وحثهم عليه، كما قال – تعالى – حكاية عنه: ﴿ **وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ** ﴾ [آل عمران: ٥٠-٥١].

وقال – تعالى –: ﴿ **وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي**

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٨٩/٤، وانظر تفسير ابن كثير ٤٩٦/٢، و تفسير السعدي ٢٧/٤.

وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال - تعالى -: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال - تعالى -: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: ٣٦].

وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٦٤].

٨) وبهداهم اقتدى خاتم النبيين، نبينا محمد ﷺ، حيث مكث ثلاثة عشر عاماً بمكة يدعو قومه إلى التوحيد، ويحذرهم من الشرك، وبأساليب متنوعة، كما قال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

قال ابن جرير: "يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد: ما يوحى إليّ من ربي إلا أنه لا إله لكم يجوز أن يعبد إلا إله واحد لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي ذلك لغيره، ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ، يقول: فهل أنتم مذعنون له أيها المشركون، العابدون الأوثان والأصنام بالخضوع لذلك،

ومتبرئون من عبادة ما دونه من آلهتكم؟"[١].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن كثير: "يقول - تعالى - لرسوله ﷺ إلى الثقلين ؛ الجن والإنس آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من أتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي"[٢].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١١-١٥].

قال أبو السعود: "وأُمر ﷺ أولاً ببيان كونه مأموراً بعبادة الله - تعالى -، وإخلاص الدين له، ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان، ثم بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجه وآكده، إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسماً لأطماعهم الفارغة، وتمهيداً لتهديدهم بقوله - تعالى -: ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم ﴾ أن

(١) تفسير ابن جرير ١٠١/٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٤/٢.

تعبدوا ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى، وفيه من شدة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كي يحل بهم العقاب"[(١)].

وقال - تعالى -: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

قال ابن كثير عند قوله - تعالى -: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: "أي أخلصوا له العبادة على منوال[(٢)] ما أمركم به على أَلْسِنَة الرسل"[(٣)].

وقال - تعالى -: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤].

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٤٧/٧، وانظر تفسير ابن جرير ٦٢٣/١٠، و تفسير ابن كثير ٥٣/٤.

(٢) منوال: نسق وأسلوب، المعجم الوسيط ٩٦٤/٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٩٩/٤.

المبحث الثاني: نقض شبهات المشركين

للمشركين شبهات[(١)] كثيرة يَتَشَبَّثُون[(٢)] بها، ويحتجون على صحة ما هم عليه، ويُرَوِّجُون بها خرافاتهم وبدعهم.

وقد عرض القرآن الكريم بعض شبهات المشركين ثم نقضها وأبطلها وبين زيفها وفسادها، ولا شك أن كشف شبهات المشركين وبيان بطلانها من أهم وسائل القضاء على الشرك، والحد من انتشاره وشيوعه بين المسلمين.

وشبه المشركين المذكورة في القرآن الكريم متنوعة، فمنها ما يتعلق بالشرك في الألوهية، ومنها ما يتعلق بالنبوة، ومنها ما يتعلق بالقرآن، ومنها ما يتعلق بالبعث واليوم الآخر، وسأقتصر في هذا المبحث على ذكر شبهتين من شبههم المتعلقة بالشرك في الألوهية [(٣)].

الشبهة الأولى: قولهم: إننا لا نريد بدعائنا غير الله قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإنما نريد بذلك شفاعتهم[(٤)] لنا عند الله ؛لأن لهم عند الله جاهاً ومنزلة، أما نحن فمذنبون مقصرون، فلابد أن نتخذ وسطاء بيننا وبين الله.

قال – تعالى – حاكياً هذه الشبهة: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ

---

(١) الشبهة: الالتباس، انظر لسان العرب ٢١٩٠/٤، وقال الجرجاني: الشبهة في الفعل: هو ما ثبت بظن غير الدليل دليلاً، التعريفات ص(١٢٤).

(٢) يتشَبَّثون: يتعلقون، مختار الصحاح ص(١٣٨).

(٣) وقد تقدم ذكر إحدى شببهم في هذا الباب، وهي الاحتجاج بما كان عليه الأباء، انظر ص(٣٣).

(٤) قال الراغب: الشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة، المفردات ص(٤٥٨).

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾ [الزمر: ٣].

قال ابن كثير عند هذه الآية: "أخبر - عز وجل - عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله - تعالى - في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد الله بالعبادة وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه"[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "المشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها، ويقولون: هؤلاء خواص الله ؛ فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ؛ كما يُتوسل إلى الملوك بخواصهم، لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم،

(١) تفسير ابن كثير باختصار ٤/٤٩، وانظر تفسير ابن جرير ١٠/٦١١، و تفسير السعدي ٦/٤٤٥.

فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره ؛ فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبةً ورهبة.

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال - تعالى -: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال عن الملائكة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٢٦-٢٨].

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا: استشفاعنا بتماثيلهم استشفاعٌ بهم، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا: نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله، وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله، وذم المشركين عليها وكفرهم بها ..."[(١)].

وقال - تعالى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس: ١٨].

---

(١) مجموع الفتاوى ١/١٥٠ باختصار، و انظر ص(١٢٦) في نفس المرجع.

وفي هذه الآية ينكر الله - تعالى - على المشركين الذين يعبدون من دونه آلهة أخرى لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، ظانين أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم منه، ويبطل - سبحانه - مقولتهم ويدحض شبهتهم، وينفي عن تلك الآلهة القدرة على النفع والضر والشفاعة، فكيف تعبد وهذه حالها؟ أم أن هؤلاء المشركين يخبرون الله - تعالى - بما لا وجود له في السموات ولا في الأرض؟! هذا من أبطل الباطل.

وفي ختام الآية ينزه - سبحانه وتعالى - نفسه الكريمة عن شركهم وكذبهم[1].

وقال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧-٢٨].

ففي هاتين الآيتين يحذّر الله - سبحانه وتعالى - مشركي قريش وغيرهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم الشركية القريبة من ديارهم، التي وعظها بأنواع العظات، وذكّرها بالحجج الواضحات لعلها ترجع عما هي عليه من الشرك والضلال فلم يؤمنوا، بل أصروا على شركهم، فأحل بهم نقمته، وعاجلهم بعقوبته، ولم تنفعهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، ويتقربون بها إلى الله، ويرجون شفاعتها عنده، بل تركتهم أحوج ما يكونون إليها، ولم تدفع عنهم عذاب الله،

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٤٢/٦، و تفسير ابن كثير ٤٢٦/٢، و تفسير السعدي ٣٣٧/٣، والتفسير المنير ١٣٣/١١.

وبذلك ثبت كذبهم وافتراؤهم حينما قالوا: إن هذه الآلهة التي نعبدها تقربنا إلى الله وتشفع لنا عنده [(١)].

قال ابن جرير: "يقول - جل ثناؤه -: فلولا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم أوثانُهم وآلهتهم التي اتخذوا عبادها قرباناً، يتقربون بها فيما زعموا إلى ربهم منا إذ جاءهم بأسنا، فتنقذهم من عذابنا إن كانت تشفع لهم عند ربهم كما يزعمون، وهذا احتجاج من الله لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومه، يقول لهم: لو كانت آلهتكم التي تعبدون من دون الله تغني عنكم شيئاً، أو تنفعكم عند الله كما تزعمون أنكم إنما تعبدونها لتقربكم إلى الله زلفى، لأغنت عمن كان قبلكم من الأمم التي أهلكتها بعبادتهم إياها، فدفعت عنها العذاب إذا نزل، أو لشفعت لهم عند ربهم فقد كانوا من عبادتها على مثل الذي أنتم عليه، ولكنها ضرتهم و لم تنفعهم" [(٢)].

وهكذا أبطل الله - تعالى - هذه الشبهة التي يتعلق من أجلها المشركون بأوثانهم.

وقد أثبت الله - تعالى - في القرآن الكريم الشفاعة، ولكن جعلها ملكاً له وحده - سبحانه - كما قال - تعالى -: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وليس لأحد من الخلق أن يشفع عند الله لأحد في الدنيا، وأما في الآخرة فإن بعض العباد يشفعون لبعض ولكن بشرطين:

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٩٥/١١، و تفسير البغوي ١٧١/٤، وتفسير القرطبي ١٣٨/١٦، و تفسير ابن كثير ٥٦/٤، و تفسير السعدي ٥٦/٧، وأضواء البيان ٣٤٦/٧.

(٢) تفسير ابن جرير ٢٩٥/١١.

الأول: إذن الله – تعالى – للشافع أن يشفع.

الثاني: رضاه – سبحانه وتعالى – عن المشفوع له.

قال – تعالى –: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال – تعالى –: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال – تعالى –: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] [١].

الشبهة الثانية: احتجاجهم بالقضاء والقدر، حيث ظنوا أن مشيئة الله – تعالى – العامة للخير والشر دليل على رضاه عنهم وعن شركهم، كما قال – تعالى – حاكياً مقولتهم هذه، مبطلاً لها، مبيناً أن الأمم الشركية السابقة قد تمسكت بها فلم تنفعهم، ولم تغن عنهم من عذاب الله شيئاً [٢]: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

وفي هذه الآية أخبر الله – تعالى – أنهم سيقولون ذلك، وقد ذكر

---

(١) انظر إغاثة اللهفان ٢٢٥/١، وكشف الشبهات ص(١٢).

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١٩٣/٢، و تفسير السعدي ٤٩٥/٢.

- تعالى - في غير هذا الموضع أنهم قالوا ذلك بالفعل، كما قال - تعالى -: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وقال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وقد بين الشيخ عبدالرحمن السعدي فساد هذه الحجة وبطلانها، وذلك من وجوه سبعة:

١) ما ذكر الله - تعالى - من أنها لو كانت صحيحة لم تحل بالأمم التي احتجت بها العقوبة.

٢) أن الحجة لابد أن تكون مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص فإنها باطلة.

٣) أن لله - تعالى - الحجة البالغة التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة باطل ؛ لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلاً.

٤) أن الله - تعالى - أعطى كل مخلوق قدرةً وإرادة يتمكن بها من فعل ما كلف به، فما أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لايتمكن من تركه.

فالاحتجاج - بعد هذا - بالقضاء والقدر ظلم محض وعناد صرف.

٥) أن الله - تعالى - لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كفوا، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر، وأنكر المحسوسات ؛ فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومندرجاً تحت إرادته.

٦) أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك، فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك ؛ بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك لم يقبلوا منه الاحتجاج بالقضاء والقدر، بل يغضبون من ذلك أشد الغضب.

٧) أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما مقصودهم بذلك دفع الحق [(١)].

ومما يؤسف له أن كثيراً من جهال هذه الأمة وضلالها اقتفوا آثار أسلافهم من المشركين، وتمسكوا بشبههم، بل زادوا عليها شبهات كثيرة، ضلّلوا بها بعض عوامّ المسلمين، وأشاعوها بين جهالهم، وقد تولى علماء الإسلام ردّها، وكشفوا زيفها، وأظهروا بطلانها [(٢)].

---

(١) تفسير السعدي ٤٩٥/٢ بتصرف يسير، وانظر تفسير ابن جرير ٣٨٦/٥، و تفسير ابن كثير ١٩٣/٢، وفتح القدير ٢٤٨/٢.

(٢) وقد أُلفت في الرد على شبه المشركين مؤلفات خاصة منها: الرد على البكري، وكشف الشبهات، ومعارج الألباب في مناهج الحق والصواب، وتحفة الطالب والجليس، ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وغيرها.

المبحث الثالث: إزالة مظاهر الشرك

من الوسائل العملية للقضاء على الشرك وتطهير الأرض منه: إزالة مظاهره، وهدم أنصابه [(١)]، وإتلاف تماثيله ؛ وذلك لأن نفوس المشركين متعلقة بهذه الأنصاب، فإذا أزيلت وأهينت وقضي عليها ذهبت عن نفوسهم تلك المهابة والإجلال والتعظيم الذي كانت تكنها لها.

وقد اتخذ رسلُ الله – عليهم الصلاة والسلام – هذه الطريقةَ وسيلةً للقضاء على الشرك.

فهذا نبي الله إبراهيم – عليه السلام – ينقضُّ على أصنام قومه محطماً لها، وذلك بعد أن أنكر عليهم عبادتها، وأقام الحجة على بطلانها، فلم ينتهوا عن عبادتها، بل استمروا على ذلك [(٢)]، كما قال – تعالى –: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨].

وقال – تعالى –: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

---

(١) والأنصاب جمع نَصْب أو نُصْب، وهو العلم المنصوب، ويطلق على كل ما نصب للعبادة من دون الله – تعالى –، انظر لسان العرب ٤٣٥/٧، ومختار الصحاح ص(٢٧٥)، وإغاثة اللفهان ٢١٤/١، وفتح الباري ١٧/٨.

(٢) وقد تقدم ذكر قصة تحطيمه لأصنامهم، انظر ص(٢٧٣).

"أي مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيمينه حتى جعلها جذاذاً، أي قطاعاً متكسرة ؛ من قولهم: جذَّه: إذا قطعه وكسره"[١].

قال ابن عطية: "وقوله – تعالى –: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ هو على جهة الاستهزاء بعبدة الأصنام، ورُوي أن عادة أولئك كانت: أنهم يتركون في بيوت الأصنام طعاماً، ويعتقدون أنها تصيب منه شيئاً ونحو هذا من المعتقدات الباطلة، ثم كان خدم البيت يأكلونه، فلما دخل إبراهيم وقف على الأكل والنطق والمخاطبة للأصنام، والقصد الاستهزاء بعابدها، ثم مال عند ذلك إلى ضرب تلك الأصنام بفأس حتى جعلها جذاذاً"[٢].

وهكذا صنع نبي الله موسى – عليه السلام – حيث أحرق العجل الذي فُتن به بنو إسرائيل حتى عبدوه من دون الله، كما قال – تعالى –: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

ففي هذه الآية يخبر الله – تعالى – عن موقف رسوله موسى –عليه السلام– من السامري[٣] الذي سنَّ لبني إسرائيل عبادة العجل الذي صاغه من ذهب، ثم ألقى عليه قبضة أخذها من أثر حافر فرس جبريل – عليه السلام– حينما نزل لإغراق فرعون وقومه، فلما ألقى عليه تلك القبضة حيي وتحرك وصار له صوت كصوت البقر فتنةً لهم وامتحاناً، ففتن به بعض بني إسرائيل،

(١) أضواء البيان ٣٠٧/٤، وانظر تفسير ابن جرير ٥٠٢/١٠، ومختار الصحاح ص(٤١).

(٢) تفسير ابن عطية ٢٤٤/١٣، وانظر تفسير ابن كثير ١٥/٤.

(٣) هو رجل من قبيلة السامرة، وكان من عظماء بني إسرائيل، انظر تفسير ابن جرير ٤٥٢/٨.

وظنوا أنه هو إلههم فعبدوه، وذلك في غيبة موسى - عليه السلام - حينما خرج للقاء ربه، وسماع كلامه، فكانت عقوبة موسى - عليه السلام - له أن نهى الناس أن يمسوه أو يؤاكلوه أو يخالطوه أو يبايعوه، فكان يهيم في البرِّيَّة [(١)].

وأما العجل الذي زعم أنه إلهه وأقام على عبادته فمصيره الإتلاف، وذلك بتحريقه بالنار، ثم ذَرْيُه في البحر، وذلك"ليزول ما في قلوبهم من حبه كما زال شخصه.

ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى داعٍ إلى الباطل"[(٢)].

"وهذا موقف حازم من موسى - عليه السلام - أحد الأنبياء أولي العزم، لأن مثل هذا المعبود في زعم السامري ومن اتبعه يجب استئصال آثاره، حفاظاً على توحيد الله - عزوجل - وعبادته وحده لا شريك له"[(٣)].

وحينما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح، قام إلى الأصنام التي حول الكعبة فكسرها، كما في حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: ((دخل رسول الله ﷺ مكة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نُصُباً، فجعل يطعنها بعود كان بيده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] [(٤)].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٨/٤٤٣-٤٥٤، و تفسير ابن كثير ٣/١٧٠-١٧٢، و تفسير السعدي ٥/١٨٠-١٨٥، والتفسير المنير ١٦/٢٦٢-٢٧٦.

(٢) تفسير السعدي ٥/٨٥.

(٣) التفسير المنير ١٦/٢٧٣.

(٤) أخرجه البخاري ٨/٤٠٠ ح(٤٧٢٠)، ومسلم ٣/١٤٠٨ ح(١٧١٨).

قال القرطبي عند قوله - تعـالى -: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ : "في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذا غُلب عليهم"[(١)].

وقد اقتفى أثر هؤلاء الرسل الكرام واستن بسنتهم واهتدى بهداهم الأئمةُ المصلحون والعلماء الربانيون في هذه الأمة من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا، فهدموا أبنية الشرك، وكسروا أنصابه [(٢)].

وهذه هي وصية رسول الله ﷺ، فقد أخرج مسلم في صحيحه عـن أبي الهياج الأسدي[(٣)] قال: قال لي علي بن أبي طالب [رضي الله عنه]: ((ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)) [(٤)].

ولكن ينبغي أن لا يقدم الإنسان على ذلك إذا خاف أن يترتب على فعله مفسدة أعظم من مفسدة ما أزاله ؛ فإن الضرر لا يزال بمثله ولا بأشد منه، كما في القاعدة المشهورة [(٥)].

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠٣/١٠.

(٢) انظر الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة ص(٤٢)، وإغاثة اللفهان ٢١٥/١، وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر ٩/١، والتبرك أنواعه وأحكامه ص(٥٠٢).

(٣) هو أبوالهيّاج حيَّان بن حصين الأسدي الكوفي، تابعي ثقة، روى عن علي وعمار، انظر تهـذيب التهذيب ٦٧/٣، وتقريب التهذيب ص(١٨٤).

(٤) صحيح مسلم ٦٦٦/٢ ح(٩٦٩).

(٥) انظر الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية ص(٢٠٢).

المبحث الرابع: الهجـــــرة

تعريف الهجرة:

الهِجْرَة في اللغة: ضدُّ الوصل، والخروج من أرض إلى أخـــرى، وهجـــر الشيء: تركه [(١)].

وقال الراغب الأصفهاني: "الهَجْرُ والهِجْرَان: مفارقة الإنسان غيره ؛ إمـــا بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب"[(٢)].

والهجرة في الاصطلاح الشرعي: تطلق على معنيين:

أحدهما: الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام [(٣)].

والثاني: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن [(٤)].

---

(١) انظر مختار الصحاح ص(٢٨٨)، والقاموس المحيط ٢٥٥/٢، وأحكام القرآن لابن العربي ٤١٨/١.

(٢) المفردات ص(٨٣٣).

(٣) قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "دار الكفر: هي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر، ويكون النفوذ فيها للكفار، وهي على نوعين:

أ) بلاد كفار حربيين.

ب) بلاد كفار مهادنين بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة، فتصير إذا كانت الأحكام للكفار دار الكفر، ولو كان بها كثير من المسلمين.

ودار الإسلام هي التي يحكمها المسلمون وتجري فيها الأحكام الإسلامية، ويكون النفـــوذ فيهـــا للمسلمين، ولوكان جمهور أهلها كفاراً، الفتاوى السعدية ٩٢/١.

(٤) انظر فتح الباري ١٦/١، وتوسع ابن العربي في معنى الهجرة فجعلها قسمين، وجعل لكل قســـم أنواعاً متعددة، انظر أحكام القرآن لابن العربي ٤٨٤/١.

هذه هي الهجرة الحسية، وهناك هجرة معنوية، وهي ما عبر عنها ابن القيم بقوله: والهجرة الثانية:

==

والهجرة في سبيل الله - تعالى - سنة باقية، ووسيلة ناجحة للقضاء على الشرك ومقاومته، وحماية المسلمين من شره، وشر أهله، وذلك لأن المسلم الموحد الذي يعيش بين المشركين وتحت ولايتهم معرض للفتن، إما بشبهاتهم، وإما ببغيهم عليه، وظلمهم له، وإكراهه على الدخول في دينهم، فهو في هذه الحال محتاج إلى ملاذ آمن، يستطيع أن يعبد فيه ربه، ويأمن على نفسه.

ثم إن اجتماع المسلمين في أرض إسلامية وولاية عادلة يقوي شوكتهم، ويعلي كلمتهم، ويسهل لهم نشر دينهم، والدفاع عنه، وجهاد أعدائه من المشركين وغيرهم.

أساليب القرآن الكريم في الحث على الهجرة:

لقد حث القرآن الكريم على الهجرة ورغب فيها بأساليب متنوعة منها:

١) الأمر بها، كما قال - تعالى -: ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال ابن كثير: "هذا أمر من الله - تعالى - لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة

==

الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ...، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها، وهي هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته ..."، الرسالة التبوكية ص(١٩)، وانظر الهجرة في القرآن الكريم لأحزمي جزولي ص(٤٨٣).

الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم"[١].

٢) الثناء على المهاجرين ووصفهم بالصفات الحميدة، كما قال -تعالى-: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وقال - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وقال - تعالى -: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ففي هذه الآيات الكريمة يثني الله - تعالى - على المهاجرين ويصفهم بالصفات الحميدة من الإخلاص، ونصرة الله ورسوله، والصدق، والصبر، والتوكل، والجهاد في سبله، ورجاء رحمته[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٣٠، وانظر تفسير القرطبي ١٣/٢٣٧.

(٢) انظر الهجرة في القرآن الكريم لأحزمي سامعون جزولي ص(٨٥-١٣٠).

٣) وعد المهاجرين بالجزاء الحسن، والفضل العظيم في الدنيا والآخرة، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

ففي هذه الآية يرغب الله - تعالى - في الهجرة في سبيله، ويبين ثمراتها الكثيرة في الدنيا والآخرة، حيث يَعِدُ من يهاجر في سبيله بأن يجد في الأرض مكاناً يمتنع فيه من أعدائه، ويغيظهم فيه [(١)]، كما يعده - سبحانه - بسعة الرزق.

ثم يخبر - تعالى - عمن خرج مهاجراً في سبيلة متحولاً من أرض الشرك إلى أرض الإسلام ثم أدركه الموت في الطريق، وأنه ينال أجر المهاجر بنيته ومقصده، كما يغفر له ما حصل منه من تقصير في أمر الهجرة وغيرها، وهذا من رحمة الله، وكان الله غفور رحيماً [(٢)].

---

(١) قال الراغب: الرَّغام: التراب الدقيق، ورغم أنف فلان رغْماً: وقع في التراب، ويعبر بذلك عن السَّخط، ثم تستعار المراغمة للمنازعة، قال - تعالى -: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ أي مذهباً يذهب إليه إذا رأى منكراً يلزمه أن يغضب منه"، المفردات ص(٣٥٩) باختصار، وقد ورد عن مجاهد أنه قال في المراغمة المذكور في الآية: متزحزحاً عما يكره، وقال ابن قتيبة: المراغم والمهاجر واحد، انظر زاد المسير ١٨٠/٢، و تفسير ابن كثير ٥٥٦/١، وقال السعدي: المراغمة: اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول أو فعل، تفسير السعدي ١٤٠/٢.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٢٣٩/٤، و تفسير ابن كثير ٥٥٥/١، و تفسير السعدي ١٤٠/٢.

وقال - تعالى -: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وفي هذه الآية الكريمة يعد الله - تعالى - المؤمنين الذين هاجروا في سبيله، فتركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإسلام، وفارقوا الأهل والأوطان والأحباب والخلان طلباً لمرضاة الرحمن، وفراراً بدينهم من أذية أهل الشرك والطغيان، وجاهدوا في سبيل الله حتى استشهدوا، يعد الله - تعالى - هؤلاء بتكفير السيئات ودخول الجنات التي تجري في خلالها الأنهار، ثواباً من عند الله الكريم المنان، والله عنده حسن الثواب [1].

وقال - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

وفي هذه الآيات الكريمة يذكر الله - تعالى - ثواب المتصفين بالصفات الحميدة المذكورة، وهي: الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله بالأموال

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٥٦/٣، و تفسير ابن كثير ٤٥١/١، و تفسير السعدي ٤٧٧/١.

والأنفس، ويبين أنهم أرفع منزلة عنده - سبحانه - من غيرهم، وأنهم هم الفائزون الذين نالوا مطلوبهم وهو الجنة، ونجوا من مرهوبهم وهو النار، حيث يبشرهم - سبحانه وتعالى - برحمة منه يغفر بها ذنوبهم ويرفع بها درجاتهم، ورضوان منه - تعالى - عليهم، فلا يسخط عليهم أبداً، كما يبشرهم - سبحانه - بجنات خالدة فيها أنواع النعيم، من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، كل هذا دائم لا يزول ولا يبيد، وهم مع ذلك خالدون في هذا النعيم، وهذه الجنات، لا يزولون عنها ولا يتحولون، وهذا من فضل الله العظيم وإحسانه العميم [١].

قال الشوكاني: "والتنكير في الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم، والمعنى: أنها فوق وصف الواصفين، وتصور المتصورين، والنعيم المقيم: الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له، وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمينها معنى التعليل، أي أعطاهم الله - سبحانه - هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيما يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم"[٢].

٤) الوعيد للمتخلفين عن الهجرة [٣]، كما قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٣٨/٦، و تفسير السعدي ٢١١/٣.

(٢) فتح القدير ٤٨٤/٢.

(٣) انظر الهجرة في القرآن الكريم ص(١٥٠).

أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ((أن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يُكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم يُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يُضرب فيُقتَل، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾... الآية))[(١)].

قال ابن كثير: "هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حرامًا بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ أي بترك الهجرة، ﴿ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡ ﴾ أي لِمَ مكثتم ههنا وتركتم الهجرة؟"[(٢)].

وقولهم: ﴿ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾- أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة - غير صحيح، لأن الله - تعالى - وبخهم وتوعدهم، فلو كانوا صادقين لما توعدهم، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولذلك استثنى - سبحانه وتعالى - المستضعفين حقيقة في الآية التي بعدها، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾

---

(١)صحيح البخاري ٨/٢٦٢ ح(٤٥٩٦).

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٥٥.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ [النساء: ٩٨-٩٩] [(١)].

قال الشوكاني: "وقد استُدل بهذه الآية على أن الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك، أو بدار يُعمل فيها بمعاصي الله جهاراً إذا كان قادراً على الهجرة، و لم يكن من المستضعفين، لما في هذه الآية الكريمة من العموم، وإن كان السبب خاصاً كما تقدم، وظاهرها عدم الفرق بين مكان ومكان وزمان وزمان"[(٢)].

الهجرة في الأمم السابقة في ضوء القرآن الكريم:

ليست الهجرة خاصة بهذه الأمة، بل هي سنة قديمة عمل بها رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – وأتباعهم فراراً بدينهم، وطمعاً في نشره بين الناس، وقد ذكر الله – تعالى – في القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم في الأمم الماضية [(٣)].

فقد أخبر الله – تعالى – في القرآن الكريم عن خليله إبراهيم –عليه السلام– أنه ترك أرض قومه في العراق، وهاجر مع ابن أخيه لوط – عليه السلام – إلى الشام، كما قال – تعالى –: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وقال – تعالى –: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ

(١) انظر تفسير السعدي ١٣٧/٢.

(٢) فتح القدير ٧٥٦/٢.

(٣) انظر الهجرة في القرآن الكريم ص(١٧٥).

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦] [(١)]، وقال - تعالى-: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

قال ابن جرير: "لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها مقامه أيام حياته"[(٢)].

وقال القرطبي عند قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ "هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم -عليه السلام-، وذلك حين خلصه الله من النار، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي مهاجر من بلد قومي ومولدي إلى حيث أتمكن من عبادة ربي، فإنه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ فيما نويت إلى الصواب"[(٣)].

كما أمر الله - تعالى - موسى - عليه السلام - أن يهاجر ببني إسرائيل من أرض مصر، وذلك بعد أن أقام حجج الله وبراهينه على فرعون وقومه، فأبى واستكبر، وطغى وتجبر، وآذى بني إسرائيل، ومنعهم من إقامة شعائر دينهم، فأراد الله - تعالى - أن ينجي بني إسرائيل منه، وأن يمكن لهم في الأرض لكي

---

(١) قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ القائل هو إبراهيم ـ عليه السلام ـ، روي ذلك عن ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم، ورجحه ابن جرير والشوكاني، وقيل: القائل هو لوط ـ عليه السلام ـ، لأنه أقرب المذكورين، انظر تفسير ابن جرير ١٠/١٣٣، وتفسير القرطبي ١٣/٢٢٥، و تفسير ابن كثير ٣/٤٢٠، وفتح القدير ٤/٢٧٩.

(٢) تفسير ابن جرير ٩/٤٦.

(٣) تفسير القرطبي ١٥/٦٥.

يتمكنوا م ن عبادة الله جهاراً، ويقيموا شعائر دينهم [١]، كما قال - تعالى -: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢]، وقال - تعالى -: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الدخان: ٢٣].

كما أخبر الله - تعالى - عن الفتية أصحاب الكهف أنهم هاجروا من ديار قومهم، ولجؤا إلى غار في أحد الجبال القريبة منهم، وذلك فراراً بدينهم من قومهم المشركين الذين أرادوا فتنتهم عن دينهم، كما قال - تعالى -: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠]، وقال - تعالى -: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦].

قال القرطبي عند قوله - تعالى -: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾: "هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة ..."[٢].

(١) انظر تفسير ابن جرير ٤٤٣/٩، و تفسير ابن كثير ٣٤٧/٣، و تفسير السعدي ١٧٦/٥، و٥١٩/٥.

(٢) تفسير القرطبي ٢٣٤/١٠، وانظر تفسير ابن كثير ٧٩/٣.

هجرة النبي ﷺ وأصحابه:

١) الهجرة إلى الحبشة [(١)].

لما اشتد ليل البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ بمكة، لاسيما من ليس له عشيرة تدافع عنه وتحميه أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى أرض الحبشة فراراً بدينهم من الفتنة.

قال ابن إسحاق[(٢)]: "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام"[(٣)].

وقال قتادة عند قوله - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١]:

---

(١) الحبشة: بلد في الشمال الشرقي من أفريقية، وتعرف الآن بأثيوبيا، انظر دائرة معارف القرن العشرين ٢٩٨/٣.

(٢) هو العلامة الحافظ الأخباري أبوبكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المطلبي مولاهم، المدني، صاحب السيرة النبوية، صدوق يدلس، ورمي بالتشيع والقدر، توفي عام ١٥٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٣٣/٧، وتقريب التهذيب ص(٤٦٧).

(٣) سيرة ابن هشام ٣٢١/١، وانظر زاد المعاد ٢٣/٣.

"هؤلاء أصحاب محمد ﷺ، ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين"[١].

٢) الهجرة إلى المدينة:

ولما استمر أذى قريش للمسلمين في مكة وفتنتهم لهم وانتشر الإسلام في المدينة، وبايع أهل المدينة رسول الله ﷺ على أن ينصروه، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة فبادروا إلى ذلك، ثم أذن الله – تعالى – لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة فهاجر إليها، ولم يبق بمكة إلا من حبسه المشركون[٢].

قال الله – تعالى – آمراً المسلمين بالهجرة إلى المدينة: ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال القرطبي: "هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، فأخبرهم الله – تعالى – بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرض مع صالحي عباده، أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة لإظهار التوحيد بها"[٣].

---

(١) تفسير ابن جرير ٥٨٥/٧.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٤٣٨/١، وزاد المعاد ٤٣/٣.

(٣) تفسير القرطبي ٢٣٧/١٣ باختصار.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ((كان رسول الله ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠])) [١].

وقال الحسن البصري[٢] عند هذه الآية: "كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله: ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾"[٣].

حكم الهجرة:

قال ابن قدامة: "الناس في الهجرة على ثلاثة أضرب:

أحدها: من تجب عليه، وهو من يقدر عليها، ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة، لقول الله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢٣/١، والترمذي ٢٨٤/٥ ح(٣١٣٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ٣/٣.

(٢) هو أبوسعيد الحسن بن أبي الحسن: يسار البصري، ثقة، فاضل، فقيه مشهور، وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، توفي عام ١١٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤، وتقريب التهذيب ص(١٦٠).

(٣) تفسير ابن جرير ١٣٥/٨، وانظر سيرة ابن هشام ٤٨٠/١.

وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

الثاني: من لا هجرة عليه، وهو من يعجز عنها إما لمرض أو إكراه على الإقامة، أو ضعف، من النساء والولدان وشبههم، فهذا لا هجرة عليه لقول الله - تعالى -: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٨-٩٩].

والثالث: من تستحب له ولا تجب عليه، وهو من يقدر عليها لكن يتمكن من إظهار دينه وإقامته في دار الكفر، فتستحب له ليتمكن من جهادهم، وتكثير المسلمين ومعونتهم، ويتخلص من تكثير الكفار ومخالطتهم ورؤية المنكر بينهم، ولا تجب عليه لإمكان إقامة واجب دينه بدون الهجرة، وقد كان العباس عم النبي ﷺ مقيماً بمكة مع إسلامه[1] ..."[2].

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين في هذا الزمان هاجروا من بلادهم الإسلامية إلى بلاد الكفار، وأحبوا الإقامة بين أظهرهم من غير مسوغ شرعي،

---

(١) قيل: إنه أسلم بعد بدر، وكتم ذلك عن قومه، وصار يكتب إلى النبي ﷺ بالأخبار، وقد هاجر قبل الفتح بقليل، انظر الإصابة ٤/٣٠.

(٢) المغني ١٣/١٥١، وانظر أضواء البيان ٤/٦٤٤، والهجرة في القرآن الكريم ص(٤٥٥).

وهذا أمر خطير، فقد ورد الوعيد الشديد لمن أقام بين ظهراني المشركين [١]، ثم إن الإنسان معرض للفتن مادام مقيماً بينهم ؛ فتن الشبهات، وفتن الشهوات، وقد حصل هذا لكثير ممن أقاموا في تلك البلاد، نسأل الله – تعالى – الثبات على دينه، ونعوذ به من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

(١) كما في حديث جرير بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: ((أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين))، أخرجه أبوداود ١٠٥/٣ ح(٢٦٤٥)، والترمذي ١٣٣/٤، ح(١٦٠٤)، ورجح إرساله، وأخرجه النسائي مرسلاً عن قيس بن أبي حازم ٣٥/٨ ح(٤٧٧٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٢٩/٥، وانظر الولاء والبراء للقحطاني ص(٢٧١-٢٨٠).

المبحث الخامس: الجهـــاد

تعريف الجهاد:

الجهاد في اللغة: المبالغة، واستفراغ ما في الوسع والطاقة مـــن قـــول أو فعل[(١)].

وقال الراغب: "الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو"[(٢)].

والجهاد شرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار[(٣)].

هذا هو معنى الجهاد الحسي، أو الجهاد الخاص، وأما الجهاد المعنـــوي أو الجهاد بمعناه العام فهو ما عبر عنه شيخ الإسلام ابن تيميـــة بقولـــه: "الجهـــاد حقيقته: الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان"[(٤)].

وقال في موضع آخر: "الجهاد: هو بذل الوسع - وهـــو القـــدرة - في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق"[(٥)].

والجهاد في سبيل الله - تعالى - من أعظم وسائل قمع الشرك والقضـــاء عليه، وذلك أن السُّنة في المشركين أن يُدعوا إلى الإسلام، فإن أبوا طلبت منهم

---

(١) انظر لسان العرب ٧١٠/٢، والقاموس المحيط ٣٩٦/١، ومختار الصـــحاح ص(٤٨)، والمعجـــم الوسيط ١٤٢/١.

(٢) المفردات ص(٢٠٨).

(٣) فتح الباري ٣/٦، وانظر الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته لعبدالله القادي ٤٩/١.

(٤) مجموع الفتاوى ١٩١/١٠، وانظر الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته ٢٧٤/١.

(٥) مجموع الفتاوى ١٩٢/١٠.

الجزية [١]، فإن أبوا دفع الجزية وجب على المسلمين جهادهم حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية، كما في حديث بريدة[٢] - رضي الله عنه - قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ...، فإن هم أبو فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ...)) الحديث [٣].

مراحل تشريع الجهاد:

نزل تشريع الجهاد بعد الهجرة إلى المدينة، وكان قبل ذلك محظورا على المسلمين، فقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ في أول الأمر بدعوة المشركين إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان وأمره بالعفو عنهم والصبر على أذاهم، والكف عن قتالهم، كما قال - تعالى -: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ

---

(١) الجزية: هي مال يؤخد من الكفار المعاهدين على وجه الصغار كل عام بدلاً من قتلهم وإقامتهم بدارنا. انظر كشاف القناع ١١٧/٣.

(٢) هو أبو عبدالله بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمي، أسلم عام الهجرة، وقيل: أسلم بعد بدر، وقد شهد غزوة خيبر والفتح وغيرهما، توفي في خراسان عام ٦٣هـ، وقيل: ٦٢هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤٦٩/٢، والإصابة ١٥١/١.

(٣) صحيح مسلم ١٣٥٧/٣ ح(١٧٣١).

ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الجاثية: ١٤].

قال ابن كثير: "أي ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد"[(١)].

وقال – تعالى –: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩]، وقال – تعالى –: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ق: ٣٩]، وقال – تعالى –: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول – تعالى ذكره – لنبيه ﷺ: بلغ قومك ما أرسلت به، واكفف عن حرب المشركين بالله وقتالهم، وذلك قبل أن يفرض عليه جهادهم، ثم نسخ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]"[(٢)].

ثم لما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة واستقروا فيها، وصار لهم دولة وشوكة ومنعة شرع الله الجهاد[(٣)].

وقد مر تشريع الجهاد بثلاث مراحل: الأولى: الإذن فيه، والثانية: الأمر بقتال من قاتلهم، والثالثة: الأمر به مطلقاً.

قال الشنقيطي: "ومن حكمة الله – تعالى – أنه لم يأمر بالجهاد بغتة في

---

(١) تفسير ابن كثير ١٦١/٤، وانظر تفسير ابن جرير ٢٥٦/١١، و تفسير ابن كثير ٢٣٦/٤، وفي ظلال القرآن ٧١٤/٢.

(٢) تفسير ابن جرير ٥٥/٧.

(٣) انظر زاد المعاد ٦٩/٣.

وقت واحد، لأن في ذلك مشقة عظيمة على النفوس لما فيه من تعريضها لأسباب الموت، مع أنه ينفق فيه المال أيضاً، ولذلك جعل الله - تعالى - تشريعه تدريجياً حيث أذن فيه أولاً من غير إيجاب، ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه إيجاباً عاماً جازما"[1].

المرحلة الأولى:

الإذن في الجهاد، كما قال - تعالى -: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ففي هذه الآية يبيح الله - تعالى - للمسلمين قتال الكفار ويعدهم بالنصر عليهم.

و عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ((لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، لَيَهْلِكن، فنزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فعرفت أنه سيكون قتال، قال ابن عباس: هي أول آية نزلت في القتال))[2].

---

(١) أضواء البيان ٥/٧٠٠ بتصرف.

(٢)أخرجه النسائي ٦/٢ ح(٣٠٨٥)، وابن جرير ٩/١٦١، وأخرجه الترمذي بدون قوله: ((فهي أول آية نزلت في القتال))، وقال: هذا حديث حسن، انظر سنن الترمذي ٥/٣٠٤ ح(٣٧١)، وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن النسائي ٢/٦٤٦ ح(٢٨٩٠).

وقد روي عن جمع من السلف أنها أول آية نزلت في الجهاد [(١)].

المرحلة الثانية:

الأمر بقتال من قاتلهم، كما قال - تعالى -: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

قال ابن جرير: "قال بعض أهل التأويل: "هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك، وقالوا: أُمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمّن كف عنهم، ثم نسخت بـ"براءة"" [(٢)].

المرحلة الثالثة:

الأمر بقتال جميع الكفار، كما قال - تعالى -: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٣٥/٣.

(٢) تفسير ابن جرير ١٩٥/٢، وانظر تفسير ابن أبي حاتم ٣٢٥/١، وتفسير القرطبي ٢٣١/٢، وزاد المعاد ٧١/٣، وقيل المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ من شأنهم القتال دون غيرهم من النساء والصبيان ونحوهم، وقيل المراد بالآية: تهييج المسلمين وتحريضهم على قتال الكفار، أي هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم هم أعداؤكم الذين يقاتلونكم، انظر تفسير القرطبي ٢٣١/٢، و تفسير ابن كثير ٢٣٣/١، وأضواء البيان ١٠٥/١، والأرجح ـ والله تعالى أعلم ـ القول الأول، وهو ما ذهب إليه ابن جرير ومن وافقه، لأنه مروي عن بعض السلف، ولأنه هو ظاهر الآية، ولا منافاة بينه وبين القولين الآخرين.

ﱡﭐ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﱠ [التوبة: ٥].

وقال - تعالى -: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال - تعالى -: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وفي هذه الآيات يأمر الله - تعالى - بقتال المشركين مطلقاً حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[(١)].

أساليب القرآن الكريم في الحث على الجهاد في سبيل الله:

لقد حث القرآن الكريم على الجهاد في سبيل الله وأمر به ورغب فيه بأساليب متنوعة منها:

١) الأمر الصريح، كما قال - تعالى -: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال - تعالى -: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

(١) أي عن قهر وغلبة وهم حقيرون ذليلون، انظر تفسير ابن كثير ٣٦١/٢.

٢) الإخبار بأن كل ما يفعله المجاهدون من مقاتلة الكفار والاستيلاء على أوطانهم وغنيمة أموالهم، وما ينفقونه في سبيل ذلك من النفقات الصغيرة والكبيرة، وما يقطعونه من الأرض في مسيرهم، وما يصيبهم في سبيل ذلك من الجوع والعطش والمشقة كل ذلك يثابون عليه، ويكتب لهم عند ربهم حسنات[1]، كما قال – تعالى –: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠- ١٢١].

قال السعدي: "ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير"[2].

٣) وعد الشهداء الذين يقتلون في سبيل الله بالحياة الكريمة، والنعيم العظيم بعد استشهادهم، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤١٤/٢، و تفسير السعدي ٣١٢/٣.

(٢) تفسير السعدي ٣١٣/٣.

أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

قال ابن كثير: "يخبر الله عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حيَّة مرزوقة في دار القرار"[١].

وعن عن مسروق[٢] قال: سألنا عبد الله - هو ابن مسعود - عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ قال: ((أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل[٣] معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٥/١، وانظر تفسير السعدي ٤٥٥/١، هذا، ويرى الشنقيطي أن هذه الحياة البرزخية لا يدرك أهل الدنيا حقيقتها، واستدل بقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤]، فنفي الشعور يدل على نفي الإدراك، انظر أضواء البيان ٢٦٢/١.

(٢) هو أبوعائشة مسروق بن الأجدع بن مالك الهمْداني الكوفي، ثقة فقيه عابد، من كبار التابعين، وكبار تلاميذ عبدالله بن مسعود، توفي عام ٦٢هـ، وقيل: ٦٣هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٦٣/٤، وتقريب التهذيب ص(٥٢٨).

(٣) القناديل: المصابيح، مختار الصحاح ص(٢٣٠).

شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا))(١).

٤) وعد المجاهدين في سبيل الله بالأجر العظيم، والجزاء الكريم في الدنيا والآخرة، كما قال - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢](٢).

حكم الجهاد:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الجهاد فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين، وهو الراجح، ويتعين في حالات ثلاث:

الأولى: إذا هاجم العدو بلاد المسلمين ؛ فإنه يتعين على أهله قتالهم ودفعهم.

الثانية: إذا استنفر الإمام المسلمين لزمهم القيام معه.

الثالثة: إذا التقى الصفان ؛ صف المسلمين وصف الكفار حرم على من

---

(١) صحيح مسلم ١٥٠٢/٣ ح(١٨٨٧).

(٢) وقد تقدم تفسير هذه الآيات في ص(٤١٣)، وانظر في فضل الجهاد زاد المعاد ٧٢/٣.

حضر الانصراف [١].

هذا، ومما ينبغي التنبيه عليه أن هناك من المعاصرين مَن يرى أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن الأنفس والأهل والأوطان فقط، والحامل لهم على هذا الرأي اتهام الكفار للإسلام بالغلظة والقسوة، وأنه إنما انتشر بالسيف والقوة [٢].

ولا شك أن هذا رأي باطل، فإن الجهاد في الإسلام يجب ابتداءً، إذا توفَّرت شروطه، والمسلمون مأمورون بقتال الكفار حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية كما تقدم، ودماء المشركين وأموالهم حلال للمسلمين حتى يؤمنوا بالله وحده، والحكمة من ذلك هي أن يزال الشرك من الأرض، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وليس المقصود سفكَ دماء المشركين وأخذ أموالهم [٣].

والمتأمل في التاريخ الإسلامي يجد أن عامة من دخل في الإسلام قديماً وحديثاً كان عن قناعة ورغبة، وأن من قتل في الغزوات الإسلامية الجهادية ربما لا يساوي عدد قتلى حرب واحدة من حروب الأمم الطاغية المستبِّدة الظالمة، ولا سيما في العصور المتأخرة التي انتشرت فيها أسلحة الدمار الشامل، التي تقضي على الأخضر واليابس، وتبيد الصغير والكبير.

---

(١) انظر المغني لابن قدامة ١٣/٦-٨، والجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته ١/٥٣.

(٢) انظر الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته ١/٦١١، والولاء والبراء في الإسلام للقحطاني ص(٢١٤).

(٣) انظر ص(٢٠٩)

الخاتمة

وبعد أن يسر الله – تعالى – إتمام هذا البحث أذكر أهم النتائج التي توصلت إليها فيما يأتي:

١) اهتمام القرآن الكريم بموضوعات العقيدة عموماً، وموضوع الشرك خصوصاً، ويظهر ذلك من خلال الآيات الكثيرة الواردة في شأنه.

٢) أن المنهج القرآني في محاربة الشرك منهج فريد يناسب العامة والخاصة، ويخاطب العقل والعاطفة؛ حيث بين أسباب الشرك، لكي يجتنبها المسلم فيسلم من الوقوع فيه، وذكر نماذج من مظاهره لكي تجتنب ويستدل بها على باقيه، وبين آثاره الكبيرة في الدنيا والآخرة؛ لكي يترجر الناسُ عنه ويخافوا سوء عاقبته، وحذَّر منه بأساليب متنوعة تناسب جميع طبقات الناس، وجادلَ أهله بالحجج الباهرة والبراهين الساطعة، وذكر الوسائل التي يتم بها القضاء عليه وحماية المسلمين من الوقوع فيه.

٣) الشرك ليس مرتبة واحدة ؛ بل منه ما هو أكبر مخرج عن ملة الإسلام، وهو: أن يصرف الإنسان نوعاً من أنواع العبادة لغير الله، ومنه ما هو أصغر لا يخرج عن الملة، وهو: كلُّ وسيلة إلى الشرك الأكبر، من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة.

٤) ظهور الشرك وانتشاره بين الناس له أسباب كثيرة، أشار القرآن الكريم إلى جملة منها، فمنها: الغلو في المخلوقين، والتقليد الأعمى للأباء، والتكبر، والجهل بالله – تعالى – وأسمائه وصفاته، وإهمال العقل وعدم التفكر في آيات الله – تعالى –.

٥) الشرك له أنواع كثيرة، ومظاهر متنوعة، منها ما يتعلق بالاعتقادات كالشرك في المحبة والخوف والتوكل، ومنها ما يتعلق بالأعمال كالشرك في الطاعة، والسحر، ومنها ما يتعلق بالأقوال كالشرك في الدعاء، ونسبة النعم إلى غير الله – تعالى –.

٦) الشرك له آثار كثيرة وعواقب وخيمة في الدنيا والآخرة ؛ فهو أظلم الظلم وأعظم الذنب، يهدر الدم والمال، ويقطع العلائق والروابط، ويجلب الذلة والخذلان، ويورث الهموم والأحزان، وفي الآخرة محبط لجميع الأعمال، موجب للخلود في النيران.

٧) حذر القرآن الكريم من الشرك ونفّر عنه بأساليب كثيرة ومتنوعة، تناسب جميع الطبقات، وتخاطب القلوب، وتوقظ العقول.

٨) جادل القرآن الكريم المشركين وأثبت لهم بطلان الشرك بالحجج القوية، والبراهين المتنوعة، والأساليب المقنعة.

٩) ذكر القرآن الكريم جملة من الوسائل التي تقضي على الشرك وتحدّ من انتشاره وتحمي المسلمين من الوقوع فيه.

١٠) حاجة الناس الماسة إلى معرفة حقيقة الشرك وحكمه وأنواعه وآثاره، خاصة في هذا الزمن ؛ فقد انتشر الشرك بين المسلمين انتشاراً كبيراً وبصور مختلفة.

وبعد ذكر هذه النتائج الهامة، أبدي ما يحضرني من توصيات حول هذا الموضوع الحسّاس فيما يلي:

١) أوصي طلبة العلم، والباحثين بالاهتمام بهذا الموضوع الخطير، وذلك

بدراسته، وتحذير الناس منه، وبيان أضراره، ومحاربته بكافة الأساليب المناسبة.

٢) الاهتمام بموضوعات العقيدة التي تحدث عنها القرآن الكريم، ودراستها دراسة موضوعية.

٣) الالتزام بمنهج القرآن الكريم في دعوة الناس إلى هذا الدين ؛ فهو أقوم المناهج وأفضلها وأسهلها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الآيات

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾	١٦٣-١٦٤	٨٦
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ﴾	١٦٥-١٦٧	٣١٥
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾	١٧٠	٤٥
﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾	١٧١	٤٦
﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾	١٧٣	٢٢٢
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي ﴾	١٨٦	١٧٨، ٣٨٤
﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾	١٩٠	٤٢٨
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾	١٩٣	٢٠٨
﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾	١٩٧	١٠٢
﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾	٢١٣	٣٠، ١٤٦
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ﴾	٢١٨	٤١١
﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾	٢٢١	٢٢٠
﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾	٢٥٥	٣٩٩، ٤٠٢

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾	٣٨	١٠٦
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾	٤٨، ١١٦	٢٤، ٢٤٤،
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾	٥٩	١٤٥
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾	٦٠-٦٢	١٤٦
﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾	٧٨-٧٩	١٢٤
﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟﴾	٨٩	٢٢٤
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾	٩٧	٤١٥، ٤١٦، ٤٢١
﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾	٩٨-٩٩	٤١٥، ٤٢٢
﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	١٠٠	٤١٢
﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾	١٠٢	١٠٢
﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾	١٠٥	١٤٦
﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾	١٣٥	٤٩
﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾	١٤٢	١٠٥
﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾	١٧١	٣٦، ٣٧

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
سورة المائدة		
﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾	٣	٢٢٢
﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾	٥	٢٢٠ حاشية
﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾	٦	٢٢١ حاشية
﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾	٢٣	٩٨
﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾	٤٤	١٤٨
﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾	٤٥	١٤٨
﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾	٤٧	١٤٨
﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَ﴾	٥٠	١٤٨
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾	٥٤	٨٥
﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾	٧٢	٢٥، ٢٤١، ٣٩٤
﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ﴾	٧٥	٣٦٤

الآيـــة	رقمها	الصفحة
﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾	٧٧	٣٧
﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً ﴾	٨٢	٣٨ حاشية
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ ﴾	٨٧	٣٨
﴿ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾	١٠٣	٧٦
﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾	١١٦-١١٧	٢٠٤، ٣٢٠
سورة الأنعام		
﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾	١	١٧
﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾	١	٨٧
﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾	١٠-١١	٣١٠
﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا ﴾	١٤	٦٨، ٢٥٣
﴿ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾	٢٢	٣٢١
﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾	٢٣	٣٢١
﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾	٢٧-٢٨	٣١٥
﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾	٤٠-٤١	١٧٠، ٢٦٤

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾	١٢١	١٤٢، ٢٢١
﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾	١٢٥	٢٢٩
﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾	١٤٣-١٤٤	٣٤٩
﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ﴾	١٤٥	٢٢٢
﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾	١٤٨-١٤٩	٤٠٢
﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾	١٥١	٢٥٢
﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾	١٥٥	١٣١
﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى ﴾	١٦٢-١٦٣	٢٠٣
﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾	١٦٤	٦٨
سورة الأعراف		
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾	١١-١٣	٥٨
﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾	١٢	٥٨
﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾	٢٩	١٨١

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾	٣٧-٣٩	٣١٨
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا ﴾	٤٠	٥٩
﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	٥٤	١٣٠، ١٣٩
﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾	٦٩	٢٨٦، ٣٠٨
﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾	٧٠	٤٥
﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾	٧٣	٣٩١
﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾	٧٤	٢٨٧، ٣٠٩
﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾	٧٥-٧٦	٥٦
﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾	٨٥	٣٩٢
﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾	٨٨	٥٧
﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾	٦٥	٣٩١
﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾	١٠١	٣٣٠

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾	١٣٠-١٣١	١٢٢
﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾	١٣٨	١٣٦
﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾	١٤٦	٦٠
﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾	١٤٨	٣٠٠،
﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا ﴾	١٧٥-١٧٦	٥٠
﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾	١٨٠	٧١ حاشية
﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾	١٨٥	٢٧٢
﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا ﴾	١٩١-١٩٢	٢٩٥، ٣٠٣، ٣٢٧
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	١٩٤-١٩٥	٢٩٦
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾	٢٠٦	٦٠
سورة الأنفال		
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾	٢	٩٨

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾	٣٩	٢٠٨،
﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾	٦٠	١٠٢
﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾	٦٧	٢١٠
سورة التوبة		
﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾	٤	٢٠٧ حاشية
﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾	٥	٢٠٨، ٤٢٩
﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾	١٧	٢٣٨
﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾	١٨	٩٢
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	٢٠-٢٢	٤١٣، ٤٣٢
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ ﴾	٢٣-٢٤	٢١٦
﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾	٢٩	٤٢٩

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا ﴾	٣١	٣٧، ١٣٩، ١٤٩، ١٥٣
﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً ﴾	٣٦	٢٠٩، ٤٢٩
﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ ﴾	٥٨	١١٦
﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾	١١٣	٢٤٣
﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ ﴾	١٢٠-١٢١	٤٣٠
سورة يونس		
﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً ﴾	٥	٢٧٥
﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾	١٢	١٧٥
﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾	١٣	٣١٢
﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾	١٨	٣٩٩
﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾	١٩	٣١

الآيــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾	٤٠	٢١٥
﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ ﴾	٤٥-٤٦	٢١٥
﴿ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ ﴾	٤٨	١٣١
﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا ﴾	٥٠	٣٩١
﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾	٥٢	٢٨٣
﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا ﴾	٥٤	٩٣،
﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾	٥٩	٤٧
﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗا ﴾	٦١	٣٩١
﴿ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾	٦٢	٤٥
﴿ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾	٨٧	٤٥
﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ ﴾	٩٧	٤٧
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ ﴾	١٠٣	٩٢
﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ ﴾	١٢٣	١٠٠

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
سورة يوسف		
﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾	٣	٣٢٩
﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾	١٣	٩٠
﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ ﴾	٣٨	٤٣
﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ﴾	٣٩ ، ٤٠	٣٢٦، ٣٩٣
﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	١٠٥	٧٧
﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾	١٠٦	١٨، ٧٨، ١٨٩
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾	١٠٩	٣١٢
سورة الرعد		
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾	٤	٧٦
﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾	١٤	٣٠٤
﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	١٦	٣٢٦
سورة إبراهيم		
﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾	٩-١١	٣٦٧

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾	١٢	١٠٠
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم ﴾	١٣-١٤	٩٣
﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾	٢٢	١٤٣، ٣٢١
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾	٣٢-٣٤	١٨٤
﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾	٤٥	٣٤٣
سورة الحِجر		
﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾	٩٤	٤٢٧
سورة النحل		
﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾	٣	٢٧٤
﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾	٥	٩١
﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾	١٧-١٨	٢٩١، ٣٢٨
﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾	١٨	٢٨٨
﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾	٢٠-٢١	٢٩٥، ٢٩٦
﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾	٢٢-٢٣	٥٧

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾	٢٣	٦٠
﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾	٢٥	٣١٧ حاشية
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا﴾	٣٥	٤٠٣
﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾	٣٦	٣٨٨
﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾	٤١-٤٢	٤١٢
﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾	٤٣	٤١ حاشية
﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾	٥١-٥٥	٢٥٩
﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾	٧٢-٧٤	٢٩٢
﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾	٧٨	٢٧٠
﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾	٨٠-٨٣	٢٩٣
﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾	٨٣	١٨٦
﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَ﴾	٨٦	٣٢٢
﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾	٨٧	٣٢٢
﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٨٨	٣١٧ حاشية

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾	٩٤-٩٥	٣٦٨
سورة الكهف		
﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ ﴾	١٠	٤١٩
﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾	١٥	٢٠٤
﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾	١٦	٤١٩
﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارًا ﴾	١٨	٩٠
﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾	٢٦	١٤٤
﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾	٢٦	٢٥٢
﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا ﴾	٢٨	٥١
﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ ﴾	٤٢-٤٣	٢٣٢
﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾	١١٠	١٠٤
سورة مريم		
﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ ﴾	٣١	١٣٢
﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ ﴾	٣٦	٣٩٤
﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾	٤١-٤٨	٣٣٢

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ﴾	٤٢	٢٥٣، ٢٩٧
﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾	٤٨-٤٩	١٧٦
﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾	٧٧-٨٠	٣٥٢
﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾	٨١-٨٢	٣١٦
سورة طه		
﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾	٦٩	١٦٣
﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلًا﴾	٨٩	٣٠٠
﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفًا﴾	٩٧	٤٠٦
﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ﴾	٩٩	٣٣٠
﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾	١٠٩	٤٠٢
﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾	١٢٤	٢٣٠
سورة الأنبياء		
﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾	٢٢	٣٥٨

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾	٢٥	٣٨٨
﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾	٢٦-٢٨	٣٩٩
﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾	٢٨	٩١
﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾	٤٣	٣٠٢
﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾	٥٤	٣٠٥
﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾	٥٧-٥٨	٤٠٥
﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾	٦٣	٣٠٠
﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ﴾	٦٤	٣٠١
﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾	٦٥	٣٠١
﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ﴾	٦٦-٦٧	٣٠٥
﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾	٧١	٤١٦
﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾	٩٨-٩٩	١٧٧،٢٤٤

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ ﴾	١٨	٣٠٩
﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا ﴾	٢٥	٣١٦
﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾	٢٦	٤١٨
﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾	٣٦	٣٩٢
﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾	٤٣	٣٤٣
﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ﴾	٥٦	٤١١
﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾	٦٥	١٦٨
سورة الروم		
﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾	٢٨	٣٤٤
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾	٣٠-٣١	٣٢، ٢٥٥
﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾	٣١	٢٥٤
﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	٤٢	٣١٠
سورة لقمان		
﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾	١٣	١٩٩، ٢٥٣
﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾	١٨	٥٨

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	٢٠	١٨٤، ٢٨٩
سورة الأحزاب		
﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾	٢١	٤٢
﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾	٣٩	٩١
﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾	٦٦-٦٨	٤٧
سورة سبأ		
﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞ﴾	١٥-١٧	٢٣٢
﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾	٢٢	٢٩٨
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾	٣١-٣٣	٣١٩
﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾	٤٠-٤٢	٢٠٤، ٣٢١
﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾	٤٩	٤٠٨
سورة فاطر		
﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾	٢٨	٨٨ حاشية
سورة يس		
﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾	١٣-١٩	١٢٣

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾	٣	٣٩٨
﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾	٣	١٧٧
﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ﴾	٨	١٧٣
﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾	١١-١٥	٣٩٥
﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ ﴾	٢٧	٣٤٣
﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾	٣٨	١٨، ٣٠٢
﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا ﴾	٤٤	٤٠٢
﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ﴾	٤٩-٥١	١٨٩
﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾	٦٢-٦٧	٦٥
﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾	٦٥	٢٥، ٢٣٧
سورة غافر		
﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾	٢٣-٢٤	٥٦
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾	٢٧-٣٥	٥٦

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾	٣٥	٥٦
﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾	٦٠	٥٩، ١٧٨
﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾	٦٥	١٧٩
﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾	٧٤	٣٢١
﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾	٧٥-٧٦	٥٩
سورة فصلت		
﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾	٦	٣٩٦
﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾	٣٧	٢٧٦
﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ﴾	٥٣	٢٦٦
سورة الشورى		
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾	٢٠	١١٣
﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾	٢١	١٤٢، ٢٠٥

الصفحة	رقمها	الآيـــــة
		سورة الزخرف
٤٠٣	٢٠	﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾
٤٤	٢٣	﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾
١٧٥	٤٩	﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾
٣٩٤	٦٤	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾
٢٣٧	٨١	﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾
٤٢٧	٨٩	﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾
		سورة الدخان
١٣١	٣	﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾
٤١٩	٢٣	﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾
٢٣٣	٢٥-٢٨	﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾
		سورة الجاثية
١٨٦	١٣	﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾
٤٢٦	١٤	﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾	٢٠-٢١	٧٩
﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾	٢١	٢٦٨
﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	٥٦	٢٠٧
سورة الطور		
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم ﴾	٢١	٤٢
﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾	٣٥	٣٥٤
سورة النجم		
﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾	١٩-٢٣	٥٢، ١٣٤
﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾	٢٦	٣٩٩
سورة الرحمن		
﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾	٤٦	٩٢
سورة المجادلة		
﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾	٢٢	٢١٣
سورة الحشر		
﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾	٨	٤١٢

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾	٢٢-٢٤	٧٠
سورة الممتحنة		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى ﴾	١-٣	٢١٧
﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾	٢	٢٢٤
﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾	٤	٢٢٣
﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾	٨	٢٢٤
﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾	١٠	٢٢٠
سورة الطلاق		
﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ ﴾	٢-٣	١٠٠
﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾	٣	٩٩
سورة الملك		
﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾	٢	١٠٥
﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾	٣	٣٥٨
﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾	٢٣	٢٧٠
﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾	٢٩	١٠٠

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
سورة الكافرون		
﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾	٢	١٧٨
سورة الفلق		
﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾	١-٥	١٦٥

فهرس المصادر والمراجع

(أ)

١- آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد، لمدحت حسن الفراج، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، مكتبة الحميضي، الرياض.
٢- أحكام القرآن، لأبي بكر الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٢هـ.
٣- أحكام القرآن لابن العربي المالكي، تحقيق: على البجاوي، دار الجيل، بيروت.
٤- الإحكام في أصول الأحكام، لأبي الحسن الآمدي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
٦- الإخلاص والشرك الأصغر، لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف، الطبعة الثانية، دار الوطن، الرياض.
٧- أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) الطبعة الثانية، ١٤١١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني، دار الفكر، بيروت.

١٠- أساليب الاستفهام في القرآن، لعبد العليم السيد فودة، مؤسسة دار السعيد.

١١- أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٢- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (تفسير محمد الأمين الشنقيطي)، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

١٤- الأعلام، لخير الدين الزركلي، الطبعة العاشرة، ١٩٩٢م، دار العلم للملايين، بيروت.

١٥- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، دار الجيل، بيروت.

١٦- إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، لابن القيم، تحقيق: مجدي السيد، دار الحديث، القاهرة.

١٧- الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة، المؤسسة السعيدية، الرياض.

١٨- إقامة البراهين على الحكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين، لعبد العزيز بن باز، مطابع الحجاز الحديثة، الرياض.

١٩- الأمثال القرآنية، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ، دار القلم، دمشق.

٢٠-أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١-إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذاهب الحق من أصول التوحيد، لابن المرتضى ليماني، المشهور بابن الوزير، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر الجزائري، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ دار راسم، جدة.

٢٣-الإيمان، لابن تيمية، تحقيق: محمد الزبيدي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٤-الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٢٥-الاعتصام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطي، الطبعة الأولى ١٣٣٢هـ، دار الكتب الخديوية.

٢٦-اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(ب)

٢٧- الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة المقدسي، تحقيق: عادل أبو العباس الساعي، الرياض.

٢٨- البحر المحيط (تفسير أبي حيان الأندلسي) الطبعة الثانية ١٤١١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩-البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين الزركشي، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت.

٣٠-بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، جمعه يسري السيد محمد، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.

٣١-بدائع الفوائد، لابن القيم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٢-البداية والنهاية، لابن كثير، الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ، مكتبة المعارف، بيروت.

٣٣-البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤-بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المكتبة العلمية، بيروت.

٣٥-بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام مع شرحه سبل السلام، للصنعاني، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ، دار الريان للتراث، القاهرة.

(ت)

٣٦- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره أحمد صقر، المكتبة العلمية.

٣٧-التبرك، أنواعه وأحكامه، لناصر بن عبد الرحمن الجديع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

٣٨-التبرك المشروع والتبرك الممنوع، لعلي العلياني، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الوطن، بيروت.

٣٩-تحكيم القوانين، لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، دار الوطن، الرياض.
٤٠- تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد، لفريح البهلال، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، دار الأثر، الرياض.
٤١- الترغيب والترهيب، للمنذري، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ، مكتبة الباز، مكة.
٤٢-تصنيف آيات القرآن الكريم، لمحمد محمود إسماعيل، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، دار اللواء، الرياض.
٤٣-تصور الألوهية كما تعرض سورة الأنعام، لإبراهيم الكيلاني، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، مكتبة الأقصى، عمان.
٤٤-التعريفات، للجرجاني، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٥-تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
٤٦-تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار) لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت ١٤١٤هـ.
٤٧-تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم)، لعبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الرازي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، مكتبة نزار الباز، مكة.
٤٨- تفسير القرآن العظيم (تفسير الحافظ ابن كثير)، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، دار المعرفة، بيروت.

٤٩-التفسير الكبير: مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٠-تفسير المراغي، لمحمد بن مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥١-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لوهبة الزحيلي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الفكر، بيروت.

٥٢-تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، دار الرشيد، سوريا، حلب.

٥٣-تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، مصورة عن الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الهند.

٥٤-تهذيب اللغة، للأزهري، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٥٥- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.

٥٦-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، ١٤١٠هـ.

٥٧-تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، لعبد الرحمن السعدي، مركز صالح ابن صالح الثقافي بعنيزة، ١٤٠٨هـ.

(ج)

٥٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير ابن جرير الطبري)، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٩-جامع الرسائل، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، دار المدني، جدة.

٦٠-جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الريان، القاهرة.

٦١-الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٢-الجهاد في سبيل الله، حقيقته وغايته، لعبد الله بن أحمد القادري، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ، دار المنار، جدة.

٦٣-الجهاد وأهميته في نشر الدعوة الإسلامية، لعلي العلياني، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، دار طيبة، الرياض.

٦٤-الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

(ح)

٦٥- حاشية ثلاثة الأصول، لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ.

٦٦- حاشية كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٦٧-الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لإسماعيل بن محمد الأصفهاني، تحقيق: محمد المدخلي ومحمد أبو رحيم، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الراية، الرياض.

٦٨-الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، لعبد العزيز مصطفى كامل، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار طيبة، الرياض.

٦٩-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٧٠-الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة، لخالد بن عبد الله القاسم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ دار المسلم، الرياض.

(خ)

٧١-خلق الإنسان بين الطب والقرآن، لمحمد بن علي البار، الطبعة السابعة ١٤٠٩هـ، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة.

(د)

٧٢- دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، الطبعة الثالثة ١٩٧١م، دار المعرفة، بيروت.

٧٣-الدار المنثور في التفسير المأثور، للسيوطي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٤-الدار النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، للشوكاني، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، دار ابن خزيمة، الرياض.

٧٥-درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٧٦-دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عظيمة، دار الحديث، القاهرة.

٧٧- الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ.

٧٨- الدعاء ومترلته من العقيدة الإسلامية، لجيلان العروسي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

٧٩-دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عرض ودراسة، لعبد العزيز العبد اللطيف، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، درا الوطن، الرياض.

٨٠-دعوة التوحيد، لمحمد خليل هراس، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨١-دلائل التوحيد، لمحمد جمال الدين القاسمي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨١- دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: محمد رواس قلعة جي،دار النفائس،بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ.

٨٢-دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لمحمد بن علان الصديقي الشافعي، دار الريان، القاهرة.

٨٣-ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٠هـ.

(ر)

٨٤- الرد على البكري، لابن تيمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، الدار العلمية، دلهي.

٨٥-الرسالة التبوكية، لابن القيم، تحقيق: طارق السعود، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ، دار الهجرة، بيروت.

٨٦- الشرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، مكتبة الإيمان، الإسكندرية.

٨٧-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير محمد الألوسي البغدادي)، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٨- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم، تخريج وتعليق عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، دار الصميعي، الرياض.

٨٩- رياض الصالحين، للنووي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

(ز)

٩٠-زاد المسير في علم التفسير (تفسير ابن الجوزي)، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الفكر، بيروت.

٩١-زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثامنة، ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(س)

٩٢-سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٩٣-سنن أبي داود، لابي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، إعداد وتعليق: عزت الدعاس وعادل السيد، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ، دار الحديث، بيروت.

٩٤-سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فـؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

٩٥-سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سـورة الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٦-السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار المعرفة، بـيروت، ١٤١٣هـ.

٩٧-سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، اعتنى به: عبـد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ، دار البشـائر الإسـلامية، بيروت ز

٩٨- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، الطبعـة الثامنة ١٤١٢هـ ، دار الرسالة، بيروت.

٩٩- السيرة النبوية لابن هشان، لأبي محمد عبد الملك بن هشـام الحمـيري، تحقيق: إبراهيم السقا وزميليه، مؤسسة علوم القرآن.

(ش)

١٠٠- شأن الدعاء، لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي، تحقيـق: يوسـف الدقاق، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ، دار الثقافة العربية.

١٠١-شرح العقيدة الطحاوية، لعلي بن علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق: عبـد الله التركي وشعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، مؤسسـة الرسالة، بيروت.

١٠٢-شرح القصيدة النونية لابن القيم، لمحمد خليل هراس، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٣-شرح حديث ما ذئبان جائعان، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، مؤسسة الريان، بيروت.

١٠٤-شرح نواقص التوحيد، لحسن العواجي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، مكتبة لينة، دمنهور.

١٠٥-الشرك الأصغر حقيقته وأحكامه، لعبد الله السليم، رسالة ماجستير مطبوعة بالحاسب الآلي، جامعة الإمام، قسم العقيدة.

١٠٦-الشرك الأكبر حقيقته وحكمه وأنواعه، لأسماء السلمان، رسالة الماجستير مطبوعة بالحاسب الآلي، جامعة الإمام، قسم العقيدة.

١٠٧-الشرك وأنواعه، لجفري أفندي وهاب، رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة، الجامعة الإسلامية، قسم العقيدة.

١٠٨-الشرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، مكتبة الإيمان، الإسكندرية.

١٠٩-شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٠- الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، لعبد الرزاق العباد، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

(ص)

١١١- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ.

١١٢-صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، (مع فتح الباري) أخرجه وصححه: محب الدين الخطيب، رقمه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت.

١١٣-صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١١٤-الصحيح المسند من أسباب النزول، لمقبل بن هادي الوادعي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، مكتبة ابن حزم، بيروت.

١١٥-صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١١٦-صحيح سنن النسائي، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١١٧-صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة الإسلامية، استانبول.

١١٨-صراع بين الحق والباطل، لسعيد صادق محمد، الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٩-صفة الصفوة، لأبي الفرج ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٠-صفة صلاة النبي – صلى الله عليه وسلم-، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الحادية عشرة ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢١- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، تحقيق: علي الدخيل الله، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، دار العاصمة، الرياض.

(ض)

١٢٢-ضعيف سنن النسائي، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢٣-ضوابط التكفير عن أهل السنة والجماعة، لعبد الله بن محمد القرني، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(ط)

١٢٤-الطب محراب الإيمان، الخالص جلبي الطبعة السابعة ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٥-طبقات المفسرين، لشمس الدين محمد علي الداودي، تحقيق: علي محمد عمر، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ، مكتبة وهبة، القاهرة.

١٢٦-طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم، تحقيق: يوسف علي بديوي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، دار ابن كثير، بيروت.

١٢٧-الطير والطيرة في القرآن والسنة، لسهام عبد الله وادي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، مكتبة السنة، القاهرة.

(ظ)

١٢٨-ظاهر الغلو في الدين في العصر الحديث، لمحمد عبد الحكيم حامد، الطبعة الأولى، دار المنار الحديثة، شبرا.

(ع)

١٢٩- عالم السحر والشعوذة، لعمر بن سليمان الأشقر، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ، دار النفائس، الأردن.

١٣٠- عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، لمحمد أحمد ملكاوي، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ، دار ابن تيمية، الرياض.

١٣١-العقدية الواسطية، لابن تيمية (بشرح الفوزان)، الطبعة الخامسة ١٤١١هـ، الرئاسة العامة للبحوث العليمة والإفتاء، الرياض.

١٣٢-علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، لبسيوني عبد الفتاج، مكتبة وهبة، القاهرة.

١٣٣-علماء نجد خلال ستة قرون، لعبد الله البسام، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ، مكتبة النهضة الحديثة، مكة.

١٣٤-عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المدني، جدة.

١٣٥-عنوان المجد في تاريخ نجد، لعثمان بن بسر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

١٣٦- عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري، (شرح التجريد الصحيح للزبيدي) لصديق حسن خان، مطابع قطر الأهلية، قطر.

١٣٧-عون المعبود شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب محمد عظيم آبادي، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ، دار الفكر، بيروت.

(ف)

١٣٨- الفتاوى السعدية، للسعدي، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

١٣٩-فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض.

١٤٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، صححه وأخرجه محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

١٤١- فتح البيان في مقاصد القرآن، لصديق حسن خان، أم القرى، القاهرة.

١٤٢- فتح الحق المبين في علاج الصرع والسحر والعين، لعبد الله الطيار، وسامي المبارك، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار الوطن، الرياض.

١٤٣-فتح القدير الجامع فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار الحديث، القاهرة.

١٤٤-فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، الطبعة الثانية ١٤١١هـ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض.

١٤٥-الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، لسليمان بن عمر العجيلي، الشهير بالجمل، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.

١٤٦-الفروق، لأبي العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي، عالم الكتب، بيروت.
١٤٧-الفوائد، لابن القيم، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٤٨-في ظلال القرآن، لسيد قطب، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، دار العلم، جدة.

(ق)

١٤٩- القاديانية، دراسات وتحليل، لإحسان إلهى ظهير، إدارة ترجمان السنة.
١٥٠-القاموس المحيط، لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار الكتب، بيروت.
١٥١-قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، مكتبة المؤيد، الرياض.
١٥٢-قصة الإيمان من الفلسفة والعلم والقرآن، لنديم الجسر، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
١٥٣-القصة القرآنية هداية وبيان، لوهبة الزحيلي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار الخير.
١٥٤- القصص القرآني إحياؤه ونفحاته، لفضل حسن عباس، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الفرقان.
١٥٥- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لمحمد بن صالح العثيمين، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الجيل.

١٥٦-القواعد والأصول الجامعة، لعبد الرحمن السعدي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٤١٠هـ.

١٥٧-القول السديد في مقاصد التوحيد، لعبد الرحمن السعدي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، دار الوطن، الرياض.

١٥٨-القول الفصل النفيس في الرد على المفتري داود جرجيس، لعبد الرحمن ابن حسن آل الشيخ، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقهي، مطبعة أنصار السنة المحمدية بمصر.

١٥٩- القول المفيد على كتاب لتوحيد، لمحمد بن صالح العثيمين، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار العاصمة، الرياض.

(ك)

١٦٠-كتاب استخراج الجدال من القرآن الكريم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن نجم الأنصاري، المشهور بابن الحنبلي، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، مؤسسة الريان، القاهرة.

١٦١-كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، لمحمد بن عبد الوهاب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار السلام، الرياض، ١٤١٣هـ.

١٦٢-كتاب الداعي إلى الإسلام، لعبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق: سيد باعجوان، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، دار البشائر الإسلامية.

١٦٣-كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي اليمني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ.

١٦٤-كتاب العظمة، لأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار العاصمة، الرياض.

١٦٥-كتاب تجريد التوحيد المفيد، لأحمد بن علي المقريزي، تحقيق: علي العمران الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، دار عالم الفوائد، مكة.

١٦٦-كشاف القناع عن متن الإقناع، لمنصور البهوتي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ.

١٦٧-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (تفسير الزمخشري)، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.

١٦٨-كشف الشبهات، لمحمد بن عبد الوهاب، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة، ١٤٠٦هـ.

(ل)

١٦٩- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، لعلي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، الشهير بالخازن، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٠-لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، دار الهجرة، بيروت.

١٧١- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، تحقيق: عبد الله عبد الكبير وزميليه، دار المعارف، القاهرة.

١٧٢- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، لابن رجب الحنبلي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(م)

١٧٣- مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رتبها عبـــد العزيـــز الرومـــي وزميلاه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

١٧٤-مباحث العقيدة في سورة الزمر، لناصر علـــي الشـــيخ، الطبعـــة الأولى ١٤٠٥هـــــ، مكتبة الرشد، الرياض.

١٧٥-مباحث في علوم القرآن، لمانع القطان، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرســـالة، بيروت.

١٧٦- مجلة البيان، مجلة شهرية، تصدر عن المنتدى الإسلامي في لندن.

١٧٧-مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بـــن قاسم وابنه: محمد، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـــــ.

١٧٨-مجموعة التوحيد النجدية، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

١٧٩-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، المكتبة التجاريـــة، مكة.

١٨٠-المحلى، لابن حزم، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٨١-مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبـــة لبنـــان، بـــيروت، ١٩٨٨م.

١٨٢-مدارج السالكين، لابن القيم، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـــــ، دار الكتـــب العلمية، بيروت.

١٨٣-المدخل إلى التفسير الموضوعي، لعبد الستار فتح الله سعيد، الطبعة الثانية ١٤١١هـ، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر.

١٨٤-المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، لإبراهيم البريكان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار السنة، الخبر.

١٨٥-المستدرك على الصحيحين، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.

١٨٦-مسند الإمام أحمد، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، بمصر، ١٣٩٢هـ.

١٨٧-مسند الإمام أحمد، دار الفكر، بيروت.

١٨٨-مشاهير علماء نجد وغيرهم، لعبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ، دار اليمامة.

١٨٩-المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

١٩٠-المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٩١- مع قصص السابقين في القرآن، لصلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، دار القلم، دمشق.

١٩٢-معارج الألباب في مناهج الحق والصواب، لحسين بن مهدي النعمي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار الأرقم، برمنجهام.

١٩٣-معارج القبول بشرح سلم الوصول، لحافظ بن أحمد الحكمي، مكتبة حميدو، الإسكندرية.
١٩٤-معالم التنزيل (تفسير البغوي)، لأحمد محمد الحسين بن مسعود البغوي، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ، دار المعرفة، بيروت.
١٩٥-معاني القرآن، ليحيى بن زياد الفراء، دار السرور، بيروت.
١٩٦-المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، حققه أيمن صالح شعبان وسيد أحمد إسماعيل، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، دار الحديث، القاهرة.
١٩٧-معجم البلدان، لياقوت الحمودي، دار صادر، بيروت.
١٩٨-معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٩٩-معجم المصطلحات العلمية والفنية، ليوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت.
٢٠٠-المعجم المفصل في علوم البلاغة، لإنعام عكاوي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠١-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ووضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ.
٢٠٢-المعجم الوسيط، إعداد جماعة من الباحثين، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا.
٢٠٣-معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الثانية ١٣٣٩هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٢٠٤-المغني لابن قدامة، تحقيق: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلـــو، الطبعـــة الأولى ١٤١٠هـــــ، دار هجر، القاهرة.
٢٠٥-مفتاح دار السعادة، لابن القيم، الطبعة الأولى ١٤١٣هــــ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠٦-المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عــدنان داودي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـــــ، دار العلم، دمشق.
٢٠٧-مقاصد المكلفين، لعمر بن سليمان الأشقر، الطبعة الرابعة ١٤١٨هــــــ، دار النفائس، الأردن.
٢٠٨-مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع، لناصر العقـــل، الطبعـــة الأولى ١٤١٤هـــــ، دار الوطن الرياض.
٢٠٩-الملل والنحل، لأبي الفتح الشهرستاني، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، دار مكتبة المتنبي، بيروت.
٢١٠-مناهج الأدلة في توضيح عقائد الملة، لمحمد بن أحمد بن رشد، تحقيـــق: محمود قاسم، مكتبة الإنجلو المصرية.
٢١١-مناهج الجدل في القرآن الكريم، لزاهر بن عواض الألمعي، الطبعة الثالثـــة ١٤٠٤هـــــ، مطابع الفرزدق، الرياض.
٢١٢-مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـــــ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١٣-المناهج الواضح للبلاغة، لحامد عوني، مكتبة العلوم والحكم، المدنية.

٢١٤-منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، لفهد الرومي، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة بيروت.

٢١٥-موراد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، لابن حجر الهيثمي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد رضوان.

٢١٦-موعظة المؤمنين من أحياء علوم الدين، لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: عاصم بهجت البيطار، الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ، دار النفائس، بيروت.

٢١٧-ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، تحقيق: علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

(ن)

٢١٨- النشر في القراءات العشر، لمحمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢١٩-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، مصورة عن الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.

٢٢٠-النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير الجزري، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، دار الفكر، بيروت.

٢٢١-نواقض الإسلام القولية والعملية، لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ، دار الوطن، الرياض.

(هـــ)

٢٢٢- الهجرة في القرآن الكريم، لأحزمي سامعون جــزولي، الطبعــة الأولى ١٤١٧هـــــ، مكتبة الرشد، الرياض.

٢٢٣-هذه مفاهيمنا، لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء.

(و)

٢٢٤- الوافي بالوفيات، لخليل بن أبيك الصفدي، الطبعة الثانية ١٤١١هـــــ، دار صادر، بيروت.

٢٢٥- الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، لمحمد صدقي البورنـــو، الطبعـــة الثانية ١٤١٠هـــــ، مكتبة المعارف، الرياض.

٢٢٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس أحمد بن محمد خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـــــ.

٢٢٧- الولاء والبراء في الإسلام، لمحمد بن سعيد القحطاني، الطبعة الخامســة ١٤١٢هـــ، دار طيبة، الرياض.

فهرس الموضوعات